أمين نخلة

الاعمال الكاملة

المؤلفات النثرية

الادب واللغة





2



الاعمال الكاملة

2

المؤلفات النثرية
الادب واللغة

دار صادر
بيروت

الطبعَة الأولى

1435هـ - 2014 م



تأسست سنة 1863

ص . ب 10 بيروت ، لبنان

© DAR SADER Publishers
P.O.B. 10 Beirut, Lebanon
Fax: (961) 4. 910270 Tel: 910340
e-mail: darsader@darsader.com
http:www.darsader.com

Amine Nakhleh
al-A'māl al-Kāmilah 1/3

Vol 2
p. 400 - s. 17.5x25cm

ISBN 978-9953-13-776-6



أوراق مُسَافِر

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى ،

وحنينه أبداً لأوَّل منزلِ !

أبو تمَّام

مُقدّمة

هذه أوراق من دفتر جيب ، نُزعت من مواضعها ، وحُوِّلت عن أخوات لها ، كنت أُقيِّد فيها ، وأنا على سفر في بعض البلاد ، على «الخليج العربيِّ» ، واردات يوميَّة من خواطر تسنح لي في موضوع السَّفر وأهله . وإنَّما يشفع بالاعتساف في عبارتها ، وتقطُّع السِّلك في مضامينها ، انَّها كتابات أُخذت لحينها على غير كلفة ، ويشفع بنشرها للقرّاء انَّ صاحبها يجد فيها ، بعد أن مرَّ بعهده بها أيام كثيرة ، لذَّة الحنين إلى أشياء الماضي . . .

ويا ليت شعري ! أفيكون لهذه الواردات اليوميَّة أن يجد فيها قرّاؤها ، أيضاً ، شيئاً من اللَّذة ؟ أنا أسأل الله أن يكون لها في الأدب هذا النَّصيب العظيم ، فانَّ اللَّذة تجرُّ الفائدة جرَّ الذَّيل ، فهي هي التي تجوِّد النفوس ، وتحرِّك أريحيَّاتها ، وتثلجها ، وتبهجها . وماذا يقال لذلك كلِّه إن هو لم يكن فائدة ؟ !

نعم ! إنَّني أتمنَّى أن يظفر القرّاء في هذه الأوراق القليلة بشيء من اللَّذة ، فإنَّها غاية الأدب - وليس له بعدها غاية !

أمين نخله

أوراق مسافر

أجمل ما رأيت في السفر

= الورقة البيضاء التي تناولتها يدي لأكتب إلى أحبابي في الأوطان بما عندي ، وذلك في أول يوم كان لي في الغربة .

يومئذٍ تذكَّرت انَّ الكتابة من أعظم النِّعم على الناس . فهي التي بها يصوَّر الكلام ، وتُحادث العيون ، ويُجعل للأفكار والخواطر ومواجيد النفوس جسوم وألوان !

= ساعة الوصول ، يوم العودة من السفر . فانَّني حين غادرت الطائرة أحسست ، وأنا أمشي فوق أرض المطار ، انَّ لقدميَّ في مسّ تراب الوطن لطف الشِّفاه . نعم لطف الشِّفاه ! ويا حبَّذا ذلك التَّقبيل . . .

= لازمة القوم في « الخليج » ، في عرض كلِّ كلام لهم : « يا طويل العمر » ، أو « طال عمرك » .

إنَّها لازمة تجريها العادة عندهم في الأفواه ، ولا تفيد صراحة الدُّعاء للمخاطب بها ، أو رجاء الخير له . الاَّ انها تطيب لأُذن السامع كثيراً ، وعلى الخصوص في اوَّل عهده بسماعها .

هذا ضرب قديم من آداب الحديث عند العرب ، فيه لطف في المطارحة ، وإيناس جمّ . وهو ما لا يعرفه بالطَّبع ، مثلاً ، ابن باريس ، ولا ابن نيويورك ، بل انهما لا يستطيبان استعماله . ولا حرج عليهما في ذلك ، ولا اعتراض . فانَّ كلَّ قوم بذوق في كلِّ منحىً من مناحي العادات والمصطلحات وآداب الاجتماع ، حتى في أساليب التخاطب ـ لو يسمع هؤلاء المفتونون بتقليد الأوروبيِّين والأميركيِّين ، واتِّباعهم في الطالع والنازل من غير نظر ، ولا تأمُّل !

= بدويَّة من الملاح في النساء ، صادفتها في بعض الأطراف عند بيوت بيض وسط بساتين خضر .

ولقد حلا لي ذلك المنظر الخلائيّ البهيج ، بعد أن كنت في النهار قد قطعت والرُّفقة مسافات لا شجر فيها ، ولا نبت .

فقلت لتلك البدويَّة الحسناء : لمن هذه البيوت يا أُخيَّة ؟

قالت : هي لأهلها ولنا . . . ثمَّ طلعت بضحكة يغمرها السُّرور ، وانشراح الصَّدر .

فقلت لها : أمَّا كونها لأهلها ، فهذا قد فهمته ، وأمَّا كونها لكم ايضاً ، فانِّي لم أفهمه !

قالت : نعم ، نعم ! إنَّها لهم في السَّكن والاقامة ، وهي لنا في النَّظر إليها ، والتلذُّذ برؤيتها . . . وهل المِلْك غير ذاك ؟

فأعجبني جداً هذا الجواب من بدويَّة لا تعرف قراءة وكتابة ، ولا تعنِّي نفسها بمطالعة مطوَّلات « نيتشه » على مفاهيم السعادة في العيش . . .

= خلوة في الفضاء يوماً وبعض اليوم في إحدى الضَّواحي ، كُتبت لي في سجلِّ الحظوظ !

لا كتاب الى جانبي ، ولا قلم ، ولا لفظات من محدِّث يرنّ رنينها في أذني . بل غرق في السكون ، واستلقاء في حجر الطبيعة .

أَهذه هي الوحدة ؟ اللهمَّ لا ! فانَّه ليس في أخذ الرِّيح بالشجر ، حتى تغدو الأغصان كدرجات « القانون » تحت النَّغم ، ولا في انبساط الصحراء تحت تفاريق من العشب بلون الرَّماد ، كأنها صنف من الطَّنافس لا خمل له ، ولا في تألُّف الغيوم في جانب من الأُفق ، ومشي جبالها البيضاء في زرقة الصَّحو ، في ألطف ما تكون التؤَدة ورهو السَّير ، ولا في تطاول مدى الصحراء حتى تلتقي أطرافها أطراف الأُفق ، فكأنَّ السماء في الأرض أو الأرض في السماء ، ولا في مرور واثب متعجِّل من صغار الطير ، يسبح في فضاء الله ، ويهزّ جناحيه فرحاً بالحريَّة الواسعة ، ولا في الأصداء العجيبة التي تردِّدها المنقلبات من كثبان الرَّمل ، وهي لا صوت ولا صائح ، ولكنَّ الجوانب البعيدة من الصحراء كأنما تصدع بحركة ، ولا في إحساسك حينئذٍ انك صنو الكون حقًّا ، وجزء من اجزاء الطبيعة ولا مشاحَّة ، وانَّ بينك وبين عناصرها وأشيائها قرابةً وتعاطفاً ، ولحمة تلصق بنفسك هبوب رياحها ، وألوان رمالها ، وحركات غيمها ، وفرحة عصفورها ، وشبهات الأصداء من جوانب كثبانها ، وما تلامس في ظنِّ العين من أطراف السماء والارض في مدى فلواتها ، أقول : لا ! أيها القارىء ، ليس في ذلك ما يقال له : وحدة . وانَّما هو انفراد بلذائذ شهيَّة ، وانطراح في أحضان رحيمة ، وعود فرع إلى أصل . عود ميمون ، إلاَّ انَّه ، وآأسفاه ، قصير المدَّة !

= بدويّ يرتجل « النَّبطيّ » ، شعر العوامّ عندهم ، وفي يده الرَّباب تراسله النغمة ، وتساند أوتارها أنامله وخواطره . . .

ولقد أنشدنا هذا الشاعر « النَّبطيّ » ، من جملة كلام له على فرقة أحبَّته ، وطول اغترابه ، ما هذا معناه : يوم الرَّجيل والبعد عن الأوطان عرفتُ من حنين ناقتي في الطريق انَّ الديار قد بعدت منَّا كثيراً !

ألا أيها البدويّ الذي يقول الشعر من غير ان يهيِّئه : لأنت الذي حبَّب اليَّ الارتجال مرَّة واحدة في عمري ، هي هذه المرَّة . . .

= شجرة من الورد الأبيض في حديقةٍ لبعض الأغنياء المترفين . وقد عاشت في الحديقة وحيدة ، فريدة .

من كان لا يحبُّ الوردة البيضاء حبّه للغادة الحسناء ، ولا يشمُّ من أريجها نَفَسٍ أختها المرأة ، فليأتني بعينيه الثِّنتين إلى هذه الزَّاوية من الحديقة ، أُطلعه على حال المرأة « الزَّهريَّة » ، وهي تتنفَّس عن شفاه ، وتميل بقامة تحت أعطاف !

أو ما شممتَ إفاضة نَفَسها ؟ أو ما رأيتَ زمَّ الفم في أوراقها ؟ بروحي هذه الأوراق النَّاعمة الليِّنة . . . أحقُّ بها نسيم « الجبل » يأخذها عناقاً وضماً ! أحقُّ بها حسناء « الجبل » تدسُّها في صدرها ، ويغيب بياض في بياض . . .

فمن ذا الذي جاء بك الى هذه الغربة ، يا بنت بلدنا ؟

= تثويب مؤذِّن في « وقت الفجر » ، وهو يردِّد صوته بين المدينة والصحراء .

أنا لا أعرف في الموسيقى العربيَّة شيئاً ألذّ ، ولا أعذب ، من « آهات » سيِّد درويش ، و« جواب الجواب » عند أمّ كلثوم ، وما كان سامي الشوَّا يسيله من مقاطر أوتاره في المحطّ من النَّغم !

ولقد كُتب لي في تلك الساعة الفجريَّة أن أسمع ذلك المؤذِّن . فلمَّا رفع صوته بالتَّكبيرة في أعلى المنارة ، أشرفت من النافذة بدافع من النفس ، لا من الأذن ، فانَّ المؤذِّنين في « الخليج » لا يعرفون التَّطريب في الأذان ، ويكتفون فيه ببعد المدى في الصَّوت .

وكان اللَّيل قد تساقط من الإعياء . والدُّنيا سكون ، والرِّياح صامتة ، والأشجار لا تتحرّك ، والأضواء لا تلتمع ، إلاّ ما يُلمح منها كالخطف اليسير في نوافذ البيوت المجاورة . وقد غمر ما بين المدينة والصحراء شيء كالرَّهبة ! فكأنَّ الكون ، بعد اللَّيل ، قد انطرح بين يدي العرش الأسمى ضعيفاً ، ذليلاً ، خاشعاً . حينئذٍ صاح المؤذن : الله أكبر . . .

فلا ، والله ، ما نزل من عيني سيِّد درويش ، وأمّ كلثوم ، والشوَّا ، الاَّ في تلك الساعة !

نبرات في ألفاظ التَّكبيرة لا شدو فيها ، ولا ترنُّم . وانَّما هو تفريع شجوٍ على الحروف ، بين خفض ورفع في الصوت ، تنطلق منه النبرات مليئةً مهيبة ، لما تُشعر بالإيمان ، وبالوقار من خشية الله ، ثم تندفق في السَّمع دفقاً صافياً ، ثمَّ تنحدر انحدارها في النفس إلى أبعد قرار ـ وهل بعد هذا طرب ؟!

فيا أيُّها المؤذِّن (مؤذِّن الخليج) الذي لا يشدو ، ولا يترنَّم : الله أكبر . . .

* * *

بنات الماء

أحاديث صيَّادي اللُّؤلؤ في « الخليج » على ألوانه ومحاره وأصدافه ، وعلى صنوف الأسماك والصُّخور والأشجار في قاع البحر ، من أشهى الأحاديث وأعجبها . فهي تدور على ولود وعاقر من المحار ، وشرس نفور قبيح الصُّورة من السَّمك ، وأسود ملتمع السَّواد من الشَّجر ، وأملس لدْن رقيق الشُّفوف من الصَّخر ، تكاد ترى منه ما وراءَه .

ويذكر لك هؤلاء الصيَّادون من حالهم بالعيش انهَّم في مواسم الغوص يقضون أياماً طويلة لا يرون فيها أرضاً ، ولا تلمح عيونهم بشراً ، وانَّ لهم أغانيَّ وأهازيج خاصَّة بهم ، ترنُّ رنينها فوق الماء ، وحلقات في مراكب الصَّيد تجمعهم على السَّمر ، وطيب المطارحة ، إلى آخر تلك الممتعات من أحاديثهم .

ومن ألطف ما سمعت منها ، هذا الذي رواه لي أحد الصيَّادين ، قال :

« ـ كانت البحار في الزَّمان الماضي غيرها في زماننا ! وكان آباؤنا يجدون في قيعانها من العجائب والغرائب شيئاً كثيراً . ولقد وقع لوالدي في بعض الأيام ، وكان هو أيضاً مهنته صيد اللُّؤلؤ ، أن لقي بين صخرتين في قعر البحر ، واحدة من بنات الماء ، نصفها سمك ،

والنُّصف الآخر بشر سويّ . إلا انها على ملاحة كملاحة الحسان . فحلت له ، وحلا لها . وكان اذا تأخَّر في الأيام عن الغوص ، وإتيان مكانها بين الصَّخرتين ، تطلع هي الى سطح الماء وكأنها تفتِّش عنه . فلمّا علت سنُّ والدي ، وانقطع عن المهنة ، بقيت زماناً تفاجئُ فيه مراكب الصيَّادين بأصوات كالبكاء والعويل . . .

« وقد قال لي والدي ذات يوم : أما ، والله ، يا بنيّ ، لو انَّ صاحبتنا كانت تتكلم العربيَّة لعرفت منها مواضع الكنوز والمخبآت في قيعان البحار ، ولأغنينا فلا تدركنا حاجة ، ولا سوء حال ، آخر الدهر ! » .

ثمَّ قال لي الرَّجل ، وهو يحلف جاهداً ، انَّه رأى مرَّةً في أحد المدارات من الغوص ، وذلك في صدر شبابه ، بنت ماء كالَّتي عرفها أبوه ، وانه حلا في عينها ، وانَّه جالسها ، وانَّه سألها عن بني قومها ، وعن مخابىء البحر وكنوزه ، إلاَّ انهَّا كانت هي أيضاً كصاحبة أبيه ، لا تعرف كلمةً من العربيّ ، فلم تفهم منه شيئاً ، ولا هو فاز منها بطائل !

هذا جنس من السَّمك لا يعرفه الاَّ صيَّادو اللُّؤلؤ في « الخليج » ، وهؤلاء جنس من النَّاس (والنّاس من جنسهم كثير !) ، لا يعرفون في العيش الاَّ خلوَّ القلب من الهموم الكبيرة ، وخلوَّ النفس من كلّ ما يحمل على العلم بأشياء الطَّبيعة ، وحقائق الحياة . فهم يعيشون في دنيا غير هذه التي بين يدينا . دنيا من سذاجة وقناعة وضيق حدود تطيب بها نفوسهم ، وتقرُّ عيونهم . فمن كان يظنّ أن ليس للجهل لذائذ ومسرَّات خاصَّة بأهله ، موفورة لهم ، فانَّه أبعد كثيراً !

ولعمرك ! كم في قرَّاء هذه السطور من قارىء يتمنَّى لو يكون له

بكلِّ ما عنده من رجاحة في الرأي ، وبكلٍّ ما يختزن في صدره من ضروب المعارف ، أن ترى عينه بنتاً من بنات الماء . . .

* * *

رسالة مسافر

يا أهل بلدنا :

البعد قرّب منكم ، والسَّفر شدَّ عنان النَّفس إليكم ، والوجوه الجديدة في عيني حبَّبت إليَّ الوجوه القديمة التي أعرفها لكم بين الدُّور والشّوارع وظلال الحدائق ومنعطفات الطرق في شطآنكم وجبالكم ، بل انّها حبّبت إليّ كلّ سحنة تلوح من ناقل قدم في جرومكم وصرودكم . فحبّذا عندكم الزّارع والرّاعي والجزّار والبدّال وخادم الفندق وصبيُّ المقهى وسائق السيَّارة ! وحبّذا الكنَّاس في الشّارع ، ومعالج الشّواء في المطعم ، وبائع اللّفائف في دكّان التّبغ ، والمنادي على الصُّحف في كلّ سبيل !

أمّا صوت نهركم في قاع الوادي ، والقيظ واقف خذلان ، ينظر من بعيد ، وأمّا صوت نسيمكم في فُرَج الظِّلِّ تحت الشَّجر ، والشَّمس في أطراف الغصون تمْنع ويُؤذن لها ، فهذان عليهما سلام الله ! هما نغما أذني على الوسادة في مغمضات اللّيل ، يردِّدهما توهُّم هذا النّازح المشتاق ، حتّى ليكاد يفهم منهما كلاماً ، أو شيئاً كأنّه الكلام . . . وعلى الجملة : صرتُ ولا شيء في هذه الدُّنيا أجمل في عيني من أشيائكم ، ولا وطن أحبّ إليّ من أوطانكم . ولله لذّة تذكاركم وتذكارها في السَّفر !

فان البعـاد اذكرنـي أوَّل غمسـة لي في مائـكم ، وأوَّل خطـوة لي فوق أرضكم ، وأوَّل حبٍّ ، وأوَّل فرحة ، وأوَّل نشداني لما في الدُّنيا ، وأوَّل ابتغائي لما لا يكون فيها !

وأناجيكم ، يا أهل بلدنا : ما هكذا كان العهـد بالمسافـر ! وانمَّـا السَّفر هو الذي يغسل الأرواح ، ويمسح على المؤآخذة ، ويستلُّ سخط الصُّـدور ، ويردُّهـا صافيةً وادعـة ، ويبعـث الحـبَّ للـدِّيار ، وأهـل الدِّيار ، من كلِّ قريب منهم وبعيد !

فقولوا لي ، يرحمكم الله ، أَأَذُمُّ السَّفر ، بعد هذا كلِّه ، أم أثنـي عليه ؟ . . .

* * *

تكميل المعارف وتزكية الفطر

يقول ابن خلِّكان في « الوفيات » ، في ترجمتـه لبعض العلماء ، ما هذا مؤدَّاه :

كان الناس يتعجَّبون من تقدُّمـه في الفهـم والمعرفـة ، مع انَّـه لم يغترب في طلب العلم !

وهكذا تجد انَّ تكميل المعارف ، وتزكية الفِطَر بالأسفار ، ومشافهة بعيدي المنازل من العلماء ، ليس عهد الناس بهما جديداً .

* * *

السفر والناس

سفرك في البلدان ككلٍّ عملٍ تأْتيه من أعمالك ، وترى الناس بين مادح له وقادح فيه ، على كونهم ، في الغالب ، لا يعرفون عنه شيئاً ، ولا يسألون عن شيء من جليَّته !

وقد كان والدي يقول لي في مقام ما يُسمع من صيتٍ أو ذكر : السُّمعة كلام يتناقله الناس حقائق عن مسائل ، وأشياء ، لاً يعرفون حقائقها . . .

* * *

كلمات بارعة سمعتها في السفر

في السَّفر يطرق سمعك الغثُّ والسَّمين من الكلام . ولقد أُتيح لي في أسفاري أن أظفر بكلمات غاية في الصَّواب والرَّونق والطَّرافة . ومن ذلك ما هذا بعضه ، وهو مجملات لا تحتاج إلى تفصيل ، فانَّ أغراضها منكشفة ، دانية من يد القارىء :

السُّبحة الطَّويلة ـ ألذُّ ما تجده في أوقات فراغك من العمل : كرُّ أناملك على السُّبحة الطَّويلة من أفكارك ، ومسُّك لحبوبها واحدة بعد واحدة .

ذلك ، أيُّها القارىء ، إن كان عندك خرزات منظومة في سلك أفكارك كالسُّبحة . . .

في فنّ الحديث ـ المحدِّث البارع يكون على أن يصغي أحرص منه

على أن يسهب في الكلام ، وتخرج الزَّبدة في شدقه ! وإلاّ تضايق أهل المجلس من كثرة كلامه ، وطول استطراده ، وهرعوا إلى الأبواب ، وإلى النَّوافذ ، ناجين بنفسهم ، وقيل : الحمد لله . . .

معاجم جديدة ـ إكراماً لعيون جماعة من هؤلاء الناجمين في الأقطار من كتَّاب وشعراء ، يحسن أن تُجمع معجمات تزخر بألفاظهم ومعانيهم . فانَّ هذه المعجمات العربيَّة ، التي بين أيدينا لا تهتف بما يدور من الكلام على أقلامهم . ومن لك بمعجم في لغة الضاد يكون فيه : هيولائيَّة ، وساموثرائيَّة ، وسكولاستيكيَّة ، وعزلات مصيريَّة ، وتشعير موجوداتيَّة ، وشعرنتها ، وتشعريناتها ، ومشعوريناتها . . .

وأيضاً ، من الإشفاق على القارىء الذي يقع له في الفترات شيء من كلام هؤلاء ، أن تؤلَّف المعجمات للغتهم العجيبة !

الظَّرف خلقة ! ـ الظريف لا يتظرَّف ، أي لا يتكلَّف الظَّرف . وأثقل حضَّار المجالس ظلاًّ ، وأشدّهم كثافةً على القلوب ، رجل لا خفيف ، ولا كيِّس ، ولا عذب الرُّوح ، ويتظرَّف !

ومن بلايا متكلّفي الظَّرف انَّ واحدهم لا يكون في الغالب ، حسن الوجه ، ولا حسن الكلام . فهم بذلك قذى العيون ، وشجى الصُّدور في آنٍ معاً !

وعندي من النَّصيحة لمن تقع عينه في المجالس على واحد منهم أن يحجم عن الدُّخول ، ويلوذ بالخفة من قدميه . فانَّه لا دواء في هذا الدَّاء أنجع من الهرب . . .

هموم الكتَّاب ـ الزِّيُّ المتَّبع اليوم عند سيِّداتنا : هفَّاف من

الفساتين ، يشفُّ فيحكي ما تحته ، ويخفُّ مع الرِّيح من رقّته . بلا كمَّين ، وبلا صدرة . قصير ، جدّ القصر ، حتى ليكاد يجاور ، لولا رحمة الله ، حيطان ملامس العفَّة من جسد المرأة . . . فتكون السيِّدة به بين الكاسية والعارية . وهذا اسمه : لبس المُنَهنَه (من النَّهانِه ، وهي : الثِّياب إذا كانت نهايةً في رقَّة النَّسج) .

أو سروال فرنجيّ (بنطلون) ضيِّق ، يلي الجسم ، ويشدُّ شدًّا عنيفاً . تحت قميص من قمصان الرِّجال بزيقٍ مقوَّر ، موسَّع التَّقوير ، يرمي الى مجمع النَّهدين . ذلك شرط أن تكون السيِّدة مطمومة الشَّعر ، أي مقصوصته ، حتى تبدو ، وهي كما قال أفصح قائل في هذا المقام ، أبو نواس : « مطمومة الشَّعر غلاميَّةً » . وهذا اسمه : لبس الغلاميَّة (وهي المرأة في ملابس الغلمان) .

فرفقاً بكتَّاب العربيَّة ، يا سيِّدتي ، إنَّك كلَّ يوم في زيّ ، وهم كلَّ يوم في تقليب المعاجم ، ينبشون لك الأسماء للغرائب الجديدة من أزيائك . اليوم « لبس المنهنه » ، و« لبس الغلاميَّة » ، فما عسى أن يكون عند الكتَّاب ، يا رعاكِ الله ، همُّ يوم غدٍ . . .

ولكن ، فليطمئنّ بالهم ! بعد « المنهنه » ، سوف يكون التجرُّد من الثِّياب بالمرَّة ، هو الزّيُّ الجديد ، ولا ريب !

ويومئذٍ يستريحون من تقليب المعاجم .

الحبر والتِّبر ـ أُوتي الكاتب أعظم آلة ، هي : القلم ، وأُوتي صاحب الثروة أعظم قوَّة ، هي : الذَّهب . وانَّ هذا الزَّمن هو زمن المادَّة ، لا يكاد يكون فيه التفات إلا إليها . وقد فطن ذوو الثروات

(وهم الَّذين في العادة يقال لهم : أصحاب رؤوس الأموال ، أو رجال الأعمال) إلى كون آلات الكتّاب هي التي تقيم وتقعد في الدُّنيا ، فجهدوا جهدهم في جعل الحبر عبداً للتّبر ، يخدمه على الرأس والعين !

ومن هنا جاءت جرائد يخرجها رأس المال بأيدي ذويه ، وجرائد يخرجها بأيدي غيرهم ، الاَّ انَّ رسنها يكون في يده . وهو الَّذي يقوم بنفقتها ، وهو الَّذي يجعل لها سياجاً من حوله وطوله .

وقد قال أحد الكتّاب الهزَّالين في فرنسة ، من كلام له على الصّحافة في زماننا :

ـ ما من جريدة في أميركة ، ولا في أوروبة ، يخرجها الحديد للقرّاء (يورِّي بالحديد هنا عن المطابع) ، وانَّما الذي يخرجها لهم هو الذَّهب . . .

أي على قاعدة الشاعر القديم في قوله ، يخاطب ممدوحه :

إنَّ المداد ، مداد الشِّعر ، جاء به
مدفَّقُ التِّبر ، من كفَّيك تجريهِ ...

هذا ، ومن أراد أن يقف على ما سوف يؤول اليه الفكر في دولة المال من ذلَّة ، واستقادة ، ولين شوكة ، فليطالع ما كتبه شارل موراس في مؤلَّفه « مستقبل الفكر » ، فانَّ فيه إنباءاً من خبير ـ ولله موارس ، أيُّ خبيرٍ منبىءٍ هو !

التَّفكير عند المرأة ـ عند المرأة إجالة النَّظر ذات مرَّة في المسائل ، وتأمُّلها ، وتقليب الرأي فيها ، حادث من الحوادث الجسام في حياتها ، لا حالة مألوفة ممّا فُطرت عليه من غرائز وملكات ! لذلك هيهات أن تجد

في النعوت التي ينعتها بها الاستعمال عند الكتّاب ما ينظر إلى السّداد وجودة الرأي . فهم يقولون ، مثلاً : فلانة وسيمة ، قسيمة ، بارعة الشّكل ، إلى آخر هذه النعوت النُّسويَّة ، ولا يقولون بازاء ذلك : انها حصينة ، أو جزْلة ، أو بعيدة مرمى النَّظر !

عصر الضَّجَّة ـ إذا كان عصرنا عصر السرُّعة ، فانّما هو أيضاً عصر الضَّجَة التي لا تنقطع بين الأرض والسماء . فسيَّارات ، وقُطُر حديد ، وبواخر ، ومصانع ، وطائرات ، ومناطيد هليكوبتر . ثمَّ هذه الصَّوائح من آلات راديو وتليفزيون وفونوغراف ومسجِّلة صوت . ثمَّ جلبة المارَّة ومنادي الباعة في كلِّ سبيل !

ولقد أخذ يلتفت الطِّبّ في الأيام الأخيرة إلى مسألة الضَّجَّة ، وتأثير العصب المكدود ، والقلق المستحوذ على القوى النفسانيَّة من جرّائها ، في التياث المزاج ، وفتور البدن . وكذلك أخذ يلتفت القانون إلى فرض العقوبات ، من شديدة وخفيفة ، على الصَّخب المتجاوز الحدّ .

وهكذا تجد انَّ مسألة الضَّجَّة قد استفحل أمرها جداً ، وجاء يشترك في شمِّها علم الطِّبّ ، وعلم القانون .

ومن ألطف ما سمعت على بلايا الضَّجَّة ، هذا الذي قاله لي أحد المجاورين لبعض دكاكين الكولا والجلاَّب والتَّمر الهندي ، وقد ضاق صدره بقرع صحاف النّحاس ، ولعلعة صوت الرَّاديو ، وصوت المنادي على البضاعة في الدكّان :

ـ أنا أسأل الله التوفيق للأميركان والرُّوس فى فتوحهم الفضائيَّة .

فاني سوف أكون أوّل الوافدين على بلاد القمر ، هرباً من ضجّة هذا الكوكب الأرضي . . .

* * *

سوانح مفيدة مخافة أن تفوت

الخواطر كالحظوظ ، لها أوقات جود وأوقات مضنّة . فكنت في السَّفر اذا جاد خاطري بسانحة ، أسرع إلى تقييد الملامح من معانيها ، حتى تجيء لي ساعة صفوٍ تطيب فيها نفسي لتناول القلم .

ومن تلك السَّوانح المقيَّدة أشياء تحتاج إلى تفصيل في الكلام ، وأشياء لا تحتاج اليه ، فهي تُفهم بأدنى نظر . وما هنا بعض من هذه ، وبعض من هذه :

1

الإبتسام ـ أقول للعابس المتكسر الوجه من الكمد : ابتسمْ ، ويحك ! فمن ذا الذي زعم لك انَّ جمال الحياة يُقابل بالجزع ، وانَّ الحظوظ يظلُّ سجلُّها في حران عند الكدر ، ولا يقلب الصحيفة إلى الصَّفو ؟! ومن ذا الذي زعم لك انَّ الإبتسامة ليست مفتاح القلوب في المجالس ، ولا دواء العليل في يد الطَّبيب المداوي ، ولا ترجمان الأعذار في عتاب الأحبّة ، ولا دلاّل البضاعة في دكّان التاجر ، ولا برهان المحاسي ، ولا سيف الجنديّ ، ولا لسان العاجز عن الكلام ، ولا شفيع طالب الحاجة ، حين يخيب كلُّ شفيع ؟

فيا أيُّهذا العابس الذي ليس في يده مفتاح لقلب ، ولا دواء لمريض ، ولا ترجمان لعذر ، ولا دلاَّل لبضاعة ، والذي لا برهان له ، ولا سيف ، ولا لسان ، ولا شفيع في حاجة : لك عندي من النَّصيحة أن تبتسم . . .

أمَّا أنتِ ، يا بسمة الغادة الحسناء ، فانَّك المقدّمة لكتاب الحبّ ، والمطلع لقصيدة القُبلة ، وكلمة الميعاد من غير لفظ ، وحركة الشَّوق من غير صوت ، ومسحة من لون السرَّيرة على أطراف الشّفة !

ولأنتِ ، يا بسمة ، منارة ملاَّح الهوى في لجج الظَّنّ ، يهتدي بشعاعها إلى سواحل الطمأنينة ، وبوصلة يستدلُّ بإبرة شمالها على اتّجاه الضمير ، ومصباح يسير على ضوئه الى نهار اللقاء . . .

ويا بسمة : انَّك تميمة الحسناء معلَّقة بين المراشف والمحاجر مخافة العين . . . صانك الله هكذا أبداً !

2

من بلايا الشِّعر - كان تعاطي الشِّعر عندنا ، إلى ما قبل أيامنا بقليل ، يغضُّ من بهاء الرَّجل أمام كثير من الناس . فقد كانوا لا يفهمون من الشِّعر الاَّ انَّه طلب زلفى ، والتماس جائزة .

هذا الأمير شكيب ، وهو الذي قال فيه المنفلوطي ، يوم ترجم شعراء العصر وكتَّابه : « لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر . ولكنّهما كفّتان ، كلَّما رجحت الواحدة أشالت الأُخرى » ، فانَّه روى في كتابه على شوقي ، من كلام له يذكر فيه انصرافه عن الشِّعر إلى النثر ،

ما هذا حرفه : « سألني مرّةً ابرهيم بك المويلحي الكاتب المشهور : أيهما أفضل عندك ، النظم أم النثر ؟ فأجبته : لا مقايسة عندي بينهما . إنّي أفتخر بأن أكون كاتباً ، واستحي من أن أكون شاعراً ! »

استحى الأمير شكيب يومئذٍ أن يُعدّ في جماعة الشعراء ، مخافة الغضاضة ، والنّقص من القدر . فكأنّها موافقة منه للشّريف الرَّضي ، وهو الذي يقول في هذا المعنى :

ما لكَ ترضى أن يُقال شاعرٌ ؟
بعداً لها من عدد الفضائلِ !...

ولقد بقي إلى اليوم في بعض البلاد العربيّة شيء من الازدراء للشّعر ، والتهاون بأهله . وانّي هيهات أن أنسى يوماً كان لي في إحدى مدائن « الخليج » ، وقد أعرض عنّي في مجلس القوم رجل لا يكاد يعرف قراءةً ولا كتابة ، إلاّ انّه من ذوي الثّروة المعدودة . أضرب الرجل وصدَّ لقول بعضهم عنّي في المجلس ، وهو يريد توقيري ، وتعظيم قدري في الحاضرين : هذا شاعر ، وابن شاعر . . .

فيا لله ! كم في بلايا الشاعر بالشّعر من غصص لا تسكن . فكأنّه لا يكفيه فرط الإحساس ، ولا فرط التّفكير ، ولا نحت القوافي من معادنها ، حتى يُبتلى أيضاً بحسبان انتسابه الى الشّعر معرَّةً ، ومسقطةً له من العيون !

3

خصائص في الجمال - الجمال في اجادات الكتابة ملازم لها ، ملتصق بها ، لا ينفكّ عنها بحال .

وإنَّك حين تشتمُّ ، مثلاً ، رائحة زهرة من الورد ، تحسُّ انَّ الأرج يخرج اليك ، ويربط ما بينك وبين الزَّهرة الجميلة . أمَّا حين تكون بين يدي إجادة من إجادات الكتابة ، فانَّك تحسُّ انَّ جمالها لا يخرج اليك خروج النَّفحة من الوردة ، وانمَّا هو ملتحم بالإجادة التحاماً شديداً ، فليس لك منه إلا الالتذاذ من بعيد . . .

ولقد يخيَّل إليك ، ممّا ترى للإجادات الكتابيّة في ذلك ، انهَّا لن ينتقض لها عقدة ، بل سوف تظلُّ هكذا متمسّكةً بجمالها ، ضابطةً له ، إلى يوم يفنى جنس القرّاء عن وجه الأرض . . .

4

الخوف على الديمقراطيَّة - قلت لصديقٍ لي فرنسويّ كان يرافقني بين باريس وفرسايل ، أيام قصدت إلى فرنسة :

- أرى ، والله ، عجباً كثيراً ! فكلّ عظيم لكم من قصور ومعاهد وأضرحة وحرجات وحدائق ودور آثار ، انمَّا هو من العهد الملكيّ ، أو العهد الأمبراطوريّ ، لا من عهد الجمهوريَّة ! ومن الكلام السَّائر في بلادنا قولهم : عظمة البناء تدلُّ على عظمة الباني . . .

ويوم كنت في اسطنبول ، وطوَّفت في معالم السّلاطين ، وهي ما لا تقع العيون في الدُّنيا على أعظم منه سعة بنيان ، وبداعة هندسة ، وتناهي زخرف ونقش ، وتثقيب في الحجارة بالغ مبالغ الإبرة في لطف الغرز ، وأضف تلك التُّحف الفاخرة ، والنَّفائس الثمينة ، والتمَّاثيل النَّاطقة بغير لسان ، يومئذٍ قلت لمن كان دليلي بين بدائع العثمانيِّين :

- أين أصحابكم في « أنقرة » من هذا كلّه ؟ . . .

ألا إنَّ ما يُخاف منه جدًّا على الديمقراطيّة ، إن هي لم تأتِ الناس في كلِّ مصير من مصايرهم بترقيات غاية في السموّ ، وإدراك الكمال ، أن يولّوا وجوههم عن عظمة المعنويّ إلى عظمة المادّيّ . ولا يزال الناس في كلّ عصر ومصر يؤثرون ما يملأ عيونهم على ما يملأ عقولهم . . .

5

في إيوان كسرى ! - ما مررتُ بقصر فيه تناهٍ في العمارة ، وتفنُّن في الحدائق ، وإتقان للمداخل ، والأرتجة ، والأسوار المطيفة به ، إلاّ تذكَّرت ما وصف به بعض الأعراب عيش البادية ، وقد قيل له : كيف تصنع في الصَّحراء إذا انتصف النَّهار ، واشتدَّ وهج الشَّمس ، وانتعل كلُّ شيءٍ ظلَّه ؟ فقال :

« وهل العيش إلا ذاك ! يمشي أحدنا ميلاً ، فيرفضُّ عرقاً كأنَّه الجمان ، ثم ينصب عصاه ، ويلقي عليها كساءَه ، وتقبل الرِّياح من كلِّ جانب ، فكأنَّه في إيوان كسرى . . . » .

لم ينظرْ صاحبنا ذو الشَّملة إلى استبحار عمران ، وتأثُّل مدنيّة ، ولا إلى غرف عالية ، ونوافذ شارعة إلى الجوّ ، وجنّاتٍ فينانة الدَّوح ، حبيبة الغدير ، وإنَّما هو نظر إلى السّعادة بنفسها !

. . . وهل العيش إلا ذاك !!!

6

حديث عن الغزلان ـ بشّرتني مجلّة « النَّهج » انّ صيد الغزلان قد قلّ بعض الشّيء . وذلك انّ النّاس كانوا قبل اليوم يستخرجون المسك من غدد نوعٍ من الغزلان ، كما لا يخفى ، فلمّا جاءت الكيمياء تستخرج خصائص المسك من تركيب صناعيّ يقوم على « التّيوفين » ، كفّ النّاس في كثير من البلاد عن صيد الغزال .

ولقد أذكرني كلام « النّهج » يوماً لي في « الخليج » بكرت فيه إلى الصّحراء في رفقة يصيدون الغزلان من السيّارة . فكنت رفيق السَّفر ، لا رفيق الصَّيد ، أشهد للمرّة الأولى كيف يُصرع الغزال ، ولا يُرحم ! فلمّا طلع علينا ، من وراء الكثبان ، سرب من تلك الأسراب الغريرة ، تذكّرت عيون الغزلان ، وأعناق الغزلان ، ولفتاتها ، وطيب مسكها ، ولطف ما بين نقلها ووثبها ، فرحت أسأل الرُّفقة واحداً واحداً أن لا يطلقوا على القطيع الحبيب رصاصةً ، ولا سهماً . . . فقيل لي يومئذٍ : لك الله من عاشق غزلان !

نعم ! إنّي من عشّاق الغزلان ، من الّذين يودّون لو قد جُعل جنس الحيوان كلّه غزالاً ، والّذين لا يجمجمون الكلام في هذا الحبّ .

ويا ليت شعري ! أيُراد منّي غير ذلك ؟ أيُراد ، مثلاً ، أن أُحبّ التّيوس ؟ . . .

7

الحزن الغامض ـ كتب اليّ الأخ القاضي اميل أبو سمرا ، يوم كان في

بلاد النَّمسة يستشفي مّما ألمَّ به من الشّكاة ، أنّه سمع على ضفاف « النِّيكار » ، في بعض العشايا ، فتىً يردِّد من اغنية نمسويَّة ما هذا معناه :

السَّماء تمطر ، والقوارب الصّغيرة فقدت الوعي . فيا أيَّتها الشَّجرة الَّتي هنا : لا تزهري ، فانَّ الحبيب لا يزال غائباً . . . وأنَّ صوت الفتى المحزون ، وما في نغم الأغنيَّة ، وفي معانيها على فرقة الأحبَّة ، وعلى السَّماء المطيرة والقوارب المشتَّتة في النَّهر ، قد شجوا صديقي ، وأورثاه حزن ذي الشَّوق إلى ديار غير مرجوَّة اللِّقاء . . .

ثمَّ انقضى بعض العام على الكتاب ، وكنتُ في سفر إلى « الشَّارقة » ، وعليها الأخ الأمير صقر بن سلطان القاسميّ . ففي أحد الأصائل ، والوقت صيف ، والحرارة على الدَّرجات العالية ، ضاقت نفسي ، فاستأذنته في الخروج إلى الشاطىء وحدي ، أُنفِّس عنها بين صفحة « الخليج » وصفحة الصّحراء !

فبينما أنا في السَّيّارة ، تمشي بي الهوينا بإزاء الموج ، وصغار القوارب في هدات الغروب ، لا يكدن يتحرّكن ، إذا بصوتٍ حزينٍ شجٍ يتعالى ناحية النَّخيل ، على مقربة من الشاطىء ، وتتساقط نبراته الحارَّة فوق الماء كالشُّعل الصَّغيرة . . . شارقيّ يتغنَّى تحت أشجار النَّخل بأشعار « نبطيّة » . فقلت للسَّائق : ويحك ، لا تمشِ بي خطوة واحدة ! وألقيت سمعي إلى الشارقيّ الذي كان يتغنَّى بما محصَّله :

لكِ الله يا شجرة ! واقفة ، ساكنة لا ترجفين من الشَّوق إلى الَّذين ودَّعوا وذهبوا . . .

وكانت الشّمس قد انحدرت . قرص أحمر يلجّج في الزُّرقة . والنُّور يسيل ولا يلتمع ، والهواء نديان ، ناعم الحركة في النُّور الذّائب . فتذكّرت عشيّة « النّيكار » ، وصوت النمسويّ الشابّ ، وقوارب نهره ، ومطر سمائه ، وشجرة بيته التي لا تخرج الزّهر ، وما كان من حزن صاحبي لذلك. فاجتمع لي الشّجوان : شجو التّذكار ، وشجو السّاعة القائمة ، وأحسست كأنَّ وهدة في صدري قد أفعمت بالحزن إلى الطّفاف ! فقلت للسّائق : أمّا الآن ، فإيّاك أن تتوقّف عن المسير !

إنَّ للنّفس في بعض الفترات حزناً غامضاً لا يتّصل بفائت ، ولا فقدٍ ، ولا فرقة ، ولا بأيّ شيءٍ آخر ممّا يدبُّ إلى الصُّدور من أكدار الحياة . فكأنه مجرىً روحيّ ، كما يقال بلغة العلماء الفلكيّين ، يصبُّ ممّا لا نعلم من ينابيع الغيب في الجانب الحنون من الأفئدة . . .

ويا صاحبينا ، منشد « النّيكار » ، ومنشد « الشّارقة » : رويدكما ! أفسم الأوّل منكما صدر العليل في بلاد النّمسة ، وأفعم الثاني صدر المسافر في بلاد « الخليج » . . . وكيف يصبح فارغاً من تحملان إليه الهموم على كفّ النّغم !!!

8

أمٌّ إفرنجيّة ـ يفهم الإفرنج من الطبيعة ما لا نفهمه نحن ، ويدلّهم من حبّها ما لا نحسّه ، ويشتاقون إلى معالمها ما لا يهيجنا ، ولا يلعجُ بنا .

ولقد كانت صبيحة يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضي في « حديقة

الصَّنائع » ، عندنا في بيروت ، صبيحة ربيع بحقّ ! زُرقة في خضرة ، في بقيّة من لون أحمر كان منذ ساعة مشبع الحمرة ، ثمّ اضمحلّ وتلاشى ، فليس هو إلاّ مسحات شاحبة تأخذها العين في زاوية من الأفق ، أو خلف شجرة ، أو في رأس المئذنة البعيدة . . . أمّا العشب ، هذا النّاعم الطّريّ ، فكيف ظنُّك في قلب يطاوع على دوسه ، أو على نقل القدم فوق بساطه !

ذلك إلى ما تحسُّه النُّفس من بهجة الجديد في الفصل الطّالع ، فصل شباب الطّبيعة الذي لا يعوزه من حسن الفتاة ، قامة في غصن ، ولا شفتان في وردة ، ولا ملاسة شعر في خُصَل الورق ، ولا نَفَس مشموم في ما تنشقُّ عنه الأكمام المنضمّة . ولله الأنواف ، أي البياض الذي يكون في أظفار الأحداث ، ما ألطف نمائمها في قضبان الزّنابق أوّل ما تُدرك . . .

ففي بكرة هذا النّهار ، والشّارع ساكن الحركة ، والنّاس قليل ، ما لهذه السيّدة الافرنجية تطوّف في الحديقة بين الحياض والبركة ورقاع الزّهر . أعاشقة ، أم شاعرة ، أم مصوّرة ، أم حزينة النّفس تطفىء ما في صدرها ببرد النّدى ، وطراوة الجمال الأخضر ؟

فلمّا انتهت إلى المقعد بإزاء البركة ، إذا هي تمسك بعربة من عربات الأطفال . فعرفتُ انّها أمّ هذا الطّفل الأشقر ، المسند الظّهر في العربة ، لا الخادم ، ولا المرضعة ، ولا المربّية المأجورة . يُعرف ذلك من لحظات بصرها ، ولطف ما تتلقّى به ذراعي الطّفل ، كلّما مال يمنةً أو يسرةً ، أو كلّما حاول أن يشب ، من بهجة ما يرى ، وثبته القصيرة !

وتبارك خالق الباريسيّات . . . قضيب من البان في « حديقة

الصَّنائـع » ، دعاهـا صبـاح الـرَّبيع ، وهـي سيِّدة باريسيَّة ، نزيلـةُ المدينة ، إلى التَّمتُّع بأجمل ما تعرضه الطَّبيعة من زينها وحلاها ، وأجزل ما تتملاَّه الصُّدور من نشاط وانشراح وعافية ، فجآءت وطفلها معرض الجمال ، ومصحَّة الأرواح والأبدان ، شأن بنات قومهـا في الغـدوِّ إلى « الشانزليزه » ، أو « غاب بولونيا » ، في مثـل هذه الأيَّام من الفصـل المحبوب .

ولستُ بناسٍ في عمري ما كان ، بعد ارتفـاع النَّهـار ، من حال الطِّفل وهو في العربة ، جانب البـركة ! فلقـد تخلَّل شعـاع الشـمس أغصان الشجر ، يلوح هنا وهنا ، وتحرّك الورق في الهواء بلمعانٍ نديّ ، وترشَّشت مطفرةُ الماء على البركة في نقط صغيرة متفرِّقة . وفي وسط تلك السعادة الفائضة لاح الشَّعر الأشقر ، والعينان الزُّرقاوان ، والخدّان ، والشَّفتان . . . ولعمرك ! أكان هو يرشف العافية رشفاً رفيقاً ، أم كانت العافية هي التي تأخذه بيديها ضمًّا وعناقاً ، وتمسحُ على وجنتيه ، وعلى عنقه ، وعلى موضع الشَّمِّ من صدره ؟!

ويا للمصوِّر بالحبـر والـورق ! كيف يكون لقلمـه أن ينقـل لك حركات تينك الحدقتين الصغيرتين من فرحة ما ملأهما من شعاع والتماع خضرةٍ ونضارة . . .

ولقد قلت في نفسي ، أُخاطب تلك السيِّدة ، وهي تخـرج بعربـة طفلها من باب الحديقة آمنةً مسرورة ، بعد ان حمي الضَّحوُ ، وماجت الشَّـوارع بالسّابلـة : يا هذه الأم الفرنسـويَّة : حرس الله طفلك ، وأطلعـه في الرِّجـال ، مثـلاً ، رئيسـاً « لجمعية حقـوق الإنسـان » في باريس ، لا قائد جيشٍ يشنُّ الغارات في أطراف الأرض . . .

9

الأشياء تتكلَّم ـ ولمَ لا تتكلَّم الأشياء ، وهي تحيا الحياة معنا ، وتشهد ما يعرض في مجتمعنا الانسانيِّ ، وتقلُّبنا في الأيام ، من أحوال وأفعال شتَّى !

ومن ذا الذي زعم لك أنَّ نفسها تنقبض من وضع لحمة اللِّسان ، وماء الرِّيق في فمها ؟ أو انهَّا تعاف التكلّم مخافة الوقوع في مثل الثَّرثرة الآدميَّة ؟

ثمَّ ما ترى يمسكها هي عن الكلام ، وقد تكلَّمت البهائم والطَّير في كتاب بيدبا ، وكتاب إيزوب ، وكتاب لافونتين ، ما شاء الله لها أن تتكلَّم ! أولم تبلغ مسامعك فصاحة ابن المقفَّع في « كليلة ودمنة » ، تلك العربيَّة التي هي أندى على الأفئدة من زلال الماء ؟

ثمَّ ما لك لا تتذكَّر أنَّ العرب قد سبقوا إلى تنطيق الأشياء ، وجعلها تفوه بالأبيات من الشِّعر ، فأنشدت المساويك والأسورة والخلاخل والمخانق والعصائب والتُّكك والأخمرة والسَّراويلات ومشادُّ الطُّرر في دواوين شعرائهم حلاوات القصائد ـ هذا مضافاً إلى ما جعلوا على ألسنة الدُّور والمنازل والأطلال والدِّمن والأودية ومساقط الغيوث ومساحب الرِّياح من كلام ما لحسنه نهاية . ومن ألطف ما جاء لهم على تكلُّم الأشياء ، وذلك في مناظرة لغويَّة حامية ، كلام لأبي عبيدة قاله للجرميِّ ، وقد نقله المبرِّد والزَّجَّاجيُّ ، ومحصَّله : انَّ الرَّجز الذي أفرد فيه للفظ « حوالينا » واحد ، هو من قول الضَّبِّ للحسل أيام كانت الأشياء تتكلَّم . . .

وإنَّ كلام الأشياء ، كما تعلم ، لا يصحُّ أن يقال معه : « هل غادر الشُّعراء من متردَّم » ، فلقد تُرك فيه إلى اليوم معانٍ لم تُطرق ، وفنون لم يُسبق إليها . ولله ما أشهى أن يسمع المرء كلاماً لم يقرع سمعه من قبل !

فأنا ، إذاً ، مورد لك هنا ، هذه المقطَّعات من أحاديث الأشياء ، ومعترف انَّ في بعضها مشابه من كلام الآدميِّين ، وأساليب من مذاهبهم في الكلام ، ولا عجب ، فانَّ الأشياء صواحبنا في الألفة والمجتمع والتَّقلُّب والمعاش ، وفي مختلف أحوالنا بالحياة ـ والكلام يعدي كما قال الجاحظ ! :

يقول كعب حذاء نسويٍّ عالٍ لأخيه الكعب الآخر ، وقد دارا كثيراً بين بيت الخيَّاطة ، ودكَّان المزيِّن ، ودكَّان بائع الزَّهر :

ـ ثمَّ يقول هؤلاء العرب في لغتهم : فلان في الرَّزانة وسداد الرَّأي عالي الكعب . . .

وتقول جمرة وسط النَّار لجمرة بلصقها :

ـ ابعدي عنِّي قليلاً ، فانَّ جوارك شديد الحرّ ، لا يُطاق !

وتقول الآلة الكاتبة ، تخاطب نفسها :

وأنا أيضاً اكتب في الدَّقيقة الواحدة ألف كلمة ، فكيف لا يقال في وصفي : الكاتبة المجيدة . . .

ويقول المسمار :

ـ يأخذ النَّاس شفقة مِمّا أشقُّه ، ولا تأخذهم شفقة من وجع رأسي تحت الدَّقّ !

ويقول ديوان شعرٍ « عصريّ » ، وهو بين يدي إحدى الحسناوات :

ـ من أين أجيء لها أنا « بزمان الوصل في الأندلس » ، وهاتيك الرَّقائق . . .

وتقول لفافة من التَّبغ لأخواتها في العلبة :

ـ وما يدريكنَّ ! فقد تظفر واحدة منكنَّ بشفتي امرأة غير ملطَّختين بالحمرة . . .

وتقول نقطة فوق حرف ، تعيِّر النُّقطة التي في علامة التعجُّب :

ـ نعم ! هذا شأن المتعجِّب ، فهو تحت أبداً . . .

وتقول عروة من عرى الثِّياب ، وقد لواها قلبها على عروة أخرى فيها زرٌّ وسام :

ـ مسكينة ، فإنَّهم سدُّوا فمها !

ويقول الصِّفر لنقطة الختام ، والصِّفر عند الحسابيِّين ، كما تعلم ، نقطة تدلُّ على انَّ منزلة الأرقام التي توضع فيها خالية من العدد :

ـ وآحسرتا عليكِ في هذه المنزلة الخالية من الكلام . . .

ويقول كتاب لآخر ، وهما في الخزانة عند بعض غُلاة الكتب :

ـ أأخبرك عن صاحبنا ؟ دودة كتب حقًّا ، فهو يعيش في الورق ، ولا يقرأ حرفاً !

ويقول الطَّبل ، كلَّما سقطت ذبابة فوق أوتار العـود ، وسُمـع في سقوطها شيء من حركة الوتر :

ـ الله ! الله ! فانهَّا تنشد قصيدة من الشِّعر « العصريّ » . . .

وتقول دواة الكاتب النَّاشىء :

ـ أنا البحر المحيط . . .

وتقول قنِّينة ماء الزَّهر :

ـ صدق المثل : الإناء بما فيه ينضح . . .

وتقول القيثارة ، وهي في نادي الموسيقى ، وقد رأت في الباب حماراً إلى وتده :

ـ وهذا من أين له أذنان ؟ . . .

وتقول السيَّارة ، وقد غارت من طائرة « الهليكوبتر » :

ـ تقرب فهي قفَّة ، وتبعد فهي فراشة ، ثمَّ تبعد أيضاً فهي ذبابة ، ثمَّ تغيب كما يغيب رأس الإبرة . . .

ويقول البوق النَّحـاسيُّ في المرقص الحاشـد ، وهـو يصيح صياح الأبواق العسكريَّة :

ـ ما هذه الصُّفوف مفلتة على رأسها !

ويقول إبريق الخمر ، وقد رأى آلة التَّقطير :

ـ يا عجباً للعرب ! كلُّ ما ينظر في لغتهم إلى الخمر انَّما هو دخيل ، أو معرَّب . فأنا إبريق ، وهذه إنبيق . وقضبان الكرم : الزَّرَجون . وعصارة الخمر : الشَيْرج والشَيْرَق . وحانوتها : الكُرْبُج . وآنيتها : الأكواب والكِيْزان والكِرْزان . ودنانها المدفونة في الأرض : الخنابج . وهي : الإسفِنْط ، والرَّساطون ، والباذَق . ثم يهتف شاعرهم بقوله :

شربنا على وجه السَّماء رويَّةً
يحدِّث ساقيها بألفاظ يعربِ !

ويقول كتاب مطبوع لكتاب قيد الطَّبع ، وهو من دواوين الشعراء :

ـ إيَّاك وانتفاخ البطن . . .

ويقول رقَّاص السَّاعة :

ـ أنا إن توقَّفت عن الحركة ، يفسد نظام الفلك . . .

وتقول بندقيَّة قد حميت حديدتها في وقائع الحرب الماضية مراراً :

ـ لله ما أحسن هذه الحرب « الباردة » . . .

ويقول مسدَّس في الخزانة ، عند بائع الأسلحة ، لسيف في جواره :

ـ أراني هنا « أقتل الوقت » ، كما يقول الفرنسويُّون في لغتهم !

فيقول له السَّيف :

ـ وأنا ، ماذا تراني أفعل غير ذلك ؟ . . .

ويقول ديوان من الشّعر لجارٍ له في الزّحمة ، على رفرف الكتب ، وهو يشير إلى بعض كتب العلم :

ـ أفٍّ لهذا ! فانّني وإيّاه نتضايق ، فلا نتّسع في خُلُقٍ ، ولا في مكان !

وتقول إحدى عرائس اللّعب « لشيخ عيد الميلاد » ، وهي في يد أحد الأطفال ، يلعب بها ويعبث :

ـ لولا الحياء لأخذت لحيتك هذه بيدي ! تزوّجني هذا الذي هو أكبر سنًّا منّي ؟ . . .

ويقول صدر العود ، من كلام له على بعض أوتاره :

ـ ما أغبى هذا الذي يبكي ويشكو هواه ، فانّه يودعني سرّه . . .

وتقول قنّينة عطر البنفسج ، وهي في الختم ، وتغمز بعينها إلى البنفسجة :

ـ سيّدتي البنفسجة طيبها ينفح من كلّ جهة ، ثمّ تدّعي التّواضع !

وتقول كرة القدم لكرة الجغرافية ، وقد استوت هذه على ظهر منضدة :

ـ ما أسعدك بمقامك العالي ! فانّك في نجوةٍ من اللّبط . . .

وتقول طائرة تجاريّة لطائرة عسكريّة ضعف أحد جناحيها عن التّحليق :

ـ لكِ عندي من النَّصيحةَ أن تغيِّري الهواء . . .

وتقول نشَّافة كاتب من متخلِّفي الكتَّاب :

ـ لي الله ، كم أنا أبلع من لغوٍ ، وحشوٍ ، وغثاثة ، وتعمُّل ، وتعمية ، ولا أُفشي له سرًّا ! ولكنَّه هو ينشر ذلك كلَّه على رؤوس الملإ . . .

وتقول ورقة الطَّابع ، وهي تحت آثار الأصابع ولطخ الحبر :

ـ الدُّنيا حظوظ وقِسَم ! هذه أخواتي ، الصُّور الكبيرة ، تُعلَّق في الدُّور والمنازل والمجالس الحافلة ، وأنا أُطرح في سلَّة المهملات ، أو في عرض الشَّارع ، أو يُلقى بي في وجه الرِّيح ! فعسى أن يرزقني الله في الأيَّام رجلاً لا همَّ في رأسه ، ثمَّ يبدو له بأخرةٍ أن يعنِّي نفسه بجمع الطوابع . . .

وتقول خيمة رأت شجرةً عيدانة عميمة :

ـ مخرَّقة ، مفتَّقة ، وتزعم انهَّا خير الخيم . . .

ويقول « فونوغراف » رأى ببغاء إلى جانبه :

ـ تعالوا انظروا ! تتكلَّم ، ولا تفهم ما تقوله !

وتقول ورقة بيضاء لورقة فيها سبٌّ ، وشتم وجيع :

ـ طوباكِ ! فانَّك ، في الأقلِّ ، عرفتِ كيف مصيرك . أمَّا أنا فما يدريني ، فقد يُكتب في صدري غداً قصيدة من المدح !

ويقول المغزل المتروك في زاوية البيت :

ـ أين هي ؟ . . .

وبعد هذا ، أقول أنا : عسى أن لا يظنّ القارىء أنّني في سوق هذه الأحاديث ، انمّا استجمُّ قلمي بشيء من اللّهو . . .

* * *

الحنين الى الاوطان

لا أذكر بالقطع مَن مِن كتّاب الانكليز (ولعلّه [وليم هزلت]) هو الذي يقول في الرّحلة : « المسافر يودّع نفسه في من يودّع . . . » .

وقد قال الشاعر القديم يتشوّق في غربته « وادي القُرى » :

ألا ، ليت شعـري ، هل أبيتـنّ ليلةً
« بوادي القُرى » ! إنّي إذاً لسعيدُ . . .

وإنّ الّذين لا يحسُّون ما في هذا الكلام من اللّوعة ، هم الّذين لم يذوقوا ألـم النُّـزوح عن الأوطـان ، ولا عرفـوا ما الوقـوف على ثنيَّة الوداع !!!

كنتُ ، في بعض المرار ، على شاطىء « البحيرة الميِّتة » ، وقد بعدت منّي طرق بلاد الجبل اللبنانيّ ، ونواحيها ، فتذكّرت بالبحيرة ، وهـي التي يرمي فيها وادي « اليرموك » و « الأردنّ » ، عين ماء عندنا ، في بعض الوهاد ، في الجبل ، يسيل ماؤ ها الحبيب قطرةً قطرةً ، فابتلّت ، والله ، عيناي !

تذكار عين « الجبل » حرَّك دمع عيني ، ولـم يحتشـم من البحـيرة المتلاطمة أمواجها . . .

* * *

جمان بمعنىً

الأسفـار (جمـع السِّفْـر ، بكسر فسـكون ، أي : الكتـاب) ، والأسفار (جمع السَّفر ، بفتح الأول والثَّاني ، أي : قطع المسافة) ، لله كم أنا أُحبُ هذين الجمعين ، فانهَّما عندي بمعنىً . . .

* * *

الرحلة الشاقة

أشقُّ الرِّحلات : رحلة نفسك إلى نفس لا تعرفها !

* * *

كتب الرحلات وكتابتها

ألذّ الكتب : كتب الرِّحـلات ، وألـذّ الكتابـة : الكتابـة فيهـا . لكن ، وآأسفا ! إنَّ كتاب الرِّحلة يقتضي تعب الأقدام قبل التأليف !

* * *

الوطن الواحد

يطرق خاطر المسافر في الأحيان من الشؤون والمسائل البعيدة ما لا يمرُّ بباله وهو في أهله وسربه !

ولقد تذكَّرت يوم أمس ، وأنا في تلعة على « الخليج » ، ذات أشجار وأفنان وارفة الظِّلّ ، كأنَّك منها على ضاحية « الباروك » ، في بلاد الجبل من لبنان ، قول « جيد » : « أنا لي وطنان : مقاطعة نورمدية ، ومقاطعة لنغيدوك - يريد بالأولى بلاد أبيه ، وبالثَّانية بلاد أمِّه من فرنسة - ولست أعلم من منهما هو الذي أخرجني في الدُّنيا كما تراني . . . » . ثمَّ تذكَّرت جواب « شارل موراس » على ذلك ، وهو قوله « لجيد » : « تريد أن تعرف ؟ سلْ نفسك في أيِّ وطنيك هذين تريد أن تموت ! » .

وقد قام على هذا الكلام بين الكاتبين الفرنسويَّين الكبيرين في مستهلّ أيام عصرنا مناظرات طويلة عريضة ، دخل فيها جماعة من مشاهير كتَّاب فرنسة ، وقيل لها : « مناظرات شجرة الحَوَر » ، وذلك لقول « جيد » في بعض ردوده : « هيهات أن تصبح الشَّجرة فينانة ، متهدِّلة من الرِّيِّ واللِّين ، إذا هي لم تُنقل من منابتها ، وتنزل المنازل البعيدة ! » .

تذكَّرت ذلك يوم أمس ، ومرَّ بخاطري تلك الممتعات التي جاء بها « موراس » في المناظرة ، وأفحم صاحبه بحججها الرّاسخة ، وكنت في شوقٍ مقيم مقعد إلى أرض العالية من لبنان ، فلم أتمالك نفسي من أن أقول : أنا لي وطن واحد ! أنا أعرف أين أريد أن أموت . . .

* * *

نصيحة

ألا أيُّهذا المسافر : لا تثقل على نفسك بحمل سجلّ نسبك ذي الرِّوايات والعنعنات وتواقيع الشُّهود الكثيرين ، فانَّ الصَّكّ الذي به تستجيز الدُّخول عند حدود كلّ أرضٍ غريبة ، والذي به تطالع الشرُّطيّ ، وموظَّف المكس ، وموظَّف الفندق ، ومن في المطارات والمراسي ومحاطّ السّكك الحديد من جلاوزة وأولي أمر ، انمَّا هو هذا الدَّفتر الصَّغير الذي يقال له : « جواز السَّفر » . . .

* * *

الفراديس المفقودة

كلّ أرض يتركها أهل الرِّحلة ، وهم في الطَّريق إلى أرض غيرها ، يكون اسمها عندهم : « الفردوس المفقود » .

وهذا يدخل في باب حبِّ ما كان ، والخوف ممَّا سوف يكون !

* * *

قولان في الرحلة

يعجبني جدّاً هذا الكلام في مغادرة الأوطان ، ولوعة الرَّحيل . وهو لبعض كتَّاب الانكليز ، قال : « خرجتُ من بلدي ، فكأنّي خرجت من نفسي ! » .

ومن ألطف ما جاء في أدب الفرنسويّين ، ممّا يتعلّق بحبّ الرِّحلة

والتنقُّل ، قول بعض كتَّابهم : « وصيَّةٌ منّي : يوم أموت اجعلوا من جلدي غطاءً لسفطٍ يُعبّأ فيه أشياءُ مسافر ! » .

أقول : لله ما أجدر الكلام الأوَّل برزانة الانكليز ، وأجدر الكلام الآخر بحرارة الطَّبع التي عند الفرنسويّين . . .

* * *

الاجوزة الجلية

في سحنة كلّ مسافر علامة من وطنه ، ومن نفسه . فلعمرك ، ما معنى هذا التَّفتيش الطَّويل ، على أبواب البلدان ، لأجوزة السَّفر ؟!

* * *

هنيئاً له . . .

أسعد المسافرين من لا يرى السَّفر مراقبةً وكشفاً واختباراً وتأمُّلاً مليًّا ، بل يراه للنَّظر القريب الخاطف ، ليس غير!

* * *

نسمة ريح شمالية

في هذه الفلاة البعيدة ، والوقت صيف ، والدُّنيا على الغروب ، وعين الشَّمس الشَّاحبة في حاشية الأفق ، بعد النهار البائد ، تنظر في

سكون ولوعة إلى تفاريق من كلإٍ صحرائيّ أخضر ، أو كأنه أخضر . . .
تتحرّك لمقدم الليلة الصيفيّة الناعمة ، أقبلت نسمة ريحٍ شماليّة - يا لها
نسمة !!!

ريح شماليّة في هذه الغربة ؟ في هذا البعاد عن مهابّ الشمال ؟
قرّبي يا ريح أرضنا . قرّبي يا رائحة بلدنا . أنا المسافر المتّصل الحنين ،
المتّصل الالتفات إلى ناحية هبوبك ، فكأنّي إبرة الشمال ، دائم الاتّجاه
إلى ما هنالك . . .

جاوزي اليّ ، بين لوني الرّمال والشّفق ، هذا الجدار الورديّ
الرّقيق ، وتزوّدي رسائل الخواطر والذكر والآمال وعواطف الشوق
والرّحمة ، والحبّ لبيت عند ساقية ، وقبر جانب ربوة ، وجيران خلف
عطفة الطّريق في بلاد الجبل . . . وعفاءٌ بعد ذلك على التطلّع ، وحبٌّ
الكشف ، والتّجوال في أوطان الناس !

ويا عمركِ الله ! أهكذا كلُّ مسافر يحنُّ حنينه ؟ . . .

* * *

غزالة في الطريق

عرضت لنا خلف منقطع الرّمل ، والشّمس عند ارتفاعها ،
والصّحراء زاهية ندية ككفّ العروس . . .

يا حسن تينك العينين ! يا حسن ما رفع القرنان من عنق كأنه سبيكة
الفضّة ! والظّهر ولين مسّه ، والفم وملاحة زمّه ، والقدمان واليدان
ودقّة العظم ولطف الحمل ، والأذنان وبريهما بري قلم القصب ،

والشّفتان ولونهما الأحمر ، حمرة العنّاب . . . هذا كلّه ، ومن يصفه ؟ لله ما أعجز قلم الكاتب في كلّ كلام يكون له على الجمال !!!

وما راعنا في طلوعك علينا ، يا ظبية الرّمل ، إلا لفتات كأنّها بغتات سطو . . . وعهدنا بالغزلان إن رابها ريب لم تقرّ . فما الذي بدّل اللّين شدّةً ، والخوف شجاعةً وجرأةً ، في هذه الرّملة ؟!

أغزال ، وقد نفر ! أم سرب ، وقد توارى عن العين ! أم انّ أفواه الدّروب ضيّعت منابت العشب ، ومسايل الماء ؟!

سكّني من فورتك ، يا ذات الحسن النّسويّ ، وارجعي الى غرائزك النّاعمة ، وملكاتك الدّمثة ، فانّما نحن بين يديك أنضاء سفر ، أسعد حظوظهم في هذه القفار ، وأغلى أمانيّهم أن يصادفوا بين كثبان الرّمل غزالةً تنقل القدم نقل أختها المرأة الحسناء لقدمها بين الدّور والمنازل !

ويا أخت الغزال : لك أسوة بنا ! فيا ربّ مسافر منّا قد نفر غزاله ، ونأى عنه سربه ، وانحرفت به الطُرُق عن بلاد الرّوض والظّلّ والماء . . .

* * *

جماعة من الناس رأيتهم في السفر

« م . » ـ معلّم صبيان في الكتاتيب ، إلا انّ له في العربيّة آراءاً مستطرفة ، أذكر منها الآن قوله لي في بعض أحاديثه : « معجم اللّغة على رأسي وعيني ! أمّا هذا ، كتاب النّحو ، وهذا ، كتاب التّصريف ، فلعمرك ما معنى تشغيلنا بهما ؟ . . . » .

أقول : لو يسمع الجاحظ . . . وهو الذي وضع على معلِّمي الكتاتيب فكاهات وملحاً تضحك من لم ينبسط له وجه في عمره !

« ك . » - شيخ ، بمعنى كبر القدر في عيون بني قومه علماً وفضيلةً . من ألطف ما سمعت منه قوله في أثناء الكلام على معاجم العربيَّة ، من جهة الإسهاب والتَّطويل ، وصعوبة النَّبش ، وكون نسخ الأمَّهات أصبحت عزيزة نادرة : « ألا إنَّ القرآن هو قاموس الفقراء . . . » . يريد بالقاموس هنا : معجم اللُّغة ، لا كتاب الفيروز آباديّ بعينه .

« م . » - سيِّدة ذات صبا وحسن ورونق . ولها زوج في السَّبعين من سنيِّه ، إلاَّ انَّه ذو وفر ويسار . ولقد لحظت انَّ السيدة « م . » اتخذت السَّفر سبباً تروِّح به قلبها في هموم الزَّواج ، وملهاةً عن ذلك الشَّيخ الفاني . . .

« ف . » - سائق سيَّارة من سيَّارات العموم . قال لي بين الضَّحك والجدّ الكثير : « نحن سوّاق السيَّارات نؤمر فنسير . فلعمرك ! متى يكون لنا أن نسير حيث لا نؤمر ؟ ثمَّ انَّني لا أدري ، أنحمد الله ، يوم يحصل ذلك ، أم تقوم قيامتنا ، وننادي بالخسران والويل ، لانقطاعنا عن العمل ! . . . » .

«س.»- قال لي السيِّد «س.» «هذا: «أنا كاتب لا يذيع ما يكتبه. فانمَّا أنا أكتب لأنيِّ الى اليوم لم أجدْ ما يريحني من مواجيد نفسي، وطرح ثقلها عنيّ، إلاَّ الكتابة».

وقال لي أيضاً السيِّد « س . » :

« سمعت من يقول لصاحب له أصمّ قد حفّ سمعه ، إلاّ انّه من عشّاق الغناء ، ومجالس السّماع : [هوّن عليك ، فانّ بيتهوفن كان شديد الصّمم ، لا يكاد يسمع صوت الرّعد] . . . » .

وقال لي أيضاً :

« يتمنى المرء في أيامنا ، وهو قرير العين في سربه ، ساكن النَّفس ، أن لا تدخل عليه أشيآء هذا العصر العجيب ، وتفسد سعادته . ولكن كيف يكون له أن يدفعها عنه ، وهي لا تدخل عليه من الباب ، بل من زجاجة الرّاديو ، وزجاجة التلفيزيون ، ومن شريط المسجّلة ، واسطوانة الغرامофون ، وصفحات الجريدة اليوميّة ؟! » .

« أ . » ـ خادم في بعض قصور الحكم . يكثّر الكلام في تخليط عجيب ، إلاّ أنّ له في الفترات إجادات من إجادات أهل الرّأي والرّزانة . قال لي مرّة ، وقد أشار إلى أحد الرّجال في القصر ، من الّذين لهم حول وطول : « هذا واحد لا يقيم الحرف ، ولا يحسن النّظر في الأمور ، ويكاد يجهل ، لولا رحمة الله ، الطّريق إلى بيته ! إلاّ انّه أثرى ، واقتنى العقارات وحوائط النّخل ومرابط الدّوابّ وأرباض الغنم ، وتأثّل آلاف الأذرع المربّعة من الأرضين . وكأنّي أراك ، بعد هذا ، لا تؤمن بكون الحظوظ تصيب جماعة من النّاس ، وتخطىء جماعة آخرين . . . » .

« د . » ـ بدويّ رأيته معتطفاً بشملته ، فوق راحلة حسّانة قويّة ، وقد قال لي ، وهو يربّت عنقها ، ما هذا معناه :

ناقتي هذه أكرم حفاظاً ، وأطيب عهداً ، من هؤلاء الآدميّين .

فانَّها تحنُّ إلى مراحها ومأواها ، وإلى مناخها حول الوِرد ، وإن هي كانت راتعةً في أوسع المراعي !

« ر . » ـ لا يكاد يعرف « ر . » كتابةً ولا قراءَة . إلاَّ انَّه مولع بالجرائد والمجلاَّت . يفتح عليها ، ويقلّبها تقليب اهتمام واحتفاء ! أمَّا الرَّاديو والتلفيزيون ، وهما المتسهِّلان له في أُمِّيَّته ، القريبان من يده ، فانَّه شديد الإعراض عنهما . . .

« ح . » ـ شابٌ أبوه من فلاَّحي البدو . وقد درس هو في بعض معاهد لندن ، واطَّلع على آداب القوم . كان يحدِّثني ، وهو بالشَّملة والعباءَة والخفُّ الأحمر المفلطح ، عن شكسبير ، وعمّا في شعره من عمق للحياة ، وسعة للكون !

ولقد قال لي « ح . » ذات مرَّة :

« لكم الله ، أهل الحضر ، في التباس الأمور عندكم ! فانَّ واحدكم إذا هو كان ، مثلاً ، من الرَّسامين ، فانَّما لا يعجبه الضَّرب بالعود ، بل يعجبه النَّظر إلى حبك أوتاره ، وحسن الصَّنعة في نقشه ورقشه ! » .

فقلت في نفسي : ويل أهل الحضر من أمثال هذا البدويّ . . .

ثمَّ قلت : لله ما أجدره أن يردِّد قول القطاميِّ في بعض قصاره :

ومن تكنِ الحضارة أعجبته،
فأيَّ رجال باديةٍ ترانا !...

* * *

قضية الأمثال

« الطُرُق كلُّها يؤدّي إلى رومة » مَثَل أوروبيّ معروف ، يقابله من الأقوال السّائرة عند العرب قولهم : « كلُّ شِعب يرمي في وادي القُرى » . فانظرْ كم مسافرٍ يضلُّ الطّريق لو انّ كتب السّياحة والجغرافية تقوم على ما في الأمثال !

* * *

اقبح مكان في الدنيا . . .

أنا لا استطيع أن أصدّق مسافراً يزعم انّه رأى في بعض أسفاره مكاناً اقبح منظراً ، وأشدّ وحشةً ، من وجه رجل غادر وطنه ، ثمّ انّه لا يحنُّ إليه . . .

ألا ! بعداً لرجل يكون من هذا النّمط الخشن ، الجافي الطّبع ، في الرّجال . . .

* * *

صلاة الصحراء

(بقلم مسافر)

يا أُنس المسافر ، ومُمهّد السّبيل ، ومزيل الضُّجرة ، ويا أيها الدَّليل حين يضلُّ كلُّ دليل ، والزَّاد حين يفرغ كلُّ زاد ، ويا حادي الرَّكب بالنَّغم الذي لا يُسمع ، وموطِّىء الصَّحارى باليد التي لا تُرى :

الصَّحراء كتاب كبير من كتبك القديمة ، ومرآة واسعة لشمسك ، وبحر من الأنوار ساكن الصَّفحة ، هادىء الأطراف ، في ليلة بدرك ! أنـا قطـرة في هذا البحـر ! أنـا لمحـة فى هذه المرآة ! أنـا ، يا « أَلِف » الـكون ، ولا « ياء » له ، أصغـر الحـروف في كتابـك الصَّحرائـيّ الكبير . . .

ساعة شئتَ في المساء ، يا ذا المشيئة ، دُحرجت الشَّمس ناحية المغرب ذليلةً ، كاسفة الوجه ، والرِّياح أقلعت ، والرِّمال انقطعت عن الموجان ، وابتلـع السرَّاب ماءه . كلُّ هائـج سكن ، وكلُّ مهتـزٍّ بـين السَّماوات والأرض قرَّ قراره بين يديك . معنىً من معانى السُّجود غمر الدُّنيا حينئذٍ فى عيني ، فتنبَّه في صدري شعور بالخضوع لجبروتـك ، وبوضع جبهتي في الأرض خشوعاً وتعبُّداً !

ثمَّ انيِّ سمعتُ بعد ذلك النَّهار البائد أنامل على العود ، وحماماً على عود ، ورأيتُ غصناً في قامة ، وأصباغ السماء في مقلة ، فسجدتُ لك آخراً من حبٍّ وعاطفة جوانح ، بعد أن سجدت أولاً من خوفٍ وخشية .

فيا ربِّ : ما أعظم ما أرى من أسرارك في هذا الوجود ! فانَّما أنا أُحبُّك ، وأنا أخشاك ، وأخاف منك في آن معاً !

ويا ربِّ : أسألك بالأنامل على العيدان ، والحمائم على الأعواد ، وبالأغصان في القـدود ، وبألـوان السماء في المقـل ، أن تلطف لكلِّ مسافر . فانَّما هو النَّاظر اليك في زحمة الأبصار من عبادك نظرة المفارق الملتاع . . .

* * *

حتى في هذه لا نلتقي !

من العجب أن يكون عظماء أهل الرِّحلة عند الأجانب من سلاطين الفكر والشِّعر والأدب ، ومنهم مونتين ، وفولتير ، وروسُّو ، وبرنار دي سان بيار ، وشاتوبريَّان ، وجورج سنْد ، وبيرون ، ولامرتين ، ورينان ، وكلوديل ، وباريس ، وسان جون برس ، في حين انَّ عظماء الرَّحالة عندنا هم من طبقة ابن بطوطة ، وابن جبير . . .

* * *

السفر في الكتب

خير من السَّفر إلى أرض عرفتَها ، وطوَّفتَ في أرجائها ، مطالعة كتاب لم تنظرْ فيه بعد . فامَّا تلك الأرض فانك قد تصفَّحتها ، ولقيتَ فيها ما لقيتَ من متعة ومعرفة !

* * *

دعوة المسافر

من الدَّعوات التي يُستجاب لها (على ما في رواية ابن ماجه) : دعوة المسافر . فكأنَّ « الحديث » قد نظر هنا إلى ما كان يلقاه المسافر في الأيام من مشقَّة السَّفر ، ووعوثة الطَّريق ، ومن الحنين الى الدِّيار البعيدة .

* * *

لعب الأطفال . . .

لعلَّ ألطف ما تقع عليه عينك ، وأنت في علياء الطّائرة ، هذه الجوادّ الطَّويلة العريضة التي في المدن ، وفي الضَّواحي والأطراف . فانَّها تبدو لك حينئذٍ وكأنَّها أخوات الخيول والبيوت والعَجَل والطَّواحين والسِّكك الحديد من لعب الأطفال !

* * *

السفر من الدنيا

أتعس الأسفار ، وأطولها ، وأغصُّها بالشَّجا ، لانقطاع الأخبار والرسائل ، ولليأس من العودة : السَّفر من الدُّنيا . . .

* * *

من أسرار السفر

من أسرار السَّفر انَّك ، حين تكون على ثنيَّة الوداع ، لا يطيب لك أن تتمثَّل في خاطرك زمان العودة .

* * *

التعالي المكروه

لا أعرف تعالياً تنقبض له النَّفس ، الاَّ تصعيد الطّائرة في أعنان الجوّ ، عند اختلاف الأهوية !

* * *

« وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ » كلام في رأيي من أعلى الوصف ، بخلاف ما يقوله جماعة من أهل النَّقد من قدماء وعصريِّين . وقد جاد به الشِّعر في زمن السَّفر فوق الرَّواحل . أمَّا الشِّعر في زمن السيَّارة والطيَّارة ، فانَّه إلى اليوم لم يأتِ بما يعادل هذا الكلام في الإجادة . ولولا قول مطران في وصف الأرض من الطَّائرة :

وترى عوالم ليس فيها باقياً
إلاَّ اختلاط أشعَّةٍ ودخانِ . . .

لجاز لقائل أن يقول انَّ زمن الميكانيك قد قصَّر في الشِّعر عن زمن النِّياق !

* * *

السفر والجغرافية السياسية

في أيَّامنا بالطَّلب كان أساتذتنا في العلم الجغرافيِّ ينظرون إلى رقاع الأرض من جهة الجوّ والأهوية والجبال والصَّحارى والأنهار والأبحرة والغاب والحيوان والثَّمرات والخضرة ومعادن الحديد والفضَّة ، وما إلى ذلك ، أكثر ممَّا ينظرون إلى من تحمل فوق ظهرها من أناسّي . فيا ليت شعري ، وقد خلت من أنوارهم ، رحمهم الله ، منابر التعليم ، لو هم عاشوا الى زمان السَّفر هذا ، ورأوا تواصل النَّاس فيه ، ودخول بعضهم في بعض ألفةً وتعارفاً وتبادل مصالح وتجارات وأسباب رحم ، وتخالطهم في الحضارات والعادات والتقاليد والأذواق ، وفي ألوان الجلد ، وفي صنوف المأكل والملبس ، أقول : هل كان لأساتذتنا ، بعد ذلك كلّه ،

أن يثبتوا على طريقتهم في تقديم البحث في رقاع الأرض على البحث في الدّائمين فيها !

ألا إنَّ ما يقال له في العلم الجغرافيّ : « الجغرافية السياسيَّة » قد طفَّ على ما يقال له فيه : « الجغرافية الطَّبيعيَّة » ، وذلك بسبب هذا الولع العصريّ بالسَّفر والنُّقلة .

* * *

« السفر الى حقيقة الحقائق »

رقص « المريد » عند الصُّوفيَّة يقال له : « السَّفر إلى حقيقة الحقائق » . وهو على نمطٍ من الارتفاع والانخفاض والتَّفكُّك والتَّخلُّع والدَّوران فيه مشقَّة وعناء ، وتعب أقدام كثير .

لا عجب ! فليس ما هنا سفراً من الأسفار التي يعرفها النَّاس ، وإنَّما هو سفر إلى حقيقة الحقائق . . .

* * *

صور من أيام السفر

ممَّا يطيب للمسافر ، بعد إيابه بمدَّة من الزَّمن ، تقليب الصُّور التي يكون قد اتَّخذها « بالفوتوغراف » لما حلا لعينه في اثناء السَّفر من مشاهد معجبة في الطَّبيعة ، او في الآثار والدُّور والمعاهد ، ومن أشخاص صادفهم في بعض المراحل ، ولذَّت له ألفتهم ، إلى آخر ما يقع له من ذلك في تسياره في البلدان الغريبة .

فهو بين تلك المشاهد المنطبعة في الـورق كأنّمـا يعيش أيامهـا كرّة ثانية ، ويردُّ سعادتها ولذائذها المنقرضة إلى نفسه . ويا ربَّ صورة في يده لوقفةٍ كانت له على ريف أحد البحار ، جاءَت تحرّك بين جوانحـه تذكاراً يدفق كالموج ! بل ربَّ صورة لإحدى الحدائق الـرَّيَّا ، النـديَّة اللَّمعان ، تكاد تبلُّ رؤ وس أصابعه ! وربَّ محيًّا وسيم كان قد رآه عابراً في طريق ، أو طالعاً في مجلس ، وبادر هو إلى تصـويره ، يكاد يتنفَّس الآن في وجهه بأشهى ممّا في شفاه الورد . . .

على انَّ من تلك الصُّور ما يكون منطبعاً في الخاطر ، لا في الورق ، ثابتاً فيه ثبوت « الفوتوغراف » ، ومنها ما لا يكون في هذا الوارد المحبَّب الذي مرَّ بك .

وممّا سلم لي من الصُّور التي علقت بخاطري في أيام السَّفر ، وهي ليست لرونق بنيان ، أو بداعة أثر ، أو بهاء منظر خلائيّ ، ولا لوجهٍ وسيم قسيم ، حبيب الانطباع في لوح الصَّدر ، هذا الذي يرى القارىء هنا جانباً منه :

1

في دكّان الكتب ـ بينما أنا في بعض الشَّوارع ، في مدينـة على باب الصَّحراء ، إذ وقعت عيني على دكّان كتب . دكّان يُباع فيه الخواطر ، ومواجيد النُّفوس ، وحقائق العلوم ؟ أنا اذاً في فلتة من الحظّ ، وفلتات الحظوظ تأتي على غير ميعاد !

وإنَّ الذي بي من أوَّل عهـدي بالكتـب هو إيثـاري للجـديدة من

نسخها ، أي للّتي لم تثخن فيها الأصابع ، ولا نقط عليها رشاش من ريق ألف قارىء . . . ولقد كبر هذا الهوى في نفسي حتى أصبحت أشمّ لرائحة الحبر في الكتاب الجديد أطيب ممّا يُشمُّ من قلق الرّوضة المزهرة تحت النسيم !

ثمّ انتقل هذا الهوى « الكتبيّ » من نفسي إلى عيني . فاذا أنا أُحبّ رفرف الكتب ، وقد صُفَّت فيه ، تلبس الأحمر الباحر ، أو الأخضر الحانىء ، أو الأبيض اللّياح ، ملألئةً ماء الذّهب بمثل الحلي من مخانق وقراطق . . .

هذا ذوق صاحبك ، كاتب هذه السُّطور ، في ما يتعلّق بالكتب ، فتأمّل ، يا رعاك الله ، كيف كان من حاله في ذلك الدكّان البدويّ ، وكيف غثت نفسه ، واضطربت ، حتى كادت تتقيّأ ، لرائحة الرُّطوبة والخزن والنَّفَس المتراكم ، وقد واجهته من الباب . . .

أمّا بائع الكتب ، وهو الجالس في الزّاوية فوق دكّة من تراب ، والذي لا عهد له في الدكّان بشعاع شمس يلتمع في نافذة ، ولا بهبّة هواء تروح وتجيء ، فانّ عليه قميصاً فضفاضاً إلى الأرض ، كان أبيض ثمّ عاد أصفر - أستغفر الصُّفرة ! - وانّما هي بقع وارسة ، منطبعة من فرط اللّمس باليد ، أو بالقدم ، أو بالأنف في الأحايين . . .

وهو يجهل ما في الكتب التي يبيعها ، ويجهل ما تلتفت إليه من بعيد أو قريب ، ولكنه لا يجهل أثمانها ! بائع بضاعة كسائر الباعة في دكاكين البدّالين والبقّالين . يبيعك الكتاب ، فكأنّه يناولك حزمةً من البصل ، أو قرصاً من الجبن ، أو سقاء من اللّبن !

ويا لهف نفسي على الكتب ، على نتاج العقول ، ومحصول القرائح ، من كلٍ محبَّرٍ وموشّى ! فهي عنده كوم في الأرض ، أو ملقيٌ بعضها فوق بعض في رفارف وأوتاد من خشبات قديمة ، فانية ، مقوَّسة .

ولقد لواني قلبي ، في « جحيم الكتب » هذه ، على نسخة من ديوان أبي نواس ، يُقشر الغبار عنها من غلظه بالأظافر ! فقلت في نفسي ، أخاطب الشاعر الّذي له في المنادمة والنَّدمان ما ليس لشاعر :

ـ أمن قطربُل ، وعانات ، وكلواذا ، يا ابن هانىء ، إلى هذا الدكّان ؟ . . .

2

الشرَّط في الزَّهر ـ كان الوقت صيفاً ، والنَّهار على أطراف العشيَّة ، فلمّا دخلت الفندق هرعت إليها العيون تزحمها في الباب . . .

الله ، الله ، لغصن من الصَّفصاف الرَّخص ! الله ، الله ، لعنقود من العنب الرَّيَّان ، ولكمٍّ من الورد في التفتُّح ، ولنسمةٍ تهبُّ هبوبها النَّاعم بشهوات المراشف . . .

قلت لمن كان إلى جنبي في تلك السَّاعة :

ـ يا هذا : سبحان الخالق العظيم !

قال :

ـ ولكنَّها فتاة مسكينة !

قلت :

ـ تقول مسكينة ؟ ويحك ! أمات أبوها ، أم مات أخوها ، أم مات حبيب لها ؟ أم قد نزلت بها نازلة مال ، أو نازلة عار ، أو نازلة ظلم وجور ؟

قال :

ـ لا ، ليس من ذلك شيء . وانَّما هي كبعض الأنواع من الزَّهر الذي لا ينفح بطيب . تحبُّه من بعد ، وتسأمه من قرب . . . فانَّها حسناء جاهلة ، لا تعرف قراءة ، ولا كتابة !

صدق صاحبي ، فانَّ الشرَّط في الزَّهر : الأرج !

ولله ما ألطف هذا الذي أورده ابن دريد في « المجتنى » ، وهو يتَّصل بالمعنى ، قال :

« رأى الكلبيُّ غلاماً جميلاً لا يحسن الكتاب ، فقال : أيُّ بيتٍ لو كان له ساكن ! » .

3

في مسرح الحياة ـ يعيش المرء بينه وبين نفسه في رفع الكلفة ، فهو يظهر لها ما يكون عليه من الغرائز والملكات والعادات والهوى ، ولا يجمجم في شيء . أمَّا في ما بينه وبين النَّاس ، فانَّه يعيش على غير خُلقه وطبيعته ، ويظهر لهم في الألفة والمجتمع والتَّقلُّب ما يتمنَّى أن يكون في الرِّجال ، لا ما هو فيهم . فكأنَّ الحياة بذلك ، منذ عهدها بأوَّل آدم

وأوّل حوّاء إلى اليوم ، هي « المسرح » الأعظـم ، وكأنَّ النَّـاس هم « الممثّلون » فيه !

وإنَّ أقدار الرِّجال تتفاوت بتفاوت البراعة في « التَّمثيل » ، والمقدرة على اختيار « الدّور » . فمنهم من يجيد في المآسي ، ومنهم من يجيد في المضاحـك . ومنهـم من لا يجيد في هذه ، ولا في تلك . ومنهـم من يتطاول ، فلا يستطيع أن يكون من يشتهي أن يكونه ، فهو يعاني وراء نفسه من بذل المجهود ، واستنفاد الوسائـل ، بـين التَّطـاول وفقـدان الاستطاعة ، مشقّةً لا تُوصف !

ويا ربَّ « نابوليون بونابرت » بالباب في دارك ، فهو بائع اللَّبن ، أبي الوقائع ، والجيوش المجرَّرة . . .

وربَّ « ابن ساعدة » قد جاءك بالمقصّ والمشط وموسى الحلاقة ، فهو حلاَّقك خطيب العـرب وحكيمهـا ، والـذي يُبعـث يوم القيامـة أُمَّـةً وحده . . .

وربَّ « أبي علاء » في سوق البقول والفواكه ينظر اليك بتحديق ـ فانَّ عينيه سالمتان ، والحمد لله ! ـ هو المنادي على الخضراوات ، « رهين المحبسين » ، وصاحب « الدِّيوانين » ، و « الرِّسالتين » . . .

ولعمرك ، كم من فريد دهر ، وفذّ عبقريَّة ، في زاوية المقهى ، وفي حانوت الخمر ، وفي دكّان « المبرِّدات » ، ودكاكين الخيَّاطين والبقَّالـين وباعة الحلوى والخُضر والخبز واللَّحم . وهكذا جرًّا إلى آخر هذه الطبقة من « ممثّلين » خاسرين ، تسقـط عينـك في مسرح الحياة ، في كلِّ قوم وبلد ، على جماعات منهم ، لا تقع تحت حصر !

ولقد ابتُليت في السَّفر بواحد من هؤلاء الممثِّلين ، إلاَّ انَّ هذا ممثِّل بأُصول . . . فهو أبو طيِّب متنبِّىء ، ينظم الشِّعر ، وينتف من هنا وهناك بلا فهم . مقطِّع أبيات ، ووزَّان تفاعيل . ليس في سليقته الشِّعر ، ولا الذَّوق ، ولا الحسُّ الناعم .

كان يأتيني ، وقصيدته في يده ، فأُجهد في الاصغاء اليه ، والصبر على مجلسه ، جهداً يعرِّقني ! فلمّا طالت الحال عليَّ ، صار إخواني إذا لاح وجهه من الباب ، يقولون له بصوت واحد :

- رحماك ، يا هذا ، وحنان قلبك ! فانَّ صاحبك مريض اليوم ، شديد المرض . وقد منعه الطَّبيب من الكلام ! !

كنت أنا ألوذ بالهرب من المتنبِّىء ، كنت أنا أُعرض عن شعر المتنبِّىء . . ألا فليضحك القارىء ما يشاء !

4

الخادم الأَسود - « جوهر » خادم أسود في أحد الفنادق . نشأ في الزنجيَّة ، ثم صار الى العرب ، فهو ينزع في أَلفاظه إلى بني قومه نزعاً قبيحا ، يطيب في جنبه كلام كلِّ من ارتضخ لكنةً أعجميَّة !

ترى الجريدة من جرائد الأخبار لا تفارق يديه ، إلاَّ اذا نُودي به في الفترات إلى الخدمة . فيهرع إلى المنادي والجريدة في يده ، أو يشكُّها في صدره بين الجلد والثَّوب . قارىء جرائد من الطَّبقات الأُولى فيهم ! الاَّ انَّه يأخذ من القراءة ما يأخذ من الماء جناح الطائر المسفّ فوق صفحة الغدير ! وبحسبه من الفصول السَّاحبة الذَّيل قراءَة العناوين ، وما

تحتها إلى بضعة أسطر ، ثم معاودة القراءة رويداً وهفواً ، ثمّ معاودتها وثباً وقفزاً ، إلى أن تظفر عيناه بخبر يتّصل بالجنس الأسود في افريقية أو أميركة ، أو في أيّ مكان آخر من هذه الدّنيا العريضة ! حينئذٍ يصبح جوهر فوق ألفاظ الخبر كصاحب المجهر فوق جمعة من الجراثيم . . . فائماً هو في الفندق ، وفي حديقة الفندق ، وفي ساحته ، بين الحمّالين وسُوّاق السيّارات وعربات الخيل ، لسان بني جلدته ، والمدافع دونهم ، والمنافح عنهم ، والمحدّث بأمانيهم ، وعظمات حاضرهم ، وظلامات ماضيهم . . فكيف تريد أنت أن يكون في جريدة كلام على الجنس الأسود ، ولو لحظ عين ، ولا يلتقفه ، ولا يتلقّطه ، ولا يتولّى شرحه ، أونشره ، أو في الأقلّ الحديث عنه ؟!

وحينئذٍ ، هات ، يا ريق ، بالرّشاش لجوهر ! هاتي له ، يا ألفاظ العربيّة ، بكلّ غثّ تفهٍ ، يغمغم في حروفه ، وكأنّه يلوك المطّاط اللّزج ! ذلك وقد لمعت عيناه لمعاناً أحمر ، فكأنّ ناراً تُقدح في سواد وجهه . . .

وخذ من جوهر ، في تلك الساعة ، ما يهولك من أخبار « سوداء » ، يقوم لها شعر رأسك فزعاً !

فالعهد ، يا بيض ، بتصرُّفكم في رقاب السُّود ، وبإذلالهم ، واستخدامهم في حقائر شؤونكم ومصالحكم ، قد انقضت أيامه . نعم قد انكسرت شوكة البيضان ، وغلظت شوكة السُّودان ! نعم ! فانّ الجنس الأسود هذه دوله في قارّة افريقية لا يكاد يعي أحد أسماءَها ، أو يحصي عدد سكّانها كثرةً !

والجنس الأسود سوف يبتلع أبيض ، وأصفر ، وحتّى ذلك الأحمر القابع في رأس كرة الأرض !

والجنس الأسود سوف يمحو كلَّ ما لكم من حضارات بيضاء في العلوم والصّناعات والفنون ، وسائر المشخّصات لمجتمعكم القائم ! انظرْ ، ونحن لا نزال في أوّل الحزّة : هذا هو « الجازبنْد » ، من موسيقانا ، أفلا تسمع ؟! وهذا هو « الجيرْك » ، من رقصنا ، أفلا ترى ؟!

ويظلُّ جوهر في مضيِّه هكذا هائجاً ، فائراً ، يجاذب وليس هناك حبل ، ويتناول وليس هناك شيء معلّق . . . حتّى يهوّن الله عليك بغمزة زرٍّ كهربائيّ ، يدعو بها أحد نزلاء الفندق خطيب الثّورة « السّوداء » هذا ، في طلب ، مثلاً ، علبة من ثقاب الكبريت ، فيسرع اليه جوهر بعلبة الثّقاب ، وقد قرّت فورته ، تاركاً وراء ظهره دول أوروبّة وأميركة وآسية ساكنةً هادئةً ، تعيش في أمان الله . . .

وتقول أنت : الحمد لله !

* * *

الفندق الابيض

(قصّة مسافرَين)

حدّثني أحد المسافرين ، وأنا في فلاة ، من بلاد « الخليج » ، قال :

هذا الفندق الأبيض (وأشار إلى بنيان بعيد ، أبيض الجدران والنّوافذ) تنظر إليه عيون المسافرين نظر الملجّج في اليمّ إلى منارة الميناء !

ويا فرحة المسافر ساعة يفصل من الصَّحراء قاصداً إلى هذا الفندق ! ويا طيب ما يجد للمقاعد والمناضد والبُسُط ، ولكلٍّ ما يبدو له فيه من آنية وأدوات وألوان وأصباغ وزينة ، من متعة تغمر نفسه ، حتى كأنَّ عهده في العمر بتلك المناعم ، انّما هو تلك السَّاعة . . .

ولقد جئت هذا الفندق الأبيض منذ أعوام ، فلماًّ قرَّ قراري في غرفة من غرفه ، قلت لبعض الخدم :

ـ لا تقرعْ عليَّ الباب ، ولا تفتحْ عليَّ إلى ساعة كاملة .

ولَّما انصرف الخادم ، أشرفت من النَّافذة على ساحة الفندق ، والنَّاس قليل ، وأنفاس العشيَّة تروح وتجيء ، والشَّجر يتحرَّك ألطف حركة ، فوقعت عيناي في السَّاحة على سيِّدة بثوب أسود ، كأنَّه ثوب الحداد ، وهي منفردة على مقعد ، تحت شجرة من أشجار الأكاسيا .

فشجاني هذا اللَّون الأسود المنفرد في ظلِّ الشَّجرة . وكرَّرت نظري في السيِّدة ، فاذا هي على جلالة حزن ، ووقار سنين ، لو تكشَّفا عن وجهها ، لبدا منه ما تخفي السَّحابة من حسن الضِّياء . . .

ولقد شغلني مشهد السيِّدة الحزينة عن ترك النَّافذة ، وعن الاستغراق في مناعم الرَّاحة والسُّكون في الغرفة . وإنَّ المسافر يغدو أرهف حسًّا ، وأطرى جوانح ، ممَّا يكون وهو في أهله وسربه ! وكأنَّ نفسي حدَّثتني حينئذٍ بما تحدِّث به النُّفوس من ظنون مختلفة في أمثال هذه المشاهد . فقلت : حادث موت ، أو حادث حبّ ، أو لوعة غربة ، أو انتظار هاجر ، أو فقدان سعادة أو مال أو عافية ، إلى آخر هذه المظنَّات التي راوحت في خاطري .

فاستدعيت الخادم ، وقلت له :

ـ هذه السيِّدة الجالسة تحت شجرة الأكاسيا ، من هي ؟ وما شأنها ؟ فإنّي عجبت لحزنها ، وانفرادها عن نزلاء الفندق .

قال الخادم ، وكان فيه ما يكون في العادة عند خدم الفنادق من تحفُّز للكلام ، ومن تكثير فيه :

« ـ تسأل عن السيِّدة ؟ لا تعرف السيِّدة ؟ إنّها رجعت أدراجها الآن بعد زيارتها لقبر « ألفريد » و« روز ماري » . هذه ، والله ، لا قبلها ولا بعدها في لطافة الرُّوح ! هذه ألطف من نواعم الرِّيش حول عنق الحمامة . . .

فقلت له :

ـ هذا كلُّه ، وما ذكرت اسمها ، ولا سقت لي خبرها ! ومَن « ألفريد » ؟ ومَنْ « روز ماري » ؟ وما شأن قبرهما ؟ وما علاقة السيِّدة بهما ؟

قال ، وقد هدأت فورته ، ونظر إلى السيِّدة نظرة رحمة ، وتعطُّف كثير :

« ـ منذ ثلاثة أعوام ، على التَّقريب ، جاءَنا في الفندق « ألفريد » و« روز ماري » سائحين في بلاد « الخليج » . وهما فرنسويّان ، لا يتكلّمان العربية ، وإنّما هو كان يحفظ لفظات من لغتنا نفهم بها ما يريده وتريده صاحبته من أطعمة وأشربة . ولله ما كان أشهى ما تتعثّر شفتاه بتلك اللَّفظات العربيَّة . كان ذلك آية في الملاحة ! وما رأت عيوننا أجنبيًا أرقّ ، ولا أجمل ، ولا أملح صباً وليان عود من « ألفريد » ! أمّا

« روز ماري » ، فحدَّث عن الجمال النَّسويِّ ، ولا حرج ! جنَّة من الورد الأبيض مرفوعة فوق قدمين . . . كانت تدخل الغرفة من غرف الفندق فتشمُّ لها النُّفوس رائحة تبلغ حيث لا تبلغ روائح الزَّهر ! ويا طالما دخلت غرفة الطَّعام ، في غداء أو عشاء ، والنَّاس على الموائد ، فاذا الأيدي تتوقَّف عن الحركة ، والأحاديث تنقطع ، ويخيِّم الصَّمت ، وتتساءَل العيون من كلِّ جهة : أشعاع الشَّمس دخل من الباب ، أم فصل الرَّبيع جاء في غير زمانه ؟! الله ، الله ، في أسابيع أربعة مرَّت على هذا الفندق ، كان بها فردوس الحسن ، وعشُّ الحبِّ ، وميدان الصِّبا . . .

« انظرْ إلى شجرة الأكاسيا . هنا فوق هذا المقعد الأخضر ، حيث تجلس السيِّدة الآن ، كان مجلس « ألفريد » و« روز ماري » ، حين يرقُّ النَّسيم في العشيَّة . فكنَّا نحن ننعم بنعيمهما ، ونبارك الله في سعادة قلبين أجنبيَّين جمعا تحت سمائه المشرقيَّة . ولم يكن يحسُّ واحدنا تضايق صدر ، ولا تضايق عين بما نرى لهما . . . فانَّ الجمال ، كما تعلم ، يشفع بكثير ، واللُّطف يشفع بكثير . ثمَّ إنَّهما غريبان ، هذه عاداتهما وسننهما في المصاحبة ، وإنَّهما في الشهر المحبوب . كنَّا نظنُّهما يومئذٍ زوجين في « شهر العسل » .

« ففي بعض الأيام ، في ساعة فجريَّة مبكرة ، ارتفع من هذه الغرفة ، وكانت هي غرفة الحبيبين ، صياح شديد ، ونحيب ، وولولة . فهرعنا ننظر ما فعلت فجاءات المصائب في غرفة الحبِّ والسَّعادة ! فاذا « ألفريد » في سريره ، وقد لفظ أنفاسه ، وبات هامداً ، جامداً . مات بسكتة في القلب .

« وإنّي أعفي رقّة فؤادك من وصف ما كان من حال « روز ماري » في تلك السّاعة ! وبحسبك أن أقول انّني سوف أخرج من الدُّنيا ، يوم أخرج منها ،وأنا يتردّد في مسمعي رنين شجٍ ممّا كانت تنوح به « روز ماري » على حبيبها المفقود ! أنا لا أعرف لغة الفرنسويّين ، ولا يعرفها رفاقي من الخدم ، ولكن تلك الألفاظ الملتمعة وراء الدّمع من شدّة اللّوعة وحرقة الحزن ، كانت في مسامعنا وعيوننا أجلى من المعاني . . . فكأنّها كانت تقول بها في مخاطبة « الفريد » :

« - يا حبيب العمر : تتركني وحيدة فريدة في غربة ما لها معاد ، وفي أرض ما بها رفيق ! ارحمني بكملة من فمك . قلْ لي كيف أفعل ! قلْ لي أين أذهب! وأين أُقيم! وأين أبثُّ همومي، وأذرف دموعي! وإنَّ من حقِّ شبابك أن تقام لك المآتم، وتعقد المناحات، لكن من أين أجيئك في هذه الأرض الغريبة بدموع الباكين، وحسرات الأهل والأحبَّة؟! ويا أيها الحاضر الغائب، والقريب البعيد، والذَّاكر الذي نسي، والوافي الذي بات لا يفي: هنيئاً لك اليوم! فانَّك أصبحت لا قلب، ولا حبَّ، ولا بكاء على فائت من أحلام الصِّبا، ولذائذ الهوى، وعلى السعادة المنقرضة. . .

« ثمَّ إنَّنا حملنا نعش الشابّ إلى حفرة حُفرت له في منقطع الرَّمل . غريب في قبرٍ غريب ! ولم يمشِ وراء النَّعش إلاَّ الحبيبة المفجوعة ، وخدم الفندق ، وصاحبه ، وبضعة رجال من نزلائه ، من الّذين رقّت أفئدتهم لموت الشابّ الأجنبيّ المسكين .

« ولّما كان اليوم التّالي للفاجعة ، جئت إلى هذه الغرفة أقرع الباب على روز ماري قرعاً رفيقاً . فلقد راعنا في الفندق انّ النّهار بلغ مبالغه ،

وهي في غرفتها لا تغمز زرَّ الجرس ، ولا ترفع ستار النَّافذة . فلم تفتحْ عليها ، ولم تجبْ بعد ذلك لدقِّي الباب دقّاً شديداً . فأدرت تفاحة الباب ، وإذا هو غير موصد ، ودخلت الغرفة .

« مَن كان يرى الغصن في الورق يرفُّ رفَّه النَّاعم ، نديَّ اللَّمعان ، ساطع الرَّيَّا ، فانِّي رأيت « روز ماري » فاقدة الرُّوح ، منطرحة فوق سريرها ، لا الغصن يهتزّ ، ولا الورق ندیان ، يلتمع من نعيم ونضرة ! أنا رأيت يومئذٍ كيف تموت الأغصان . . .

« وكان أن حضر إلى الفندق رجال من الشرُّطة ، وقد جاءهم الخبر ، وطفقوا يفتِّشون في غرفتها ، ويسألون كلَّ حاضر عمّا يعلم من أمرها ، ويدوكون في أسباب موتها ، إلى أن ظفر واحد منهم بورقة كانت تحت وسادتها ، فيها كتابة بالفرنسويَّة ، وهذا معناها :

« أنا بنت وحيدة لريمون كلون من مقاطعة « لاند » ، في جنوبيّ فرنسة . وليس ألفريد زوجي ، وإنَّما هو حبيبي . جئنا إلى الشرَّق نهرب من عمَّة له ، أبت أن يُعقد له عليَّ لفقر بيتنا ، ومسكنة أهله ، على انَّ ألفريد وحيد بيت ثراء وسراوة ، ولما تزعم من انَّ أُمِّي كان شبابها مضغة في الأفواه . وقد مات أبو ألفريد ، وماتت أُمُّه في أوَّل أيَّامه بالحداثة ، وكفلته عمَّته هذه ، وقامت بأمره على عين عمٍّ له وأخوال ثلاثة ! وأبي مات وأنا أحبو إلى الثالثة عشرة من سنيَّ .

« رآني ألفريد ورأيته يومئذٍ ، إذ نحن في منعطف شارع من شوارع « بوي » ، في مقاطعتنا ، حدثين ، خليِّين ، خفيفي الحركة كأغصان الصَّفصاف الرَّخصة ، فهفا قلبه وهفا قلبي . وما زال بنا الحبُّ يكبر ما

كبرت خطواتنا في الصِّبا ، حتَّى ملأ الدُّنيا في عيننا ، وضاقت علينا السُّبل فيها !

« وإنِّي أكتب هذه الكلمة قبل أن أتناول الحبوب التي في علبة « النّيوتال » ، وأفقد معها الوعي ، حتَّى لا يُتهم أحد في هذا الفندق الجميل انَّه سمَّ لي طعاماً ، أو شراباً . فأنا قد أردت أن ألحق ألفريد حيث يكون بمقامه من الدُّنياوات المنحجبة . . .

« ثمَّ انِّي أسأل أهل الفندق أن أُوسَّد التّراب الذي وُسِّده ألفريد . وليعفُ هؤلاء المحسنون عنِّي وعنه في ما سوف تتحرَّك به جوانحهم من حزن لنا ، ولما فعلته بنا هذه الحياة الدُّنيا . . .

« هذا ما كان مسطَّرا في الورقة الصغيرة التي كشفت عن سرَّ روز ماري وموتها ، وعمَّا كان من أمرها وأمر حبيبها . ولا ، والله ، لم يبقَ في الحاضرين ، عند قراءة الكتابة ، عين لم تدمع ، ولا قلب لم ينعطف !

« وفي آخر النَّهار ، عند هدأة المساء ، حملنا نعش روز ماري إلى منقطع الرَّمل ، ووسَّدناها التُّراب في حفرة ألفريد ، ثمَّ عدنا مطرقين صامتين ، لا يقدر واحدنا على الكلام من فرط الشَّجو !

« أمَّا هذه السَّيِّدة الأجنبيَّة ، الجالسة تحت شجرة الأكاسيا ، فانَّها من ثلاثة أعوام تجيئنا في الفندق ، وتقضي عندنا أياماً تحمل في خلالها إلى قبر ألفريد وروز ماري كلَّ مسآء زهرات من الحديقة ، وتجلس عنده ساعة ، أو بعض السَّاعة ، ثمَّ ترجع أدراجها إلى الفندق » .

قال المسافر الَّذي روى لي هذه القصَّة :

ماكاد يصل الخادم إلى هذا الموضع من كلامه ، حتّى دخل علينا في الغرفة سائق السيّارة التي كنت مسافراً بها في بلاد « الخليج » ، وقال ، وهو يلتهث من سرعة المشي :

ـ الرِّياح تنذر برهج شديد ، ولا أراكَ الله الرَّهج ! غبار يثيره عصف ريح شماليَّة أحمر كثيفاً ، يسدُّ الجوّ ، ويمنع الرُّؤية ، ويضيِّق على الأنفاس . وهو يدوم في الأحيان اليومين والثلاثة . فمن الرَّأي أن نغادر الفندق لفورنا ، ونغذّ السَّير إلى البلد المجاور .

وكان الفندق قد قام وقعد لخبر الرَّهج ، وهرع الخدم والنُّزلاء من كلِّ جانب يوصدون الأبواب والنَّوافذ ، ويتفقَّدون شقوق الجدران . . . حتَّى لكنت تحسب ، وسط ذلك ، انَّ نقمة من النِّقم مقبلة على قدمين !

فلماَّ انطلقت بي السَّيَّارة ناحية الصَّحراء ، وكانت الشَّمس قد توارت في الحجاب ، ولم يبقَ من شعاعها إلاَّ مسحات شاحبة ، تتلاشى في لون اللَّيل ، عند نهايات الصَّحراء ، رحتُ أُفكِّر في ما انقطع من حديث خادم الفندق عن السيِّدة ذات الثَّوب الأسود ، وعلاقتها بالغريبين الرَّاقدين في منقطع الرَّمل ، وأسأل نفسي :

ـ أتراها عمَّة ألفريد ، تجيء في الأعوام إلى قبره ، وقد أدركتها الرِّقة ، وخشع بصرها من المرحمة ، تستغفره عن قساوتها ، وخطل رأيها في مسائل القلوب ؟! أم أنها أمّ روز ماري ، وقد ذاقت ثمرة فعلها ، وعضّت شفتيها ندماً ولهفاً ، تجيء إلى القبر تستغفر بنتها عماَّ ألحقت بها من رشاش سمعة ملوَّثة ، نغَّص عليها شبابها ، وكسر من طرفها ؟!

ثمَّ قلتُ في نفسي أُخاطب السَّائق ، بعد أن أطبق اللَّيل ، وأخذت السيَّارة توغل في مغامض العتمة :

- على رسْلك ، يا سائق الحديد الذي لا يقف ، ولا يلتفت إلى وراء ! فأنَّنا قد بعدنا عن قبر ألفريد وروزماري كثيراً . . .

* * *

هذه قصَّة ألفريد وروز ماري ، رويتها كما رواها لي ذلك المسافر ، وشميم الشِّيح حولنا يهبُّ هبوبه من المنابت الذكيَّة . لم أُغيرّ من وقائعها ، وانَّما غيرَّت من عباراتها ، ومن لهجة راويها الشَّجيَّة وهو يسردها . وليس لي فيها الاَّ عمل ناقلٍ تورَّع من إشاعة الحزن في كتاب لا يدور على هموم القلوب .

* * *

نوع من السفر

ليس « سويفت » الإنكليزيّ ، صاحب « رحلات جُلَّفر » ، ولا « كزافيه دي ميستر » الفرنسويّ ، صاحب « سفرة حول غرفتي » ، إلاَّ كاتبين كثيري القعود والاضطجاع في بيتيهما ، كسائر الكتَّاب في ذلك . . . وإنَّما قلما هذين الكاتبين هما اللَّذان خرجا إلى السَّفر ، وطوَّفا ما طوَّفا في الأرجاء .

هذا نوع من السَّفر ليس عهد النَّاس به جديداً ، ولعلَّه أمتع الأسفار !

* * *

صفير القطار

كان عنـدي من الشَّجـو والجـزع وحـركة النَّفس لصفـير القطـار الحديد، وهو يغادر محاطَّه، وذلك أيام السَّفر في القُطـر، ما لا أزال أحسُّ به كلَّما سمعت أذني في زمن السيَّارة والطيَّارة قطاراً يصفر! ويا طالما شجاني قول الشَّاعر في قطار الأحبَّة:

أفـدي المسـافـر، والسَّفـرْ،
والأقـربـين مـن النَّـفَرْ،
وركابهـم لمـا مشـى،
وقطـارهـم لمَّـا صفـرْ...

وإنَّ في صفير القطار من اللَّوعة، والإيذان بالفراق، ما ليس في هذا الهدير المنكر، الذي تسمعه عند تحرُّك السيَّارة للسَّير، وتحرُّك الطائرة للطَّيران!

* * *

من معاني السفر

ليس معنى السَّفر، في معاجم اللُّغة، التَّخلُّص الموقوت من الدَّائن الملحّ، أو الجار الفضوليّ، أو الزَّائر الكثيف الظلّ، أو الخادم السَّمج المنظر، ولا هو الهروب من كلّ ذي سحنـة غـير مرغـوب دوام النَّظـر إليها...

وفي هذا المقام تحلو لي كثيراً كلمة «لمونتـين» على السَّفـر، وهـي قوله: «يسألني النَّاس عن أسباب أسفاري. ويا طالما قلـت لهـم في

الجواب : انّني أعرف جيِّداً هذا الَّذي أهرب منه ، أمَّا الَّذي أبحث عنه فانّي لا أعرفه ! » . لله « مونتين » ! فهو في هذا الجواب لم يبقِ مقالاً لقائل .

* * *

تكريم الأنبياء

« لا يكرَّم نبيّ في وطنه » ، وذلك لخلطة بني قومه معه ، ولا في أثناء سفره في أوطان النَّاس ، لجهلهم ما عنده . فقولوا لي ، إذاً : أين يكرَّم ذلك النَّبيّ ؟!

* * *

لذائذ الخيال

يا من يريني فوق ظهر « البوينغ » ، و« الڤيسيتين » ، و« الكورونادو » ، في السَّفر ، لذَّة الخيال التي كنت أجدها ، في حداثتي ، فوق بساط الرِّيح ، وهو ينقلني في « بلاد ألف ليلة وليلة . . . » من مكان إلى آخر !

* * *

السفر المنيء

من كلام العرب ، ممَّا يصفون به براعة الحسن ، قول قائلهم في

بعض الملاح : « إنَّ العيون تسافر في محاسن وجهها » . يريد انَّ العيون تسبح وسط ذلك الجمال ما شاء الله أن تسبح . . .

أقول : له الله ! أسفر ، وعناء سفر ، ومشاقّ ، مع حسن الوجوه ، ولذّة التّطلّع ؟!

* * *

النفس في السفر

في السّفر تُشرع نوافذ النّفس إلى الخارج . . .

* * *

بلدان السياحة

كلُّ سائح يدخل معه في البلد الّذي يجوس خلاله شيئاً من هواء بلده . فلا تستطيع البلدان التي تشخص إليها السيّاح أن تدّعي انَّ هواءَها نقيٌّ ، خالص ، تخرجه هي من رئتيها . . .

* * *

الدواء الشافي

من ألطف ما جاء في مجاميع الأدب القديم عن حبِّ الأعراب للدّيار ، وحنينهم إلى الأهل ، انَّ مسافرهم كان يتزوّد ملءَ كفّيه من

تراب بلده . فاذا وجد في نفسه ضعفةً ، أو اشتدَّت عليه شكاة ، شمَّ من تلك الحفنة شمَّةً فيشفى !

نعم ، يشفى ! ومن ذا الَّذي زعم لك انَّ هذا الدَّواء القديم أصبح في زماننا غير نافع ؟ . . .

* * *

الزمن القادم والشعراء

في زمن الصَّواريخ القادم سوف يكون للنَّاس من كتب الرّحلات ما يُجعل عنوانه ، مثلاً : « السَّفر الى بلاد القمر » ، أو « دليل المسافر إلى القمر السَّافر » ، أو « طلوع السَّفْر إلى مسافر البدر » . وهنيئاً للقرَّاء يومئذٍ ، وإن هم ضاقت صدورهم بهذه الأسجاع والجناسات في التَّسمية !

ويومئذ يفقد الشُّعراء ألفاظاً ومعانى وأساليب في الكلام كثيرة . فلا يكون لهم أن يقولوا ، مثلاً ، ما قاله الأخ الأخطل الصَّغير في بعض أغزاله :

وقفةً ، أيُّها القمرْ ، نتشاكـــى ،
فحـــياتي على خطـرْ في هواكا . . .

ولا أن يقولوا شيئاً آخر ممَّا يقع في هذا المعنى .

ويا سوء حظِّ الشُّعراء يوم يطير الخيال عن الكلام !

* * *

تأثير السفر

يريك السّفر أشياء الناس مكبّرة ، حتى انّك ترى ذنب السّنجاب في أوطانهم ، وذيل الطّاووس الذي في وطنك ، سواء بسواء .

* * *

الشعر العجيب

ما بال كتّاب الرّحلات لا يزعمون ، في باب العجائب والغرائب من كتبهم ، انهّم رأوا في بعض البلاد ، التي طرأوا عليها ، ناساً ينظمون الشّعر بلا وزن ولا قافية !

* * *

بيت البحتريّ

كنت أجد ، قبل عهدي بالسّفر ، والتّجوال في الآفـاق ، انَّ هذا البيت من الشّعر ، وهو للبحتريّ :

شرّقْ ، وغرّب ، تجدْ من صاحبٍ عوضاً ،
فـالأرض من تربـةٍ ، والنّـاس من رجلٍ !

غاية في الجودة ، وأمد بعيد في هذا المقام السَّنيّ من مقامات الاجتماع والأُلفة والتّقلّب . بل انّني كنت أجد فيه من السّماحة الانسانيَّة ما يأخذ باللُّب، ويلصق بجوانب النَّفس . فلماً ذقت السَّفر ، والغربة ، والحنين إلى الأهل والسَّكن ، نزل البيت من عيني . . .

* * *

« أبناء بطوطة » . . .

في زاوية كلّ نفس « ابن بطوطة » متهيّىء للرّحلة ، وانّما يعوزه نقل القَدَم !

* * *

رئيس جمهورية عجيب

لو فُتح على مذكّرات المسافرين ، لكان منها للنّاس ينابيع للفكاهة لا ينضب معينها . ولقد وُجد في مذكّرات أحدهم ما هذا حرفه :

« وصلنا اليوم إلى بلاد هذه الجمهوريّة العجيبة . فقد ذكروا لنا انّ رئيس الجمهوريّة فيها لا يلبس تاجاً ، ولا يستوي على عرش ! » .

وأقول للقارىء انّ المسافر ، هذا صاحبنا ، ليس في ما علمتُ من الحمقى ، أو المغفّلين ، الذين لا يعرفون فارقاً بين دولة بجمهوريّة ، ودولة بعرش وتاج . . .

* * *

تحفة القادم

لا يرى العائد من سفره بدّاً له من أن يتحف أهله بشيء طريف . هذه تحفة القادم ، يحملها المسافر ، وينتظرها المقيم .

ماذا ؟ أتركب « حضرتك » في الطّائرة متون الرِّياح ، وتذهب على بركات الله متنقّلاً في الأقطار ، من كلّ قاصٍ ودانٍ . تنزل على المدينة في

العالية ، وهي كبيت العروس من البهجة ، أو على المدينة في السَّاحل تضحك منازلها للبحر ، ويضحك البحر بإزائها ، أو على قصبة في البسيط الأفيح من الأرياف ، أو قرية في الحدِّ المنفسح من الهضاب ، ثمَّ تنتقل بك السَّيارة إلى كلِّ مونق بهيج من حدائق وأنهار ومعاهد ودور آثار ، ومن ملاعب وأندية ومسارح وسوامر ومجالس سماع ، وينشرح صدرك ، وينضح قلبك بالسُّرور ، حتى إذا شبعت نفسك ممَّا عند الأقوام من مشاهد ومناهج في العمران وسعة العيش ، وأزفت أيام العودة ، تعود على رسلك ، وليس في يدك هديَّة تتحف بها هؤلاء المقيمين من أهلك وأصحابك وذوي العلاقة بك ، وقد حُرموا لذائذ ذقتها ، وأياماً نعمت بها !؟

لا ، يا سيِّدي المسافر ! إنَّ لهؤلاء عليك حقًّا . إنَّ لهم مثل ما يُفرض على المِلك والعمل والدَّخل . لهم عليك « ضريبة السَّفر » . . .

ثمَّ انيَّ لا أراك ناسياً، فوق ذلك، ما كان في ساعة التَّوديع، يوم ركوبك الطَّائرة، من محبَّات قلوبٍ وثبت إلى أطراف الشِّفاه في تقبيلك، ومن مناديل لوَّح بها، وأيدٍ أشارت بسلامة الرَّحيل، وسعادة السَّفر. فمن الحقِّ إذا أن تتذكَّر في ذلك ما جاء في «الأثر»: وتهادوا تحابُّوا!». . .

* * *

الخبر والخُبْر

قبل عهدي بالسَّفر ، والتَّجوال في الأقطار ، كان يقال لي : غداً تسافر وترى انَّ الدُّنيا كبيرة جداً . . . فلمَّا سافرت كثيراً ، وطوَّفت في

الآفاق كثيراً ، رأيت انَّ الدُّنيا أصغر ممَّا كنت أتمثَّل من صورتها في خاطري .

في هذه المرَّة لم يحقِّق الخَبَرَ الخُبْر . . .

* * *

في الطائرة

منظر الأرض من الطَّائرة ، وبخاصَّة حين تكون في الطَّبقات العلى من الأجواء ، يُذكر قول « وليم كوبير » ، الشَّاعر الانكليزيّ الفكه الرّوح : « خلق الله الفلوات ، والانسانُ خلق المدائن والقرى ! » . فانَّك بمكانك من الطَّائرة المحلِّقة لا ترى من الفلاة دقائق وتفاصيل ، بل رقاعاً وبسائط ، ومسافات خاوية ، كاسفة ، في لون الصَّحائف الصَّفراء من الورق . . . أمَّا المدائن والقرى فانَّ عينك تأخذ من خطوط شوارعها ، وأشكال دورها ومنازلها ، لمحات تحرِّك في نفسك الأنس بعمل الانسان ، وأثر يده في أكناف الطَّبيعة .

* * *

أيام ماضية !

من أخبار العرب في حبِّ الرِّحلة ، والحضِّ عليها ، وذلك في أيَّامهم بتناهي الحضارة المترفة ، انهَّم وقفوا الأوقاف الكثيرة على السُّيَّاح والرَّحالة وأهل الرُّجلة ، يُنفق لهم منها ما يعينهم في إتيان الآفاق ، وانَّه وُجد في دمشق ، وفي حاضرة مرَّاكش ، وقف لسقيا الماء المثلوج في أيام

القيظ للمارِّين على الطُّرق . وقيل انَّ الماء المثلوج في وقف دمشق كان يُسقى بالخرُّوب ، وبماء الورد !

سقى الله تلك الأيّام . . .

* * *

الى العائد من السفر

أقول للعائد من السَّفر : كلاَّ ، يا سيِّدي ، لا بلدك صغر وحقر ، ولا أنت عظمت وجسمت . .

* * *

. . . حتى عند الركائب !

إنَّ ما لقيه فرس أبي الطَّيِّب ، وهو الَّذي كان تحته في شعب « بوّان » ، بين فينان الدَّوح ومشتبك الشَّجر ، وروى من خبره معه ما هذا بعضه :

يقــول بشعب « بــوَّانٍ » حصاني :
أعــن هذا يُسـار الى الطِّعانِ ؟!
أبــوكم آدمُ ســنَّ المعاصــي ،
وعلَّــمــكم مفـارقــة الجنــانِ . . . .

غير ما لقيته مطـايا أحـد قدمـاء الشُّعـراء ، وهـو في الطَّـريق إلى ممدوحه ، وذلك حيث يقول :

إنَّ المطـايا تشتـكيك ، لأنّـها
قطعـت إليك سباسباً ، ورمالا !
فبين سفر وسفر فرق ، حتّى عند الرّكائب . . .

* * *

بلاد العجائب والغرائب

يقول أحد مشاهير أهل الرِّحلة انَّه طوَّف في آفاق الدُّنيا ، وجال في مختلف أقطارها ، ولم يبقَ عليه في أمنياته ، وخواطر هواه ، إلاَّ أن يقصد إلى بلاد قيل له انهَّا بلاد العجائب والغرائب . على انهَّم لم يذكروا له اسمها ، ولا قيل له أين مكانها .

أنا لا أعرف أيَّ شيء عناه بكلامه هذا الرَّحالة ! أفتراه يريد أن يقول انَّه إلى اليوم لم يجوُل في نواحي نفسه ؟؟؟

* * *

« اليهودي التائه . . . »

في هذا الزَّمن ، زمن السَّفر والنُّقلة ، صار لليهود التَّائهين وطن يقرُّ فيه قرارهم . على حين أصبح كلُّ انسان في أيَّامنا ، بين السِّياحة والرِّحلة ، « يهوديًا تائهاً » . . .

* * *

هي هي حيث تكون !

في السَّفر ينظر الرَّجل إلى صرَّة دراهمه ، أو إلى محفظته التي فيها أوراق النَّقد ، وتنظر المرأة إلى مرآتها ! فهي هي في السَّفر وفي الإقامة . . .

* * *

نغصة السفر

في دار الغربة ، كلُّ شيء يكاد يسألك : « من أنت ؟ » ، وفي بلدك كلُّ شيء يكاد يقول لك : « أنت فلان ابن فلان ! » .

فانظرْ إلى السَّفر ، ما كان ألذّ أيَّامه ، لولا هذا الاستفهام الَّذي ينغِّصه . . .

* * *

سفر الشهرة

شرط الشُّهرة عند العرب : أن تسافر ، هي أيضاً ، في هذه الدُّنيا العريضة ! فلقد جاءَ لهم في باب النَّباهة ، واستفاضة الشُّهرة ، قولهم : « فلان سافر ذكره على الأفواه ، وسار ذكره كلَّ مسير ، وطار ذكره في الآفاق ، وجاب الآفاق بريد ذكره ، واضطرب ذكره في الأرجاء ، وذهب سِمْعُه في النَّاس ، وانَّ ذكره ما زال يطوي المراحل ويجوب الأمصار ، وقد سافر ذكره في الشَّرق والغرب ، وسار ذكره مسير القمر ،

وبلغ ذكره « بِرْك الغِماد » ، إلى آخر ما هناك من هذا الجبل الطَّويل .

وبرك الغماد ، في كتب البلدان ، الأقوال في مكانه ، وفي ضبطه ، كثيرة . وفي بعض المتون : هو أقصى معمور الأرض . وقد قال الشَّاعر :

فدع عنك من أمسى يغور محلُّها
ببرك الغمادِ ، بين هضبة بارحِ !

وجاء في شرح هذا البيت : هذه مواضع في منقطع الدُّمينة وعرارة ، من سفلى المغافر . وفي حديث عن أبي الدَّرداء : « لو أعيتني آية من كتاب الله ، فلم أجدْ أحداً يفتحها عليَّ إلاَّ رجل ببرك الغماد ، لرحلتُ إليه ! » .

* * *

السفر والمهاجرة

تقول : سافَرَ الرَّجل إلى بلد كذا ، إذا أردتَ أنَّه مضى إليه . وتقول : هاجَرَ الرَّجل ، إذا أردتَ أنَّه فارق بلده ، واستوطن في بلدٍ آخر . فبين « سافَرَ » و « هاجَرَ » ، يا أهل السَّفر ، فرق عظيم ـ فاحمدوا الله على ذلك . . .

* * *

دفاتر المسافرين

لو يكون للقارىء أن يفتح على دفتر جيب ، من دفاتر أهل الذَّوق

والنَّظر من المسافرين ، لجاءَته تقاييد كثيرة تلمُّ بمعانى لوعة التَّـوديع ، وفجعة البين ، والبكاء على الفائت ، والحنين إلى الاوطان والأحبَّـة ، والتَّذكار للمعاهد والمنازل ، والمواسم المنقضية ، وتنظـر ، مثـلاً ، إلى قول الجاحظ :

إذا أحسَّت النَّفس بأرض مولدهـا ، تفتَّحـت مسامُّهـا ، فعرفـت النَّسيم . . .

أو إلى قول الشرَّيف الرَّضي :

ولَّما أتانـي البـين ، قال لي الهوى :
رويداً ، وقـال القلـب : أين تريدُ ،
ولـو قال لي الغـادون : ما أنـت مشتهٍ ؟
غـداة قطعنـا الرَّمـل ، قلـتُ : أعودُ . . .

أو إلى قول البحتريّ :

لو أنَّ أنـواء الـرَّبيع تطيعني ،
لشفـى الـرَّبيع غليل تلك الأربعِ .
ما أحســن الأَيَّام ، إلاَّ انهَّا ،
يا صاحبـيَّ ، إذا مضـت لم ترجعِ !

أو إلى قول أبي تمّام :

عدلٌ من الدَّمـع أن يبـكي المصيفَ كما
يُبكى الشَّبـاب ، ويُبـكى اللَّهـو والغزَلُ .

إلى آخر ما تفيض به تلك الدَّفاتر من رقائق شهيَّة .

بائع الورد

لقيتُ اليوم في عرض الشَّارع ، في هذه المدينة ، بائـع وردٍ ، ويا للورد من صحبته ! فهو شابٌ دميم ، قبيح الصُّورة ، وسخ الثَّوب ، ينادي على زهـر الملاحـة والرِّقَّـة كما يُنـادي على الباذنجـان والـكرَّاث والبصل !

لك الله ، يا هذا ، وتبيع الـورد ؟ أفـلا يوجـد في المدينـة زهــرة « آدميَّة » ، تحمل هذه الحسناوات « الزَّهريَّة » ، وتدور بها على النَّاس شفاءاً ، ورحمةً ، ونسيماً حبيباً ؟ . . .

* * *

حجة ناهضة

قول أُميَّة بن أبي الصَّلـت الأنـدلسي ، وهـو ممَّـا ينظـر أيضـاً إلى الاغتراب والرِّحلة :

إذا كان أصلي من ترابٍ ، فكلُّها
بــلادي ، وكلُّ العـالمين أقاربـي !

إنَّما هو حجَّة ناهضة على من يقول انَّ العرب، لم يعرفوا ، قبل العهد « بموسكو » ، هذا الوارد من بضاعتها . . .

* * *

حقيقة الوطن

يحسُّ المسافر ، في جملة ما يحسُّ به ، انّ بلده للسّكن والتّوطُّن ، والتّوسُّد الهنيء في الرُّقدة الأخيرة ، وانَّ بلدان النّاس إنّما هي للتّجوال فيها ، وتلذيذ العين بأشيائها ، ليس غير !

* * *

الحمد لله . . .

في آخر السّفر ، عند العودة في السّلامة من وعثائه ، يقال : « الحمد لله » . أفليس بالأحرى أن يقال هكذا في آخر كتاب يدور على السّفر ، وقد شقّ فيه مشي القلم ، وطالت المسافة ؟! فالحمد لله .

في الهَواء الطَّلق

(تذكارات ونجاوى)

بين يدي الكتاب

نُشر جانب من هذه التّذكارات والنّجاوى في الصُّحف بعنوان « في الهواء الطّلق » ، وأعيد النّظر فيه الآن .

أما الجانب الذي لم يُنشر قبل اليوم ، فانه لا يخرج في الجملة عما يدور عليه المنشور من تذكار لأمر خاصّ يتّصل بأمر عامّ ، ومن نجوى في الاجتماع الانسانيّ والحياة والطّبيعة والآداب والفنون والتّجاريب إلى متفرقات أخرى .

ذلك ، وعسى أن يجد القارىء من اللذة في قراءة هذه الفصول ما وجده الكاتب في كتابتها !

أمين

الفصل الأول

التّـذكارات

زهرة متفرّدة ـ « الغابة » و « المغارة » ـ موت الجماد ـ معنى كمعنى الطرب ـ جمال الحياة ـ قول قيم ـ تلاوة رائعة ـ حول الديمقراطية ـ قرننا المهاة ـ بعض المطالعين ـ حواسّ الرجل وقلب المرأة ـ العربية والدقائق ـ مصارع ـ استعمال العلماء ـ البقعة الخضراء ـ مقال ومقام ـ قطع الحاجات ـ خلود كاره ـ طيب الشعر ـ الأشياء بمواضعها ـ خداع العناوين ـ الألفاظ ومدلولاتها ـ العثار المحبوب ـ التوفيق والذكاء ـ الأقوال والأفعال ـ لا آباء لهم ـ الطاغي المطغيّ عليه ـ « المصلحة العامة » ـ البكاء ـ أهل الذوق ـ « نظّام » في مصر ـ ديوان الطبيعة القديم ـ تأخير المقدّم ـ إكبار تركي ـ الابن والتلميذ ـ الحديث ـ قطع الألسنة ـ في المعاني ـ فناء الخطب ـ مؤلف عجيب ـ نوادر سياسية ـ قصة لفظة ـ الاضحاك والضحك ـ الحرية ـ أسماء الطرق ـ بطرك ـ نصيحة ـ النكتة البارعة ـ شوقي ولبنان ـ المرأة وردة ـ قصة اعتصار ـ غرف الحبر ـ مناقشة عالية ـ متابعة الأذواق ـ من أبواب القناعة ـ خطباء الجماهير ـ المقصرون والسابقون ـ في كتابة التأريخ ـ عدوّ الرجال ـ في النقد ـ كتاب حول الحاجة ـ العنف في التربية ـ قاعدة لم تقنع ـ «أبو فراس» ـ العضو الذي يسقط ـ ذكرى ـ الحديث على الغناء ـ حول الجاهلية ـ تمثالي ـ المجتمع المفقود ـ هنيئاً لنا بالعداوات ـ في أطراف السعف ـ التعريفات ـ حتى لا يقاطعه أحد ـ التقية ـ الفولكلور عندنا ـ ثلاثة لا يفهمون الديمقراطية ـ ترقيص القرود ـ الدعوى ـ تلقيب مكروه ـ قصص علماء ـ من المطالبات بالحقوق ـ كلمة تغني عن كلمة ـ كلام بارع ـ « ايّ الرجال المهذّب » ـ له نصيب من اسمه ـ كثرة الكتب ـ الفرق بين الشعراء ـ حزّة للنظر ـ خير الأساليب ـ هذا العصر .

الزهرة المجهولة

أبهج أزهار الرَّبيع في عينك ، وأحبُّها الى نفسك ، هي التي لا تعرف أنت اسمها ، ولا يعرفه ايضاً معجمنا العربيّ !

ولقد بكرتُ في بعض أيام الرَّبيع ، والفصل في أوَّله ، إلى هضبة في الضاحية ، منفردة ، متنحِّية عن المساكن والطُّرق ، وقد لفَّها الشَّجر والنَّبت كما تتلفَّف أنت بثوبك . فبصرتُ في إحدى العطفات بزهوة - يا لها زهرة !

ورقات خمس في حمرة مليَّة ، ملطَّفة عند نهايات الأطراف بلون كالبياض ، وليس ما هو . في وسطها شيء كالخمل ، أحمر ، خالص اللون ، يخرج من الضمّ في الرِّيّ والنُّور نديّ اللَّمعان . فوق ساق ليِّنة دقيقة هي التي تحمل ذلك الحسن المرفوع . . .

فقلتُ لمن كان إلى جانبي في تلك الساعة الفجريَّة : وأنت ، أيضاً ، تجهل اسمها ، ولا ريب !

وددتُ أن اشمّ نَفَسَها . وودتُ أن اضع شفتيّ في موضع الضمّ من أوراقها ، وأن لا أفارق مكاناً تقيم به أخت الوردة الحمراء ! أهو حبّ الجديد ؟ أم حبُّ المجهول ؟ أم انه غير هاذين من شهوات القلوب !

ولقد خطر لي أوَّل وهلة أن أفعل بها ما يُفعل بالمحبوب من الزَّهر . ولكن يدي لم يطاوعها قلبي على القطف . . . فكأنَّ القطف مذبحة الأزاهر ، تحزُّ فيه أعناقها من الوريد إلى الوريد ، وتنقط مادَّة حياتها على أصابع القاطف ، وهو لا يشفق ! فتركتُ حسناء الهضبة مستوية على عرش جمالها وراء الصخور الوعرة ، والأشجار المشتبكة ، تنتظر قدوم

الشمس في النهار الجديد . ثم قلت لصاحبي ، ونحن نرجع أدراجنا :

أخوها الورد ، ذو الحمرة ، ملأ علينا السَّهل والجبل بالمشابه والنَّظير ، فهنيئاً لها بالتفرُّد . . .

منازل الألفاظ

ذكرتُ لنجيب باشا الملحمة ، أيام هجر استنبول الى بيروت ، وكان في عنفوان شأنه قد وزر للسلطان عبد الحميد ، ثمَّ وجد ، بعد ذلك ، من « الاتحاديِّين » غبَّها ، انَّني رأيت في « صوفر » ، اوائل الحرب العامَّة الأولى ، أنور باشا وجمال باشا (هذا صاحبنا المعروف بالسَّفَّاح) ، وانَّني لمحتُ في الأوَّل وداعة تريد أن تظهر بمظهر الشَّكاسة ، كما لمحتُ في الآخر شكاسة تريد أن تظهر بمظهر الوداعة . فقال نجيب باشا : « قبَّح الله الاثنين معاً ، فانَّهما من مغارة واحدة ! »

فحلت لي يومئذ هذه اللفظة (المغارة) في كلامه عن الرَّجلين كثيراً .

ولقد أورد الأمير شكيب في كتاب ذكرياته مع شوقي انه يوم تذاكرا شوقيَّة الثَّورة السوريَّة (سلامٌ من صبا بردى) ، ووصلا الى هذا المصراع « لكلّ لبوءَة ولكل شبل » ، قال لأمير الشعراء : عندما بدأتُ بهذه الجملة خفتُ ان يكون الجواب « نضالٌ عن مغارته ورشقُ » . يريد انَّ « مغارة » ليس وقعها خفيفاً على السَّمع ، ولا هي قريبة الى الأنس ؟ . فقال له شوقي « وهي إيْه ؟ » (ينقل الأمير شكيب هنا كلام شوقي بالحرف) ، قال : « نضالٌ دون غابته ورشقُ » .

وهكذا ترى انَّ « الغابة » في قول شوقي نازلة موضعها ، كما نزلت

« المغارة » موضعها في قول نجيب باشا ، ولا تليق الواحدة منهما في هذين المقامين بموضع الثانية . على انَّ الغابة هي والمغارة كلتاهما مأوى الأسد . وانَّما الألفاظ بمنازلها تجمل ، وتقبح .

جنازة منزل . . .

إنّي لفي بعض الطريق بين « محلَّة الظَّريف » و « وادي أبي جميل » في المدينة ، وذلك من مدَّة ، اذا بمنزل قديم يُهدُّ إلى الأرض . معاول ترتفع ومعاول تهوي ، وحجارة وبلاط وعوارض وعضائد وعتبات وأدراج ورواشن وأروقة تتساقط في روعة الهدّ ، ووحشة التَّلف والمصارع . ثمَّ اصوات للهزِّ والرَّجِّ والسُّقوط من شاهق تجلجل في خلال الهدم بما يكون الصراخ عند الفزعة . ويا ربَّ حجر في زاوية ، أو حنيَّة ، يُزاح عن موضعه ليُنتزع ، فيُسمع له زفير مكدودٍ ، يستغيث ويتحسَّر ! ويا ربَّ مصراع باب يُسلخ عن أخيه في الرِّتاج فيخرج في صريره انين مفارقٍ مضطرّ ! . . .

وكانت الآلات الضَّخمة من روافع أثقال ، وحاملات نقل ، قد وقفت ناحية الأنقاض تنتظر الوسق الى المكان البعيد . . . جنازة للأشياء كما تكون جنائز الموتى ، لولا أنَّها لا تُحاط بالزخرف واللهف ! فأحسستُ ، وأنا انظر من مكاني في الطريق إلى مصيبة ذلك المنزل في يومه الهائل ، شجواً غامضاً ، من الشَّجو الذي يعرض للنفوس في بعض انفعالاتها بمشاهد الفناء ، فتشعر به ، ولا تدركه .

ويا أيُّها القارىء : من ذا الذي زعم لك انَّ الجماد لا يموت كما يموت الانسان ؟؟؟

من الكلام أشياء تُحبُّ ، ولا يُفهم لحبها سبب ، ومنه أشياء لا تُحبُّ ولا يُفهم لذلك سبب . ولقد كنتُ في أوّل عهدي بالشعر والكتابة أهمُّ في الأحيان أن أكتب عمّا عندي من الايثار لشعر أو نثر ، فأعجز عن الاتيان بأسباب التفضيل ، ويقف قلمي في العقبة . . . فكنتُ اظنُّ انَّ المسألة مسألة ضعف أداة ، وليان عود .

ولقد ابتلاني الله يومئذ بكاتب عاميّ الذّوق ، فظّ ، غليظ القلب ، وهو إلى ذلك يكتب في السنة كتاباً وكتابين وثلاثة ، ويحوم على الفصاحة ، وعلى النُّكتة ! فاذا هو أخرج كتاباً أرسل اليَّ بنسخة من كتابه ، فأقول لمن يكون إلى جانبي : تعالوا انظروا ! يرسل إليَّ بكتبه هدايا والطافاً . . . فيقال لي : هو ، والله ، ما تقوله فيه . فلو ذكرتَ لنا أسباب ما تمجُّه الأذواق من كتابة هذا الرجل . فأقول : هيهات أن استطيع التعبير عمّا احسّه من أسباب ذلك !

ثمَّ إنّي ما زلتُ أحنق من هذا العجز في نفسي عن معرفة السبب في المستطاب وفي المستكره من الكتابة ، وأنعاه عليها ، حتى عثرت في « الأغاني » على هذه الخبيئة من طُرف الجاحظ ، فسرِّي عني ، وبُدِّد ما في صدري . فقد روى أبو الفرج انهم تذاكروا يوماً في حضرة الجاحظ شعر أبي العتاهية ، إلى أن جرى ذكر أرجوزته « ذات الأمثال » ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشّباب المرح التّصابي !

روائح الجنّة في الشّبابِ . .

فقال الجاحظ للمنشد: قفْ ، ثمَّ قال : انظروا إلى قوله : « روائح الجنَّة في الشبابِ » ، فانَّ له معنىً كمعنى الطَّرب الذي لا يقدر على معرفته الا القلوبَ ، وتعجز عن ترجمته الألسنة !

وإذنْ ، فالقضيَّة تتعلَّق بالقلوب ، وهي التي تعرف المستحسن والمستهجن ، وناهيك بما عندها في ذلك من أسباب لا تقوى الألسنة في بلَّة الفصاحة على ترجمتها .

كلمة الشيخ

كنتُ أطالع في بعض الأيَّام « أنشودة الكرم » لڤرجيل ، وكم يرجع هناك عودي على بدئي ! فانَّما هي التي لا يُلزُّ بها نظير من إجادات البشر في وصف الطَّبيعة ، والتَّغنِّي بحبِّها . فلمَّا أطبقت على الكتاب ، أخذ نظري كتاب هتلر (كفاحي) ، وهو في موضعه من رفوف كتبي ، فتذكَّرت ما قاله ذات مرة الشيخ محمد الجسر ، يوم كان رئيساً لمحكمة الجنايات ، وقد جاءَه رجل متَّهم بأقبح التُّهم (من تلك التي فيها مخالفة طبيعة ، وقتل ، وتمثيل بالقتيل) ، وراح الرجل يدور بعينيه في بهرة المحكمة ، ويحدِّق إلى القضاة الثلاثة ، فقال له الشيخ : « يا هذا : أفلا تستحيي من جمال الحياة ؟ . . . . » .

قول أجدى من فعل

يوم جاء شوقي إلى لبنان ، قدمته الثانية ، توقَّف الأستاذ الريحاني اياماً عن زيارته ، والترحيب به ، في مصيفه (في بيت مري) . فقلت للريحاني : « لا يحلُّ لك أن تترك زيارة شوقي وهو بين ظهرانينا ! » . فقال : « واحدة بواحدة . فانما هو قد تخلَّف عن حضور الحفل الذي

أقيم لي في مصر ، على سفح الأهرام » . قلت : « ولكنّه أرسل في تلك الحفلة قصيدة يُقام لها ويُقعد . أفأنسيت قوله لك فيها :

اطلعْ على يَمنٍ بيمنك في غدٍ ،
وتجلَّ بعد غدٍ على بغدادِ » ؟ . . .

قال : « هذا صحيح . ولكنَّ القول شيء والفعل شيء آخر ! » . حينئذ قلت له : إنَّ « قول » شوقي ، يا حفظك الله ، أجدى من « فعله » بألف مرَّة . . .

تلاوة قرآنية

أصبحتُ ، بعد ان قضى الشَّيخ محمد رفعت أجله ، وانطوت بانطواء أيامه إجادات التَّرتيل ، هيهات أن تنشط نفسي لسماع تلاوة قرآنيَّة :

لم يطبْ لي منزل بعد « اللِّوى » ،
لا ولا مستحسَنٌ من بعد « ميّ » . . .

فقال لي أحد الأصدقآء ذات يوم : تالله تفتأ تذكر الشَّيخ محمداً ! ولسوف تسمع في منزل فلان الليلة « قارئاً » يملأ نفسك سروراً وخشوعاً .

فلمَّا غدونا في ذلك المنزل ، والحضور بين يدي « القارىء » في حلقة حاشدة ، عرفتُ صاحبنا معرفة وجه . وعهدي به في المدينة يعمل في احد المتاجر ، لم أعهده من الذين أوتوا أسرار الطرب في حناجرهم . . .

وقـد كان أوّل ما تيسّر له في الجلسـة قراءة آيات من سورة هود ، منعطفاً في التلاوة الى وصف الطُـوفان ، كأنه اليه كان يقصد ، مراسلاً بصوته مقامـات القـول ، يصاحبهـا بـين التحـذُّر والارتفـاع والبسـط والقبض ، متمهِّـلاً ، متهوِّداً، قبل ان يندفع في المفاجـأة . حتـى اذا بلغت التلاوة في خبر الفلك الى لفظتي « موج كالجبال » ، تلَّـقت أعلى براعات الصوت أعلى براعات الكلام ! اذ جمع طرفي صوته ونهض بهما من اقرب مآتي اللحن في الدرجات العالية الى ما يشبه في جلجلته عظيمة الأواذيّ ، تهضب في اصطفاق وصخب ، وتلتطم ، وتترشّش من شدَّة الوقع على كلِّ جانب . . . ذلك كلُّه ممثَّـلاً في لفظتين اثنتين ! ! !

ولما قال نوح في القصة لابنه ، وكان ابنه في معزل عنه : « يا بنيَّ اركبْ معنا ولا تكن مع الكافرين » ، اذا بالصوت قد طفق ينحدر من تلك الطبقة المهيبة الى القرار ، منسابـاً في رفـق وحنـان ورقـة ، تمثيلاً لإشفاق الابوّة ، والتلطُّـف بالنصيحة .

وما راعنا بعد ذلك المشهـد الصوتـي الهـادىء الناعـم إلاَّ وصـول التّـلاوة الى وصف الغرق في آية « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» . فـانَّ الصوت تماسك بالنغم قليلاً ، ثمَّ تقبَّـض ، ثمَّ دار مداراً هائلاً وانصبَّ عند القرار في مثل اللُّجة العميقة . . .

أما ما كان من تدبُّـر القـارىء لهـذا الموضـع المطَّـرد الإعجـاز من القصَّـة : « وقيل يا أرض ابلعـي ماءك ، ويا سماء اقلعـي ، وغيض الماء ، وقُضي الأمر ، واستوت على الجوديِّ » ، وما وُفـق له من تمثيل في النّـبر لفعلي الأمر المتلاحقين في الآية ، ومن تمثيل في الإرسال للجمـل الإخباريّـة الآخذ بعضهـا ببعض في ابلـغ واوات عرفهـا هذا اللسـان

العربيّ ، وما سهل عليه في تلاعب النغم بالخفوت والتّراخي والنّشف من مماثلة لما قرَّ بعد الحادث الجلل من سيول وأمطار وأواذيّ وأعاصير وسحائب ورعود وبروق وصياح وجلبة وهولٍ عميم ، أقول إنَّ ذلك من عجب الفنّ الذي لا يتعلّق به وصف !

« قارىءٌ » صوتُهُ طوعُ يده ، فهو يصرِّفه كيف شاء ، وتبارك الله ، يزيد في الخَلْق ما يشاء » - وفي بعض القراآت : « في الحَلْق » ، أي بالحاء غير المعجمة . . .

رأي مختبر

سألتُ الدكتور أيوب ثابت ذات مرّة ، وكان قد استعفى من رئاسة الجمهوريّة :

« - أفي الصّحيح انّك في الأيام كنت تريد للبنان حكم متسلّط ؟ » .

فأخذته الحدَّة ، وكان ، رحمه الله ، سريع البادرة ، كما يعلم كلُّ من دخل في عشرته ، وقال :

« - أنا ؟ أنا أطلب حكم ديكتاتور ؟ أستغفر الله ألف مرَّة ! » .

ثمَّ ما كان الاّ القليل في الجلسة حتى قرَّت فورة الدكتور ، فأخذني من يدي ، وقال في ما يشبه الهمس ، كأنه يريد أن يطالعني بمخبّآت صدره :

« - لا ، والله ! ما كنت ديكتاتوريّاً في عمري . فأمّا إن كان لا بدّ من أن أكونه ، فما أجدرني اليوم بذلك ، وقد خبرتُ أساليب هذه الديمقراطية في الحكم ، وعلمت ما وراء الأكمة . . . » .

الحسن والقرن

رأيتُ في سفر لي في أرض الحجاز واحدة من المهى (وهي البقرات الوحشيَّـة التي يُـشبَّه بها في حسن العيون) ، لها عينان كأنهما عينا امرأة حسناء . وفيهما معنىً ، وفيهما أشياء كالتصفُّـح ، وكالغمز ، ومسارقة النظر ، ولا شيء من البله الذي يكون في عيون الحيوانات . الاَّ انَّ لها في أمّ رأسها قرنين متطاولين مفتولين ، شديدي الصَّلابة ، لو هي ضربت بهما على الجلمد القاسي لانشقَّ فلقتين ! فقضيت العجب من قيام القرن إلى جانب الحسن، وقلت في نفسي ، أخاطب تلك المهاة الحجازيَّـة :

« ـ ولكن ، ما حاجتك أنتِ ، يا أخت المرأة الحسناء ، الى ما يهشم ويحطم ويدقُّ العنق ! . . . » .

في عالم المطالعة

ذكر لي نقولا فياض ، صاحب « أهوى البنفسج آية الزَّهر » ـ ويا حبَّـذا البنفسـج زهـراً وشعـراً . . . ـ انَّـه بينما هو ذات يوم في بعض دكاكين الكتب ، من هذه التي تحدق « بالمسرح الكبير » في بـيروت ، جاء رجل وقال لبائع الكتب :

ـ أريد ديوان شعر .

قال البائع :

ـ تريد ديوان شعـر ؟ ديوان شعـر ولا تسـمّـي صاحبـه ؟ فقـال الرَّجل :

ـ تختاره أنت لي على ذوقك !

روى لي ذلك الدكتور فيَّـاض ثمَّ قال ، وهـو يتميَّـز من الغيظ :

« أفهمت أنت ؟ يريد صاحبنا ديوان شعر يكون على ذوق بائع الكتب ! أفهمت ؟ » .

فقلت له ، وأنا أضحك ضحكاً عالياً : « نعم قد ، والله ، فهمت . وأنت ما لك تصبُّ غضبك عليَّ أنا ؟ . . . » .

هو وهي

الرّجل يحبُّ بحواسِّه ، والمرأة بقلبها . لذلك تطيل هي في العلاقة ، ويقطع هو في الغالب من أوَّل مرّة . . .

سمعتُ هذا الكلام من والدي ، قاله في بعض مجالسه وهو يضحك ، فظننتُ يومئذ ، وكنتُ لا ازال حديث السِّنّ ، انّه يقصد إلى الفكاهة . . .

برهان ساطع

نعى بعض ضعفة الكتّاب على العربيّة ، وقد رقي المنبر في حفلة عُقدت في إحدى مدارس بيروت ، انَّها ليست لغة دقائق ، وتجريد معانٍ ، وقال : كيف يكون من حالنا إن نحن شئنا أن نكتب ، مثلاً ، في العَلم الذي يقال له في الفرنسويّة : التأريخ الطَّبيعيّ ! » ، يريد « علم المواليد » . وكان الشيخ مصطفى الغلاييني ، أحد تيجان العربيّة في وقته ، حاضراً ، إلى جانبي ، يسمع ما يقوله الرَّجل ، فهمس إليَّ بقوله : « مصيبة العربيَّة إنَّما هي بأمثال هذا الدَّعيّ ! يطنطنون بمعرفتهم لعلومها ، وآدابها ، وإجادات أساطينها ، وهم ما توجَّهوا إلى التّحصيل الاّ في الجرائد ، ومجلاّت الصُّور والتّفكيه ، وتقريب التّناول . أهل بضاعة خفيفة ، ينتفون من هنا وهنا . . . » .

ولّما كان من الغد أرسل اليّ ، رحمه الله ، بهذه الرّائعة الكتابيّـة ، وهي « لابن الجوزيّ » ، صاحب « المدهش » ، في التّـلطّف بالتّـشويق والتّـخويف عند الطّـير :

« هذه الطّـير إذا انشقّ بيضها عن الفـراخ ، علـم الأب والأمّ انّ حوصلة الفرخ لا تحتمل الغذاء ، فينفخـان الـرّيح في حلقـه لتتّـسـع الحوصلة . ثمّ يعلمان انّ الحوصلة تحتاج إلى دبغ وتقوية ، فيأكلان من صاروج الحيطان ، وهو شيء فيه ملوحة كالسّبخ ، ثمّ يزقّانـه إيّـاه . فاذا اشتدّت الحوصلة رقّياه الى الحبّ ، فاذا علما انّـه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ، فاذا جاع لقط ، فاذا رأياه قد استقلّ باللقط ضرباه بالأجنحة إذا سألهما الزّقّ » .

فكان في ما لوّح به العلاّمة الغلاييني من كلام « ابـن الجـوزي » اسطع برهان من القول على الفعل !

المصارعة

الرّياضات الجسديّـة واجبة وجـوب الرّياضـات العقليّـة . ولقـد سبقنا الأجانب الى معرفة هذه الحقيقة ، وصانـوا بالعمـل بهـا صحّـة أجسامهم ، وصحّـة عقولهم !

ولكنّ المصارعة في رأيي ، (وهي معدودة في رياضات الجسم !) أقبح ما ورث زمـن المدنيّـة عن أزمنـة الـوحشيّـة . . . فانّ مناطحـة الانسان للانسان ، في ما يقال له « حفلات مصارعة » ، وهذه السّـيقان العارية ، والصّـدور الكاشفة ، وهذه البطون ، وهذه الجلود ، وهذا اللـكم ، والبطـح ، والزّحـير ، واللهـاث ، ليس هو الا بقيّـة جاءت

الناس من أوغل أدوارهم في القدم ، أيام العهد بتكافح الانسان والوحش ، وتضاربهما تلقاء الوجوه في الكهوف والأجم !

ولقد رأيتُ في بعض المجالس ، في بيروت ، عرنةً مشهوراً (والعِرنة ، بكسر أوّله : الصرِّيع ، بتشديد الرّاء ، الذي لا يُطاق جنبه في الصِّراع . فهو ما يقال له عند الفرنسويّين : شنبيون . يريدون المصارع المقدَّم في بلده ، أو في فئته) . وكان في المجلس رجال ونساء . وكان صاحبنا ، والفصل يومئذ صيف ، وهو محلوق شعر الرأس ، يتصبّب العرق من رأسه جداول جداول ! ذلك إلى حركات واشارات كأنما هو يعالج بها قرناً له ، ويعافسه ، ويتلوّى عليه ، ويضغط ضغطاً شديداً . . . فقلت لسيدة كانت إلى جانبي : انجي بنفسك ! فانّي اشمُّ له من بعيد رائحة كرائحة زريبة البقر . . .

من وصايا أستاذنا

كان أستاذنا الشيخ عبد الله البستاني ، صاحب « البستان » ، يقول لنا في مجالسه : « إذا رأيتم واحداً من علماء العربيّة قد أنكر كلاماً ، ثمّ استعمله هو في كتابة له ، فلا تأخذوا باستعماله ، بل خذوا بإنكاره ، فانّ الذُّهول لا يخلو منه انسان ! أمّا إذا كثر الذُّهول ، فأقلّوا من الاعتماد على صاحبه . . . » .

الكنز الخفيّ

في أعماق نفسي بقعة خضراء اللون ، حبيبته ، يلوح لي من بهجتها في الأحايين ما لا يقدر القلم على بيانه ! هذه تذكارات أيامي بالطفولة ، فقد كانت طفولتي تفيض بالسعادة ، والحوادث المفرحة ، والأخبار

اللذيذة . كنز في يدي أقتطع منه كلّما افتقرت نفسي في يومها إلى تفكير يكون مبعث سرور لها . . .

ألا فلينظر الآباء ما يودعون نفوس أبنائهم في الصِّغر !

المقال والمقام

سمعتُ حافظ ابراهيم يقول في حديث له ، في دمشق : لو انَّ بشّاراً قال بيته المشهور :

كان لي صاحب ، فأودى به الدَّهر ،
وفارقتُه ، عليه السلامُ . . .

في مقام تقطُّع المودّات ، لا في مقام البكاء على صديق لقي أجله ، لكان البيت أعلى وأحلى بكثير .

قطع الحاجة

جاءني بعضهم ذات يوم يسألني حاجة له ، وكان سمجاً ، ثقيل الرُّوح . وفيه بلادة تكاد لا تُذكر معها بلادة ذهن « كاتب الخراج » الذي فيه يقول بعضهم من أبيات مشهورة :

لو قيل : كم خمسٌ وخمسٌ ؟ لانتأى
يوماً وليلته يعدُّ ويحسبُ . . .

فضاق صدري عن احتمال الرَّجل ، ولم استطعْ أن امسك على ما في نفسي من الحنق .

وكان والدي ساعتئذ في غرفة الى جانب غرفتي ، يسمع شيئاً كثيراً ممّا بدر منّي عند الغضبة . فلم يلمني على ما أتيته ، بل انّه اغضى

وتغافل . فلمَّـا كان المساء ، وجاءت الساعة التي كانت ترجح العمـر كلَّـه عندي (فأنه كان ، رحمه الله ، يتخلَّـى لي فيها أنا وحدي) ، أقبل عليَّ وفي يده « محاضرات » الرَّاغب ، وقـد فتـح على بعض صفحـات الكتاب ، ووضع اصبعه فوق كلام في الصفحة ، وهو يقول : وحياتي أن تقرأ هذا . فاذا هناك ما حرفه :

« دخل رجل على مسلم بن قتيبة ، فكلَّـمه في حاجة ، ووضع نصل سيفه على إصبع مسلم ، وجعل يكلِّـمه في حاجته ، وقد أدمى النَّـصل إصبعه . فلما فرغ الرَّجل من حاجته وانصرف ، دعا مسلم بمنـديل ، فمسح الـدَّم من إصبعـه ، وغسلـه ، فقيل له : ألا نجَّـيت رجلك ، أصلحك الله ، او أمرت الرَّجل برفع سيفه عنها ؟! فقال : خشيتُ أن أقطع عنه حاجته ! » .

ثمَّ قال لي والدي : هذا ومسلم بن قتيبة غير مأجور ، وأنت مأجور (كنتُ يومئذ في أوَّل عهدي بالمحاماة) ! . . .

الذي يكره « شوقي » . . .

كنَّـا مرَّة جماعـة من كتَّـاب وشعـراء ورجـال صحافـة مع أمـير الشعراء ، شوقي ، في بعض المنازه ، في ضاحية بيروت ، وإلى جنبـه الدكتور محجوب ثابت ، من أصدقآئه الَّذين كان ينبسط إليهم كثيراً . وهو الذي فيه قال « المحجـوبيَّـات » المشهـورة ، وسـاق فيهـا ألـطف الدعابات . فتطرَّق الحديث إلى ما كان ينشره الأستاذ العقَّـاد يومئذ في نقد أمير الشعراء ، ولا يوفِّـر له فيه شيئاً . فقال الدكتور محجوب ؟

ـ هنيئاً للعقَّـاد !

قال شوقي ، وهو بادي العجب :

ـ تقول : هنيئاً له ؟؟؟

فقال محجوب :

ـ إي والله ، هنيئاً له ! فلسوف يصبح في الأيام ذا شهرة مستفيضة ، إذ يقول عنه التأريخ : هذا الذي كان يكره شوقي . . .

فسرِّي عن « أبي عليّ » ، رحمه الله ، وحلت لنا نحن مقدرة الدكتور محجوب في هذا التخلُّص . فأنه كان يخاف كثيراً كظمات شوقي في الغيظ !

هذا هو الشعر !

من الشِّعر الذي درسناه أيام الطَّلب ، وبنى أذواقنا وعقولنا ، هذان البيتان في الحنين الى الأوطان ، والبكاء على الديار ، وهما من قديم الشعر :

بلادي التي عاطيتُ مشمولة الهوى
بأرجائها ، والعيش فينان ، مخضرُّ .
ووكري الذي ربَّى جناحي ظلُّه .
فها أنا ما لي لا بلادٌ ، ولا وكرُ !

والقارىء يرى أن ليس في هذا كلّه من الخطر الاّ اللُّطف ، والإشراق ، وصفاء المعنى والأسلوب . ولا أبكار معانٍ لم ترد على خاطر انسان ، ولم يطمثها إنس ولا جان !!!

انَّ في ذلك ، على الجملة ، طيْب الشِّعر ـ وهذا هو الشِّعر . . .

وضعُ الاشياء مواضعها

رأيتُ الثَّلج في بيروت ، في بعض الأعوام (والوقت شتاءً إلى ربيع) ، وهو يتراكم أكداساً ، حتى لقد بلغ في مواضع من العقبات ، وكثبان الرَّمل ، قريباً من الذِّراع ، ويدبُّ إلى المراكب في المرسى ، يغطِّيها إلى السكَّان ، إلى « الدفة » ، ممَّا لم يكن لأحد عهد به في السَّاحل . فكأنَّ عصا ساحر أنزلت الصُّرود إلى الجروم ، أو أنَّها رفعت الجروم إلى الصُّرود ! ولقد راح الناس ، في المدينة ، لا يصدِّقون عيونهم في ما ترى من أعجوبة الثَّلج ، وطار عندهم عن معناه ، في ذلك المنقلب الفلكيّ ، قول القائل : « النَّار فاكهة الصُّرود ، والثَّلج فاكهة الجروم » .

وهكذا تحسن الأشياء في مواضعها ، لا حيثما تتزحزح عنها !

قضيَّة الأسماء

انَّ لبعض الأسماء من الوقع في قلوب العوامّ وأشباههم ، بل في قلوب العلية من الخواصّ أحياناً ، ما لا يُردّ إلى سبب مقنع . ومن هنا جاء تفطُّن بعضهم لوجوب النَّظر في اختيار الأسماء ، وقامت قضيَّة وقوع الأسماء على المسمَّيات ، حتى كادوا يخرجون فيها إلى أوضاع وقواعد ! قالوا : « سَمِّهْ تَسِمْهُ » (من وسمه ، أي : كواه ، فأثَّر فيه بعلامة) ، وقالوا : « الأسماء تنزل من السماء » ، وقالوا : « لكلّ شيء من اسمه نصيب » إلى آخر ما هناك .

كنتُ أعرف في الموسرين واحداً يتنوَّق في طعامه وشرابه ، وكان يكتب لطاهيه في أوَّل السَّنة ما يريد من الأطعمة ، في تقويم على

الأيام ، كل يوم بأكلتين ، وبثلاث ، وأيامٌ بأكثر ، فلا يحتـاج في مدار السنة إلى أن يطلب من الطّـاهي أكلةً في نوبتها !

وقد أصيب الرَّجل بأخرة ، وكانت علت به السنُّ ، بعلَّة في المعدة مُنع معها من الطعام، خلا البقـول . فاقتصر مدَّةً على أكل الهندبـاء ، والرُّجلة ، والكرنب ، والباقلاء ، وما في نحوها من أصناف البقـل ، حتى أعيا ، وتفطَّـرت حشاشته من الحمية . فقيل له : « تأكل أبا جميل صباح مساء ، وتتبرَّم ! » . قال : « أنا أأكل أبا جميل ؟ وأيّ شيء هو أبو جميل هذا ، يرحمكم الله ؟؟؟ » . فقالوا له : هو في العربية كناية عن البقل ، لأنه يزين الأدام بحضوره ، ويحسنه . فكان صاحبنا إذا جلس الى طعامه ، وجـيء بمـا طُبـخ له من البقـول ، تظاهـر بمثـل السرور والبشاشة ، وقام للصَّحفـة في يد الخـادم كما يُقـام للأجـلاّء ، وهـو يقول : « جاء أبو جميل ، أهلاً بأبي جميل ! » . ثمَّ يقـول : « تعالـوا انظروا ، فاني أأكل من مطبخ الزمخشريّ . . . » .

ما ذكر من علماء العربية الا الزَّمخشريّ ! لا لما يعهد له من إصابة المفاصل والإحاطة بالأطـراف ، فهـو خليٌّ بالٍ من ذلك ، وأنمـا لفظـة الزَّمخشريّ لها ضجَّـة في الفم . . .

مدلول الألفاظ

كنتُ في الاسكندريَّـة ذات مرَّة ، والوقت صيف ، والرُّطوبة تدفق دفقاً ، والحرارة ترتفع إلى ٣٦ بميزان سنتيغراد . وأنا من أبناء جبل لبنان الذين لا يعرفون القيظ في أرضهم الا عابر سبيل ، فهم لا يطيقون عليه صبراً طويلاً . فلما التاث مزاجي ، ولزمـت الفـراش ، جاءَنـي أحـد أصحابـي المصريين ، وهـو من أهـل الظـرف ، والاطّـلاع الكثـير ،

وقال : « لا يحلُّ لك أن تضيق ذرعاً بالصيف ، فانما هو تمام الرَّبيع ! » . يشير إلى المثل القديم (تمام الرَّبيع الصَّيف) ، وهو يُضرب في استنجاح تمام الحاجة .

ولقد فات صاحبي المصريّ انَّ الربيع في الجزيرة العربية هو زمن المطر . فاذا سُقوا وأُغيثوا ، وقد نزل الودق ، وسال كلُّ عقيق ، واخضرَّ ما كان أغبر من هضب وتلعات ، قيل : ربيع . أي انَّ ربيعهم هو الشتاء الذي عندنا .

ومن هنا ترى انَّ على القارىء أن يحترز من مدلول بعض الألفاظ ، وعلى الخصوص حين تتعلَّق بالجواء ، والأهوية ، والفصول ، وما يلحق بذلك من اختلاف الطبيعة في الأقاليم .

العثار الذي لا يُرجى !

ناظرني أحد الفتيان في مسألة ، والمجلس ممتلىء من الناس ، فتمثَّلتُ بقول شاعر « الحماسة » :

كيف يرجون عثاري بعدما

جلَّل الرأس مشيبٌ وصلعْ !

فبهت الشابّ ، وسكتَ عن الكلام .

يومئذ علمتُ أنني اصبحت في الشُّيوخ ، وانَّ عثاري بات لا يُرجى ، فبقيتُ سحابة النَّهار مغموماً ، حزين النفس ، لا ألوي على شيء . . .

الخُلق والذكاء

ممَّـا أسعدني به الحظّ في حياتي أنني عشت اياماً متطاولة في صداقة ملـوك ، وعـظماء ، ورؤسـاء حكومـات ، ورؤسـاء أديان ، وأمـراء قبائل ، وقوّاد جيوش ، ورجال سياسـة وأعمال اقتصـادية واجتماعية ، ومن في طبقتهم ، من الذين كتب لهـم التّـوفيق في مضطـرب الحياة . ولقد نظرتُ في حال هؤلاء من قريب ، فلم أجدْ انَّ سلاح الذّكاء كان أقوى لهم من سلاح الخُـلق !!

فمن ظنَّ انَّ التّوفيق في الحياة يقوم على الذّكاء، لا غير، فقد فال رأيه.

بقاء الأقوال

يوم شخصتُ من بغداد إلى ايوان كسرى ، وهو الذي يُـقال له في زماننا « طاق كسرى » ، أخذت تعاود خاطـري في الطـريق أبيات من ايوانيَّـة البحتريّ ، وعلى الخصوص الوصفيَّـة منها ، كقوله في « صورة انطاكية » :

والمنـــايا مواثلٌ وأنـــوشـــروان
يزجي الصُّفوف تحت الدِّرفسِ ،
وعـــراك الرّجـــال بـــين يـديه
في خفوت منهم، وإغماض جرسِ .
تصف العين أنهم جدّ أحياء ،
لهـــم بينهـــم اشـــارة خـــرسِ .
يغتـلي فيهـــم ارتيـابـــيَ حتى
تتقـرّاهـــمُ يدايَ بلمـــسِ . . .

فلما وقف بنا السير على « الطَّـاق » ، ورأيتُ الأثر بعد العين في هدم ونقض ، وأركان دوارس ، وزوايا وحنيٍّ عواف ، وكانـت قصيدة البحتريّ لا تزال تلتمع قوافيهـا في خاطـري ، وكأنهـا في مثـل بهجـة الجديد ، علمت انَّ الأقوال أبقى على الأيام من الأفعال !

أبناء لا آباء لهم

صاح أحد الطلبة في بيروت في وجه أستاذ جليل ، كان يعلم الأدب العربيّ في بعض المدارس ، بقوله : « شبعنا ، يا أستاذ ، من المذاهب والقواعد والأوضاع وأقوال الأساطين !! » . فقـال له الأستـاذ ، وقـد حضرته الفكاهة : « نعم ! نعم ! الآن فهمتُ ، فانكم تريدون أبناء لا آباء لهم . . . » .

مخاوف الطغاة

أُدخلتُ في « يلـدز » ، في إسطنبـول ، وهـو قصر السلطـان عبـد الحميد الثاني ، المعروف « بالسلطان الأحمر » لما لقي الناس في زمانه من تقتيل وتصليب ونفي ، غرفة فيها من فاخر السُّـرر والمناضد والوسائد والزّرابـيّ ، والطَّـنـافس المدبَّجة ، والـكراسي المرشوشـة بالذّهـب ، والثريَّـات التـي من جوهـر الزّجـاج ، والمرايا التـي هي منـه أيضاً ، (وأضف الحقّ الذي من عاج ، والمشط الذي من فيروزج ، ومداهـن الطِّيب ، ومجارد الأسنان ، وظهور الفراشي ، ومنافض الحرير ، وهذه كلها من أحجار كريمة لا أعرف أسماءَها في الجواهر) ما لا مثيل له الا في قصور سلاطين العثمانيين ! فقال لي أحد الأدلاّء :

« ـ هذه غرفة نوم السلطان . ولكنَّـه ما كان لينام فيها ليلة واحدة ، مخافة أن يُـقتل على غرَّة » .

فقلت له :

« ـ تريد أن تقـول إن عبـد الحميد كان يخـاف أن تتبـدَّل الآية في الليل ، فيعود الطَّـاغي مطغيّـاً عليه ! » .

تعريف بارع

أعجبني جدّاً هذا التَّـعريف « للمصلحة العامَّـة » ، وقد ذكره لي رياض الصلح في أحد الأيام التي رُمي فيها بالتَّـمكين لجماعة من إخوانه وأودَّائه ، وقال انَّـه وقع له في كلام لبعض كتَّـاب الانكليز ، من عصر « فيكتوريا » : ليس هذا الذي يقال له مصلحة عامَّـة الا مجموع مصالح خاصَّـة ! » .

قضيَّـة البكاء

شهدتُ مصرع حدثة ناعمة ، كأنَّـها ورقة الورد في صدر الربيع . وكان والدها واقفاً ينظر ، وهو من المشهود لهم بالوقار والسكينة ورباطة الجأش . فلما خنقته العبرة ، واستراح إلى الإفاضة ، قلت له :

« ـ ابكِ ، رحمك الله ، ابكِ ! فانَّ الطبيب لا يستطيع لك مثل هذا في الدَّواء . . . » .

ولعمرك ، انَّ البكاء رقة في القلب ، ورحمة في الجوانح . ثمَّ انَّ هذه الدُّموع هي مطافىء الحزن الكبير ، فليس على من بكى لائمة .

ولله ما أحلى ما فعل الأعرابيّ الذي لم يطاوعه البكاء في لوعة له ، فضرب بيده على عينه ، وهو يقول : « لا أبا لكِ ! جامدة ، شاخصة ، لا تجودين بالدَّمع . . . » .

أما البكاء عند المتصوِّفة فانه في باب خشية الله ، أو استغفاره الذنوب ، او التواضع له ، أو الحنين إلى مشاهدة نور وجهه ، أعلى مراتب الشعور في السريرة الانسانية . وقد كان الامام « الدَّقّاق » يقول : « اذا بكى المذنب فقد راسل الله ! » .

وأمَّا في باب بكاء العظماء ، فانِّي لا أعرف كلاماً أشهى مما رواه « ساشا غيتري » في كتابه « الألمعيَّة » ، في فصل له على اجتماعه « بكليمنصو » في أخريات أيامه . قال غيتري ما هذا معرَّبه : « سألتُهُ :

« ـ أين كنتَ سنة 1918 يوم نُقل اليك انَّ المانيا تطلب الهدنة ؟

« قال : في مكتبي ، في وزارة الحرب .
« قلت : وهل جاءك الخبر في برقيَّة ؟
« قال : في برقيَّة .
« قلت : فما الذي قلته من فورك تلك الساعة ؟
« قال : لم أقلْ شيئاً .
« قلت : وايّ شيء فعلتَ ؟
« قال ، وقد غرز عينه في عيني ، ولمع بصره لمعاناً نديّاً : لقد بكيت . . . » .

تلاقي أهل الذوق

كان من أوَّل ما حملني والدي على حفظه من الشعر القديم قول البحتريّ في قصيدته التي على اللام في المفضَّل بن اسماعيل :

ولقد تأمَّلتُ الفراق ، فلم أجدْ
يوم الفراق على امرىءٍ بطويلِ !

قصرت مسافته على متزوِّدٍ
منه لدهر صبابةٍ وعويلِ . . .

ولقد روى الدكتور محمد صبري في كتابه « أدب وتأريخ » طائفة من الشعر كان اسماعيل صبري يطرب لها ، ويردّدها في مجالسه ، فوجدتُ هذين البيتين في جملة ما كان يستحسنه من شعر البحتريّ .

وهكذا ترى انَّ اهل التَّنخُّل والذَّوق العالي في الشّعر ينظرون من نافذة واحدة !

« نظَّام » مصريّ

رأيتُ في صحف مصر مقالة لكاتب لا يكابر أحد في جلالة قلمه ، ورزانة ما في صدره ، وكونه ، كما يقول أهل السَّجع ، ما خطا إلا بعيداً عن الخطا . وفي المقالة من المجون الذي يكاد لا يستر عورته قميص شيء كثير . وهو مما لا يتفق ومكانة صاحبنا من الوقار ، وأدب الدَّرس والنَّفس ! فتذكَّرت بذلك ما قيل في النَّظَّام (وهو من عباقر الرِّجال في العصر العباسيّ) : « عُدَّت سقطات النَّظَّام من كثرة إصاباته » !

بين يدي الطبيعة

كنتُ في بعض الأيام في « بيوك أضه » ، من « جزائر الأمراء » المشهورة في بحر « مرمرة » ، والوقت ربيع ، والبحر أزرق ، والجزيرة خضراء ، حالية الهضب . والى الشمال ، ناحية الشاطىء ، بسيط أفيح قد اندفق ماء الوادي عليه أيام المدِّ ثمَّ نضب ، فكان ما هناك مهرجان للنَّبات !

فجلستُ ، ومعي ولدي ، أكرِّر النَّظر في بدائع الطبيعة بين الماء واليابسة ، وقد أمسكتُ عن الكلام ، واستولى عليَّ التأمُّل ، فقال لي ابني :

« ـ أرى انَّ شيئاً يهجس في صدرك ! » (أراد الشِّعر) .

فقلت له :

« ـ لا ، يا ولدي . بل تراني أطالع هذه القصيدة الجديدة في ديوان الطبيعة القديم ، وألقي النظر على بيت منها . . . فليس في الدنيا كلام يُستطاع التعبير به عما تجده النفس من رؤ ية الطبيعة في طلاقتها ، أو عبوسها ! » .

العلم وتأخير المقدَّم

كنتُ موعوكاً في فراشي ، من زكمة عرضت لي ، يوم رأيتُ في بعض المجلات الأوروبيَّة انَّ عالماً اميركيّاً يقول أن قد أصبح من الممكنات إيجاد نهار دائم للبشر ، لا تعرف شمسه الغياب . وذلك في أن يجعل بين الأرض والشمس طبقة من ذرات الإيدروجين تفعل فعلها في امتصاص الشعاع ورده نحو الأرض بعد الغيبوبة . فصحتُ بأعلى صوتي : نهارٌ دائم ، يا علماء الخير ـ قلتُ يومئذ كلمة غير هذه الجميلة ، الناعمة . . . ـ واقامة طبقات وذرّات في طول الأفلاك وعرضها ، قبل ان تأتوا الناس بعلاج حاسم ، يصرف عنهم التهاب المنخرين ؟ . . . » .

شهادة تركيّ

في أثناء مقامي بإسطنبول تردَّدتُ على « يلدز » ، وهو قصر السلطان

عبد الحميد ، ومن أعظم ما أثَّـر السلاطين وأثلوا في إسطنبول . فكنت في كلّ مرَّة أقصد بهـا اليه ، لا يبـرح خاطـري هذا البيت من الشعـر القديـم :

في هذه الـــدار ، في هذا المكان ، على
هذا السرير، رأيتُ الملك، فانقرضا . . .

وقد صادف أن كان يرافقنـي إلى « يلـدز » ، في إحـدى المرَّات ، صديقي الأستاذ أحمد أتش ، من كبار الأساتذة في جامعة إسطنبـول ، ومن الذين توفَّـروا على درس العربيَّـة وعلومهـا وآدابهـا . فذكرتُ له البيت (في هذه الـدَّار) ، فطـار سروراً به . ثمَّ قال : « لـكم الله ! فانكم لا تفلتون معنىً ، ولا غرضاً ! وترانا نحن ، وهذه أمّ عواصمنا بين عيوننا ، وهي تكاد تكون دار تحف ، وآثار ، وعـظمات سلاطـين ودول وأديان وفتوح ترجع إلى أشهر أدوار التأريخ ، ثمَّ لا نجد في شعر شعرائنا ، في قديم وحديث ، نظيراً يُـلزُّ بقول صاحبكم ، قائـل هذا البيت !!! » .

وهم الابن والتلميذ

كلُّ انسـان في الـدُّنيا يستـطيع أن يقـول : « مـا عرفـتُ أكرم من والدي ، ولا أعلم من أستاذي » ، ويكون بذلك صادقـاً ، لم يجىء بكذب . فانَّ هذا الذي يقوله هو ما يعتقده في ذات صدره . . .

أعرفُ في دمشق كاتباً ، من أحبّ كتَّـابها وشبابها إلى نفسي ، أبوه خبَّـاز (نعم ! أبوه صانع خبز) ، فهو حين يدير في الأحاديث ذكر أبيه يقف الماء عموداً ، كما يقول مثلنا في لبنـان ، من فرط ما يشيد باسـم

والده ، ويطيل في التّـجاهي به !

فيا أخي الأستاذ ياسين رفاعيَّـة ، يا ابن خبّـاز دمشـق : أبـوك لله درُّه ! فهو الذي من فرنه بعث إلى « مائـدة أفلاطـون » بهـذا الـرَّغيف الشهيِّ ، وأذكر النّـاس قول الشاعر القديم : « وبات على النار الندى والمحلّقُ . . . » .

فنُّ الحديث

عرفت اثنين من أشهر متفنِّـني الحديث ، وفصحـاء اللسـان ، في العصر الماضي . الأوَّل جالستُـه مرّات كثيرة ، والآخر عشتُ معه تحت سقف واحد ، وهما خليل مطران ، ووالدي . ولقد رأيتُ أعظم ما في طريقتهما في الحديث انهما يجيدان الإصغاء كما يجيدان التّـحدُّث . . .

وقد كان والدي يقول : ليس تعـريف الرَّجـل الفصيح هو قولك فيه : الكثير الكلام !

الفتوى بقطع الألسنة

كان لي صديق من ألطف النّاس خروجـاً إلى حديث ، ونـوادر . وكان يحبُّ الشعر ، ولا يطيق ما جاء منه وسطاً ، فقلـت له في بعض الأيام ، كيما أحرِّكه للفكاهة : « الشعراء اثنان ، ولا ثالث لهما : شاعر كتبت له الاجادة ، فلا فُضَّ فوه ، وآخر لم تُـكتب له ، فهو اذا نظم بيتاً واحداً من الشعر وجب أن يُـفتى بقطع لسانه ! » . فقال ، رحمه الله ، وقد تصنَّـع الجدَّ : « هذا كلام يجب أن يُـكتب بالحبر الأحمر ، في حرف كبير ، في رقاع كبيرة ، ويوزَّع هكذا مناشير وإعلانات على متخلِّـفي الذِّهن في الشعراء ، عسى أن يخافوا على السنتهم » . . .

مدُّ المعاني

كنّا نتذاكر مرّةً كلمة « بيرون » البارعة : « انَّ المرأة التي تطيل الجلوس في النّافذة هي أشبه شيء بعنقود من العنب تدلىَّ إلى الطّريق!» فقال « الأخطل الصغير» ، وكان معنا في المجلس : لو انَّ بيرون ألحق كلامه بهذه الكناية العربيّة « فهي دانية القطوف » ، لجاء المعنى أوفى . . .

أراد « بيرون » نسيباً ، وأراد الأخ الأخطل فكاهةً . وانَّ المعاني الواسعة كهذه المادّة المرنة المعروفة « بالكوتشوك » ، تمدُّ منها نحو كلّ جهة .

حظُّ الخطيب

الشرّط في الخطابة أن يتكلّم الخطيب على البديهة ، أي على غير استعداد ، لا أن يتلو عن ظهر قلب ما يكون قد هيّأه في الورق ! والا فهو كاتب قويُّ الذّاكرة ، لا خطيب قويُّ العارضة . . .

ولقد عرفتُ من الخطباء الذين يبتدهون الخطب ، ويتحدّرون فيها تحدُّر السّيل : فليكس فارس . كان ، رحمه الله ، فوق المنبر ، محض الطبع ، بين اللهجة ، بليل الرّيق ، وعلى الخصوص اذا أفاض في سياسة ، أو اجتماع ، أو عمران ، حتّى لقد قال فيه الرّصافي في إحدى غرّانه ، وما غالى ، ولا تزيّد :

تعودُ كلُّ الخطوب هيّنةً ،

إذا فزعنا منها إلى خُطَبهْ !

وقد قال لي فليكس ذات يوم ، وكان قد ارتجل في بعض الحفلات ،

في بيروت ، خطبة أقام بها وأقعد : « نحن الخطباء أقلّ حظّاً في بقاء الذّكر ، ودويِّ الصّيت ، من سائر أهل الأدب ! فإنما الخطيب قارئه هو سامعه ، لا غير ، فاذا طُوي الخطيب في قبره ، طُويت معه خطبه ، فكأن لم يكن خطيب ، ولا خُطب . . .

مؤلّف في النّحو

عرفتُ من معلّمي الصبيان ، في دمشق ، واحداً كان من التّيوس الذين لا يستطيعون أن ينطحوا رجل « ابن خروف » في علم النّحو . . . وقد راح يجادل العلامة الشيخ المغربيّ في مسألة نحويّة ، وذلك في مجلس كان لنا عند الشيخ ، في بعض أبهاء « المجمع العلميّ العربيّ » . فلما أطال الرّجل أخذه المغربيّ ، رحمه الله ، من يده ، في لطف كثير ، وقال له : « أنت في النّحو ، يا صاحبي ، رديف تركب خلف الرّاكب المسرع ، فإنك تلقي على صبيانك ما يكون مطبوعاً بين يديك في ملخّصات القواعد ! فما لك تعنّي قلبك بهموم النّحو والنّحويّين ! . . . » .

ولقد علمتُ بأخرة انّ هذا ، صاحبنا ، كان من مؤلفي الكتب التي يُعلّم بها في بعض المدارس - نعم ! من مؤلفي كتب النّحو والتّصريف . . .

نوادر سياسيين

يجد المرء من عجائب الأخلاق والطبائع واعتقاد الأمور والانفراد بالذّوق والتدفّق في هوى النفس عند كثير من رجال السياسة ما يكاد لا يصدّق وجوده في جماعة يُظنّ انّ استقامة الميزان في ذلك كلّه انما هو وقف عليهم !

ولقد عرفتُ في حياتي السَّياسيَّـة نائباً كان مضرب المثل في شجاعة القلب ، وشجاعة اللسان ، إلاَّ انه كان يخاف زوجته خوفاً كثيراً . فاذا هو جاء منزله دخله في ضعف الدَّجاجة . . .

وعرفتُ محامياً رقي إلى الوزارة مرَّتين . كان يجول جولانه وفي يده عصا غليظة ضخمة كالهراوة ، ليس بينها وبين ما كان هو عليه من دقَّـة الملاحظة ، وشفوف الحسِّ ، مناسبـة . فقلـت له ذات مرَّة في ذلك ، فكان منه أن قال في جدٍّ كثير : عصاي ؟ هذه ، والله ، بركة حياتي . قُـطعت من حرجة بجوار كنيسة مار فلان . في القرية الفلانيَّـة ، فكيف أتركها عمري ؟؟؟

وعرفتُ قاضياً اشتهر بصون نفسه من أخذ ما يُـعطى لإبطال حقّ أو إحقاق باطل . الا انَّه كان صديقـاً شديد الملازمـة لبعض الـوزراء . فيأخذ الوزير الرَّشوة لصاحبه في الخفاء ، ويتقسَّـمها وإيَّـاه في الخفاء . ولقد مات الوزير ، ومات بعده القاضي ، وهما على حسن السُّـمعة عند الناس . فدلِّيا في قبريهما على كرامة مسروقة ، ورحمة مسروقة . . .

وعرفتُ أيام الفرنسويين رجلاً وقحاً صفيقاً ، قبيح الوجه ، أبخر لا يُـطاق نفس فمه من خبث الرائحة . كان يتملَّق لهم ويتـوسَّـط بينهـم وبين جماعة من رجال السياسة ، ويسعى للواحد من هؤ لاء أو أولئك في استجلاب الآخر ، ويرشو هذا ، ويرتشي من ذاك ، ويأدب المآدب ، ويقيم المراقص ويدعو اليها السياسيِّين الكبار ، وكلّ مجرِّرة أذيالهـا في الشَّـهـوات الفاسـدة ، حتـى اجتمـع له من وراء ذلك ثروة وافـرة ، وغلظت شوكته ، ولُقِّب بالسياسيّ ، وبالسَّريّ ! ولقد ظلَّ نجمه يلتمع في فلك السِّياسة إلى أن دخل في مضاربة تجاريَّـة خسر معهـا ثروتـه .

فارتدّ عنه الناس ، وعاش لا يدري أحد بمكانه . ثمَّ مات فلم يُفتقد ، ولا اهتُمَّ له .

وعرفتُ في أيام الفرنسويين أيضاً موظَّفاً ثرثاراً ، تخرج الزُّبدة في شدقه من كثرة الكلام ! كان يعيش على موائد أهل السِّياسة ، يدير عليهم الفكاهات والأحاديث عن خصوصيَّات الناس ، وأسرار البيوت . وهو يجيد اللغة الفرنسويَّة اجادة أهلها لها ، ويكاد لا يعرف من لغة بني قومه الا الحروف . فكان يضع بالفرنسويَّة لجماعة من السياسيِّين رسائلهم وخطبهم ، ويزعمون هم انَّها من قلمهم ، ويقنع هو منهم بمصاحبتهم ، والأكل على موائدهم . قسمة ليس فيها غبن ، فانَّ أمره عند أصحاب المصالح والحاجات كان يروج بهذه العلائق التي قامت له في عالم السِّياسة .

وعرفتُ اثنين من السَّاسة الكبار ، كان الواحد منهما يمقت الآخر مقتاً شديداً ، ويقول فيه ما لم يقلْ « مالك » في الخمر ! ففي اليوم الذي قضى أحدهما أجله ، رأيت الثاني منهما متهلِّلاً تكاد تضحك سنُّه ، فلم أصدِّق عيني رأسي . . .

وعرفتُ رئيس جمهوريَّة كان به حزَّاز في المعدة ، وهو من حذّاق الأطباء ، فلم يكد يبقى من رجال السِّياسة واحد الاَّ وقد جاءه بصفة لمداواة المعدة ، يتودَّد اليه بها . وكان هو يحفل بكلِّ صفة تُحمل اليه منهم ، ويطيل في السؤال عمَّا تحويه من أسماء الأدوية ، ومن مقادير الأجزاء في التركيب ، ويسرُّ بمن يحمل اليه تلك الصِّفة سروراً عجيباً صدوره من رجل في جلالة مكانته في الرأي ، وجلالة علمه في الطبِّ . فقلت له مرَّة ، وكان بيني وبينه وداد ، ورفع كلفة : الحمد لله ! فقد

صار رجالنا في زمن رياستكم أطبّاء معدة . . . ففهم هذا الذي أقصد اليه ، الاّ انه تظاهر بكونه لم يلمح المعنى البعيد من كلامي .

وعرفتُ وزيراً كان من الشحّ وكزازة اليد لا يشبع من مأكل ، ولا يروى من مشرب ، إلاّ يوم يُدعى الى مأدبة . ذلك على ما به من شره ، وشهوة للطّعام. ولقد كنتُ ذات مرّة على مقربة منه في بعض المآدب ، فرحتُ انظر اليه من طرف خفيّ ، فلا ، والله ، ما رأيتُ أكلاً بجفاء ، ولا نهماً بشدّة ، كذلك اليوم !

هذه مشاهدات لا نقول ، ولا كلام راوٍ يعنعن في روايته . ولو اردتُ لكتبتُ منها أجلاداً . فاني رأيتُ بعيني في عالم السّياسة ، وسمعت بأذني ، شيئاً كثيراً . ولكن طائفة من ذلك تتعلّق بناس لا يبرأ ذكرهم من الملام ، ولا يتسع للعذر ، ومنهم من لقي أجله ، ومنهم من يعيش على شدائد السنّ العالية . ومن لي بقلم لا يكون في بريته جانب شفيق يتعطّف ! . . .

من أجل لفظة !

كان الجيل الماضي في الشعر العربيّ ، والنثر العربيّ ، أكثر عناية منّا بأساليب الفصاحة . كان واحدهم ربما قضى ليلته في التّفتيش عن لفظة رشيقة تؤدّي معنىً يريده ، لم تؤدّه أخت لها ، جاءته أوّل ما تمثّل المعنى في خاطره !

ولقد سمعتُ حافظ ابراهيم ، « شاعر النيل » ، وهو من هو في شدّ التّواجذ على البيان الصّبيح ، يقول في بعض مجالسه في دمشق انّه طالما استظهر طوالاً وقصاراً لسن بشيء من أجل لفظة بارعة ، أو قافية نازلة

موضعها ! وها هنا ذكر على ذلك هذه الأبيات الثلاثة ، وهي لواحد من شعراء « الحماسة » ، وقال : « أنني أحفظها عن ظهر قلب من نحو من ثلاثين سنة ، أو تزيد ، حبّاً للفظة [وندَّعي] في آخر الأبيات » :

أسميَّ : ويحكِ ! هل سمعتِ بغدرةٍ
رُفع اللّواء لنا بها في المجمعِ ؟
انَّا نعفّ ، فلا نريب حليفنا ،
ونكفُّ شحَّ نفوسنا في المطمعِ ،
ونقي بآمن مالنا أحسابنا ،
ونجرُّ في الهيجا الرِّماح ، وندَّعي ...

ولما أنشد ، رحمه الله ، هذا الشطر من البيت أخذ يميد من الطرب !

ثمَّ روى لنا خليل مطران ، وكان إلى جانب صاحبه في المجلس ، قصَّة « اعلولى » في قصيدة حافظ « بنات الشعر بالنَّفحات جودي » ، وهي التي بها استقبل في الأيام « السير غورست » ، المعتمد الانكليزيّ في مصر ، قال :

كنَّا يومئذ في « سبلنددبار » ، فأنشدنا حافظ قصيدته ، عادته في عرض شعره على إخوانه قبل أن يخرجه في الصُّحف ، فلما انتهى في القصيدة إلى قوله :

إذا ارتفع الصِّياح ، فلا تلمْنا ،
فانَّ الناس في جهدٍ جهيدِ !

قلتُ له : أنا ما احببتُ « ارتفع » هذه ، فحبَّذا لو يكون لك ما هو آنس منها . فقال : وأنا ، والله ، ما أحببتها ، ولا تزال عيني إلى

غيرها . ثمَّ مضت بضعة أيام على مجلسنا في « سبلنددبار » ، فجرى في خاطري : « إذا اعلولى الصّياح » ، وصادفت في بعض الطريق محمد إمام العبد الشاعر ، ومن أشهر ظرفاء مصر في وقته ، فقلتُ له : اذا رأيت حافظاً فقل له عنّي انّني وجدت اللفظة . ولم أذكر اللفظة لإمام . فلما مضى النهار ، وكاد ليله ينتصف ، الاّ قليلاً ، جاءني حافظ يقرع عليَّ ، وقد تعب وأعيا ، وإلى جانبه إمام ، فصاح بي بصوت متهدِّج : ادركني ، فقد خربتَ بيتي ! إذ انَّ هذا الأسود الماكر شرب الليلة ، وأكل ، وسمر ، على حسابي ، وبقي قائماً على رأسي إلى الآن . وهو ما زال يداورني ، ولا يذكر لي اسم الشاعر الذي وجد اللفظة المنشودة ، حتّى أتمَّ حيلته . . .

قال حافظ : إي ، والله ، هكذا حصل . ولقد قامت عليَّ « اعلولى » بجنيه ، وكان الجنيه ، يومئذ ، لا يُوصل اليه الاّ بسلَّم !

الشكّ

كان والدي يكره المتشكّكين من العلماء ، وكان يقول : « الشكّ جهلُ العالم ! » . وقد قال مرّة لكاتب لا يطمئنُّ الى شيء بثقة : « ما أجدرك ، من فرط ما تشكُّ ، أن تشكَّ في الشكّ . . . » .

الخافي والبادي

يظهر انَّ الذين يضحكون الناس في المسارح ، والسينما ، والكتب ، أو في المجالس الخاصَّة ، ويحملون اليهم مطربات الأحاديث ، ومرقصات الفكاهة ، هم الذين يعيشون في مخادع بيوتهم على الوحشة ، والجزع ، ومرارة الحياة .

جاءني ذات مرّة واحد من هؤلاء في قصّة له ، وهو يبكي ، ويردّد شهقات عالية ، فكدت لا أصدّق عينيّ . . .

ولقد سمعتُ جورج أبيض ، كبير الممثلين في الحقبة الأخيرة ، يقول لزوجته ، خلف السّتار ، في المسرح ، وذلك قبل بدء التّمثيل :

« ـ اضحكي ، اضحكي ، كيما تنبسط أسارير وجهي ! فانّ الفصل الأول يقتضي اظهار السّرور ، والانشراح . . . » .

وفي كلام لبعض كتّاب الأميركيّين على انّ الإضحاك فنّ والضحك طبع ، ما هذا معناه : « شارلي شبلين» هو فوق خشبات المسرح سيّد من أضحك ، ومن أبكى ، من الضّحك . . . الاّ انّه لا يعرف في بيته كيف يشقّ فمه عن الابتسامة اليسيرة !

كلام في الحرّية .

قال لي العلاّمة فارس الخوري في حديث له : « ما معنى الحرّية حين لا تستطيع معها أن تقول الذي تعتقده ، بل تقول الذي تستطيع أن تقوله ! » .

وهو كلام سنيّ ، ما قيل لي مرّة : « مراقبة جرائد » ، و « قوانين مطبوعات » ، الاّ تذكّرت كم تحت هذا الكلام من الجزالة .

تسميات الطُرق

من أحلى ما طرق مسمعي من لقطات الأحاديث قول تلميذة بيروتيّة ، في ربيع العمر ، لصاحبة لها ، هي أيضاً في عمرها ، وقد كنت محاذياً لهاتين في « شارع أحمد شوقي » ، في بيروت : « ما عبرتُ

مرَّةً هذا الشَّارع الأ تذكَّرت قول شوقي في مرثيته لبعض القادة المغاوير ـ تعني أدهم باشا من كبار القادة العثمانيِّين في الحروب البلقانيَّة ـ :

وكان إذا خاض الأسنَّة في الوغى ،

تنحَّت إلى أن يعبر الفارسُ الكمي . . . »

يومئذٍ رأيتُ أنَّ تسميات الطُّرق لها من الأثر في قلوب السَّابلة شيء كثير ، ثمَّ تذكَّرت قول الشاعر الحجازيّ ، وقد أشار من طرف خفيّ إلى بعض ما هنا :

من كان يسأل عنَّا : أين منزلنا ؟

« فالأقحوانة » منَّا منزلٌ قمنُ !

يغمز في قوله « الأقحوانة » إلى المعنيين : البلد والزَّهرة .

هذا بطرك !

في أثناء الأحاديث التي جرت لي من عامين ، في إسطنبول ، مع خالدة أديب ، أديبة التُّرك في هذا العصر ، ذكرتُ قول خليل مطران في وصف الأرض من الطَّائرة :

وترى عوالم ليس منها باقياً

إلاَّ اختلاط أشعَّة ودخان . . .

فطربت الأديبة التركيَّة للبيت طرباً شديداً ، ثمَّ قالت :

« ـ تقول مطران ! قلْ انَّه بطرك . . . » .

وعلى ذكر مطران هنا ، طرق خاطري قوله لي ، وذلك في حديث

جرى بيننا على التأريخ ، وكتّابه ، وكتابته : « التّاريخ حياة الذُكر!».
وهو كلام ؛ كما يرى القارىء ، من أساليب البيان التي تتقطّع
دونها الأعناق .

نصيحة

وجدتُ في مجلّة « الإذاعة » المصريّة فصلاً عنّي ضافياً ، كتبه
الأستاذ عبد القادر حميدة . وقد جاء في ذلك الفصل ما هذا حرفه :
« وهو ـ يريد كاتب هذه السُّطور ـ زعيم طائفة دينيّة في لبنان » .

نعم ، كذا ! أي انّني أنا زعيم طائفة دينيّة . . .

ونشرت جريدة « النّهار » فصلاً موضوعاً على لساني ، وهو من قلم
الأستاذ عصمت ملاّ ، قال فيه (لا فضّ فوه . . . وإن هو قد جعل
ضمير المتكلّم في كلامه عائداً إليّ !) : « انّ دراستي الدينيّة لمختلف
الأديان لم تؤثّر على تكويني رأياً شخصيّاً علمانيّاً برجال الدِّين ، لا
داعي لذكره علناً حتى لا يغضبوا منّي » .

من زعامة دينيّة في « الإذاعة » المصريّة الى عداء لرجال الدّين في
« النّهار » . . . يا خفّة قدمي في هذه النّقلة !!!

كنتُ أعجب قبل اليوم لجماعة من أمثال ابن خلدون وابن سينا
وأحمد فارس الشّدياق ومحمد عبده وأحمد شوقي ورشيد رضا في العرب ،
وسبنسر وروسّو وداروين وكارليل في الإفرنج ، كيف انّهم يكتبون
سيرهم بأقلامهم. ولم يكن يقنعني ما يتّصل بهذا المعنى من قول الشاعر:

ومـاذا يضرُّ المرء في مدح نفسه ،
إذا لم يكن في قوله بكذوبِ !

ولا كان أيضاً يقنعني قول بعضهم انَّ المرء مطالب أن يثبت الحقائق عن نفسه ، وأن يحتاط لذلك قبل انصرافه من هذه الدّنيا ، حتى لا يُنسب اليه بعد الرَّحيل ، إذ يكون الشّاهد بعيداً والثّبت ضائعاً ، ما لم يقله ، وما لم يفعله .

هذا ما كان لي من الرَّأي قبل اليوم في ترجمة المرء لنفسه . أمّا بعد هذه « الزَّعامة الدينيَّة » التي جاءتني من مصر ، وهذه « العداوة لرجال الدِّين » التي جاءتني من لبنان ، فقد صار عندي من النّصيحة للَّذِين بلغوا من السنِّ ما يشتدُّ معه التذكُّر للآخرة أن يبادروا إلى كتابة سيرهم بأقلامهم .

إنَّها ، لعمرك ، نصيحة غاية في السَّداد ، وجودة الرأي ، ولا ينبئك مثل هذا الخبير الذي ذاق اللوعة بين « الإذاعة » المصريَّة و « النَّهار » اللبنانيَّة . . .

تأثير النكتة البارعة

شهدتُ في « مربع لبنان » ، في « المعاملتين » ، تمثيليَّة بول كلوديل (الخبز القاسي) تُمَثّل بلغتها ، ويقوم بتمثيلها جماعة من مشاهير المسرح في فرنسة . فكنتُ مدَّة ذلك لا يفارق خاطري كلمة لجيلبير سسبرون ، الكاتب الفرنسويّ النقَّاد ، وقد غمز بها كلوديل ، وهو ، كما يعلم القارىء ، كاتب يهبُّ نسيمه من سماء الدِّين ، أو هو الكاتب الذي يعيش في جيرة الأناجيل الأربعة ، كما في كلام عليه لليون دوده ، أبي الكتابة السَّخريَّة ، في زمان الفرنسويِّين هذا .

أما كلمة سسبرون فهي قوله : « إنَّ جبل سيناء يتمخَّض في بعض

الأحيان فيلد فأرة . . . » ، يلمع بالمثل المعروف عند الفرنسويين ، وعندنا (تمخّض الجبل ، فولدفأرة) ، للقول عن العظيم يجيء بالشيء حقيراً . وفي كلمته من ملاحة النُّكتة ، وإجادة الغمز ، ما لا يحتاج إلى الدّلالة عليه .

ولقد أعجزني في تلك الليلة التّخلُّص مما كان يلوح في فكري من براعة هذه الكلمة ، حتى انها كادت تقف بيني وبين إجادات كلوديل في تمثيليّته ، إلاّ قليلاً !

هذا تأثير النُّكتة البارعة في النّفس ، وهيهات أن يُستطاع التّفلُّت منه في سهولة واستراحة . ومن كان يظنّ أنّ النُّكتة التي يُرمى بها من شاهق تؤثّر في النّفس انبساطاً ، لا غير ، فقد ظنّ خطأً كثيراً !

مع شوقي

ما عرفتُ شاعراً في المعاصرين يفري فريَّ شوقي في شدّة العارضة !

كنتُ معه في بعض الفنادق في « بيت مري » ، من مصايف لبنان ، في بلاد الجبل ، يوم نظم قصيدته اللبنانيّة « السّحر من سود العيون » ، والمجلس ممتلئٌ بالنّاس . فكان يخرج بين الحين والحين إلى قرنة من حديقة الفندق ، ويملي عليَّ البيتين ، والثلاثة ، والأربعة ، ممّا يكون قد سنح في خاطره للقصيدة ، وأنا أعلّق ذلك على ورقة ، واحتفظ له بها . اندفاع السّيل ، لولا ما يعترض في الفترات من ربط معنىً ، أو تبديل لفظة !

ومن ألطف ما جرى يومئذ ، وكانت القصيدة قد تمّت ، وجاء فيها هذا البيت الفرد :

لبنـانُ ، والخُلـدُ : اختــراع الله ، لم

يوســـمْ بأزينَ منها ملكوتُهُ . . . .

أنّا خرجنا في العشيَّـة إلى بعض المنازه في الضّـاحية ، نسير الهوينى بين البيوت والشجر ، ومعنا الدكتور محجوب ثابت ، وعبد الوهّاب ، كبير المغنّـين . فبينما نحن في الطّـريق التفت شوقي اليَّ ، وكأنّـه تذكّر شيئاً قد أُنسيه ، ثمَّ قال : « نعم ! أنتم اللبنانيين أخذتم حصّـتكم هذه المرَّة وافرةً ، كافية . . . » ، وذكر البيت (لبنان والخُـلد اختراع الله) . فقلت له : « يا عمّ - كنتُ أخاطبه بالعمويّـة لما كان بينه وبين والدي ، رحمهما الله ، من متانـة الـوداد - حصّـتنـا في الميميّـة أوفـر ممـا هـي في التّائيَّـة ! » . وهنا ذكرتُ له من شوقيّـة على الميم قديمة ، هذه الأبيات الثلاثة التي حقُّـها في لبنان أن تُـكتب في الأحداق ، لا في الأوراق ، كما يقال بلغة أهل السَّجع ! وكان « الشّـاعر البـدويّ » ، داود عمّـون ، أملاني إيّـاها ، وقد بقيت في ذاكرته من أيّـام إقامته بمصر ، وإذا أنشدها في مجالسه ، أخذته هزّة الـطَّـرب لحسنهـا ، ولاختصاصهـا اللبنـانيين بالإطراء الجزل ، والأبيات :

لبنـانُ : مجـدك في المشـارق أوّلٌ ،

والأرض رابيـةٌ ، وأنـت سنـامُ !

وبنـوك ألطف من نسيمـك ظلُّهـم ،

وأشـمُّ من هضباتـك الأحلامُ .

أخرجتـهـم للعـالمين جحاجحـاً ،

عربـاً ، وأبنـاء الـكرام كرامُ . . .

ثمَّ قلتُ : « إنَّ في القديمة ثناء علينا ، وفي هذه الجديدة ثنـاءً على

أرضنا ، وشتّان بين مدح أرض ، ومدح من عليها !!! » . فقال لرفيقينا ، وقد طلع بغضبة مصطنعة : « أرأيتما ؟ هؤلاءُ اللبنانيُّون لا يرضيهم شيء ، ولا يكفيهم شيء ! فلا والله لا تُنشر القصيدة وفيها بيت [لبنانُ والخلد اختراع الله] ، وهو غاية في الإطناب في محاسن البلدان ، بل سوف أطرحه منها نكايةً في حضرته . . . » ، وأشار اليَّ . وانّما قال « حضرته » من قبيل الدُّعابة . فقال له عبد الوهّاب : « إيّاك أن تفعل ، والاّ أصبح في يده قصيدتان : القصيدة ، والبيت الذي هو قصيدة وحده ! » .

ولما عاد الحديث إلى الجدّ ، وعلم أمير الشُّعراء انَّ عمُّون هو الذي أكتبني أبيات الميميَّة ، سرّه ذلك كثيراً ، وقال : « كان عمُّون يُحبُّ [حافظاً] لمصاحبته له في قيامه وقعوده ، إلاّ انّه كان في أقصى ضميره يؤثر شعري على شعر صاحبه . وقد ذكر لي إخوانه هذا الإيثار غير مرّة » .

الوردة الآدميَّة . . .

تقولون : «المرأة زهرة من الورد». وزهرة الورد لها أكمام وأرج ، ولها أيضاً أشواك حادّة . فما لكم ، جماعة الرِّجال ، تقيمون الدنيا وتقعدونها كلّما بدر من المرأة ما يخز ، ويغمز الجلد ؟!

هذا كلام قالته لي ماري عجمي في بعض مجالسنا عندها ، أيام كانت تأتي بيروت ، في بعض المواسم . وقد حلا لي كثيراً خروجه يومئذ بين الجدّ والفكاهة من فم تلك الكاتبة الكبيرة .

أشياء صحافيَّة

أمر الدِّعاية في الجرائد كأمر الدّلاّل في السُّوق، لايتمشّى بغير الكذب!

أمّـا استخراج المال من أيدي النّاس بغرم ، أو بوجه آخر ، وهو ما يقول له الفرنسويّـون : « شنتاج » ، ونقول له في العربيّـة : الاعتصار (من اعتصر العنب ، أو الثّوب ونحوهما ، بمعنى : عَصرَه) ، فذلك بابه في فساد الأقلام ، وخسّـتها ، غير باب الدّعاية .

ومن ألذّ ما وقع من لطائف الاعتصار انَّ بعض متخلّـفي الكتّـاب ، ولكنّـه كان بذيء القلم ، فاحشاً ، يلذع في الأعراض والحرمات ، راح ينشر بضاعته في حقّ موسى نمّور ، يوم ترك نمـور الـوزارة والنّيابـة في المجلس الى الصحافـة . فكان ذلك الكاتـب يطلـع كلّ يوم بمقالـة ضـافيـة ، لا يوفّـر له فيهـا شيئاً ! واتّـفـق أن لقـي نمـور صاحبـه في الطّـريق ، فأخذه من يده ، وصاح بما هذا معناه صياحاً عالياً : « تعتصر منّـي فلوساً ، تريد مني فلوساً ! آأنا ، ياشاطر ، يكون عندي فلـوس وأجيءُ أعمل جرنلجي ؟ . . . » (كنّـا يومئذ إلى قريب من عهد التّـرك ولغتهم في لبنان) . فاستظرف الرّجل هذا الكلام من المرحوم نمّور ، وكفّ من ذلك اليوم عن بسط قلمه فيه .

العجلة في غرف الحبر

كنـتُ ذات مرّة في جريدة « الأحـرار » ، وكان صاحـب « أفاعـي الفردوس » يعمل محرّراً فيها . يكتب فصولاً يوميّـة بين قصّـة ، وخبر سياسيّ ، وتعليق على برقية ، أو مقالـة ، ممّـا يضـطـرُّ لكتابتـه على عجلة ، اضطّـرار كلّ كاتب للعجلة في الجرائد . فسألني المرحوم الياس رأيي في قصيدة له ، كانت قد نشرتها إحدى المجلات يومئذ ، فقلت : لقد علمنا « بوالو » ما ينبغي للشعر ، وان هو قد غلا في ذلك ، فما لك تسألني ؟ أردتُ ما هذا معنـاه من كلام مشهـور « لبوالـو » في « الفـنّ

الشّعريّ » : في هذه الصّناعة اجعل يدك تمرُّ عشرين مرّة . . . وملّس ، ونعِّم . ثمّ ملّس ، ونعِّم . وقلت له : هيهات أن يضعف النَّفس الشّعري بمعاودة النَّظر ، ويصير الشّعر بذلك إلى التَّكلُّف ، وانَّ ما يجيء في النَّزلة الأولى ليس وحياً يوحى !!!
فضحك ، رحمه الله ، وأخذ بقلم كان على المنضدة ، وقال : هذا الذي يُكتب به كلّ يوم ، قاتله الله ! فانّه يعوِّد العجلة في غرف الحبر . . .

ثمّ مضت أيام على ذلك ، وطالعت في إحدى الجرائد قصيدة له ، هي من الشعر المعجب ، من الذي يحمل أثر الرَّويَّة الثّاقبة . فلما لقيته في الطَّريق ، قلت له : اليوم يقبِّلك « بوالو » بين عينيك ، فانّك لم تكتب هذه القصيدة بالقلم الذي أريتنيه ذلك اليوم !

وههنا لا بدّ من القول انَّ المطبوعين على الشعر هم الذين يفهمون معنى معاودة النَّظر ، طلباً لجمال القول في أبعد غاياته . فانَّ الشاعر المطبوع يكون حبُّ الجمال في غريزته . أمَّا متخلِّفو الطَّبع فهم لا يفهمون معاودة نظر ، ولا طلب جمال ، ولا غايات بعيدة . إنّهم ليسوا في هذا الوارد . . .

هذا ، ورحم الله أبا زيد ، فقد رُوي ، على ما في نقل للبلويّ ، انّه قال : « لا يبيِّض الكتاب حتّى يسوِّد » !

من المناقشات العالية

في بعض مناقشات مجلس النوّاب ، قال الشّيخ محمد الجسر ، يداعب الشّيخ يوسف الخازن ، وكان الشيخ الجسر يومئذ على رئاسة المجلس ، وكان الشّيخ الخازنيُّ في النُّواب ، وهو آية في براعة الفكاهة ، وحضور الذِّهن :

ـ الشّيخ يوسف يشتهي أن تقال له الحقيقة ، ولكنّه لا يشتهي أن يقولها هو !

فقال الشّيخ يوسف :

ـ نعم ! انّني لا اشتهي أن أقولها . وعذري في ذلك كوني لا أتيقّن انّها هي الحقيقة . . .

وفي كلمة الشّيخ الجسر ، وكلمة الشّيخ يوسف ، من المعاريض البارعة ، ومن حلاوة الفكاهة ، مع حفظ مقام المخاطَب ، ما لا يخفي على القارىء . وهو أسلوب في المناقشة رفيع الدّرجة ، لا يصل إليه الاّ من كان في طول هذين الشّيخين في براعات المناقشة . . .

صدقَ أستاذي

قال لي أستاذي في الرّسم اليدويّ ، توفيق بك طارق ، الرّسّام التّركيُّ الأشهر ، وقد رآني ذات مرّة أهمُّ بنقل لوح ربيعيٍّ « لمونه » ، أعجبني فيه وقوع الأنوار على بهجات الخضرة في أطراف الشّجر ـ وهي ، هي في ذلك اللوح « ضربة الأستاذ » كما يقال في لغة أهل الرّسم ، و « بيت القصيد » كما يقال في لغة الشّعراء :

« ـ لا تفعل ! فانك ، ولا ريب ، تستطيع أن تنقل شعاعاً ، وخضرة ، ومباهج شجر ، ولكن أين الرّوح ؟ أين الميسم الخاصّ ؟ أين كلود مونيه ؟ . . . إنَّ نقل لوح من لوح أشبه شيء بمعارضة قصيدة بقصيدة ، أي متابعة ذوق بتكلّف مثله ، ومتابعة هوى نفس بإظهار ما ليس في نفس المعارض » .

نصيحة تقطر من جوانبها فهماً للرّسم ، وللشّعر أيضاً . . .

الباب الواسع

أعرفُ واحداً من إخواني كان يحبّ تفاطير النّبات ، وقد تصدّعت بها الأرض في بعض الوهاد ، في الضّاحية ، بعد أيام الربيع ، وأخرجتها في خضرة ضعيفة ، باسرة . فذكرتُ له ذات يوم عجبي من ذلك ، فقال :

ـ هاتِ ، يا رعاك الله ، بواكيره ، أنزل لكَ عن تفاطيره . . .

هذا باب من أبواب القناعة ، لا من أبواب الذّوق . ولله كم يدخل من أحوال النّاس بالعيش في هذا الباب الواسع !

طبول الجماهير

أخطب الخطباء في الجماهير ، ومجامع السُّوقة والعوامّ ، اثنان : الطّبل والخطيب الأجوف ! وهيهات أن يكون لأصحاب الرّزانة والرّأي الجزل عند الجماهير ما لهذين الأجوفين . فمن أين لهؤلاء بالصّدر الفارغ ، والصّوت الذي يرجّ ، ويقرع الأسماع ! ،

ذكرت لي الآنسة مي مرّةً بعض خطباء المصريّين ، من الذين طارت لهم في هزّ أعواد المنابر شهرة بعيدة ، فقالت :«خطيب جماهير. . . .». فكأنّها قالت : رحمها الله : انّه تفه الكلام ، مهذار ، ليس وراء ما يقوله محصول ، وإنما جلُّ بضاعته حنجرة صلبة . . .

عداوة المقصّرين للسابقين

أطال بعض متخلّفي الكتّاب لسانه في الأيام على كاتب كبير من اخواننا في بيروت ، فقال لي ذلك الكاتب الكبير :

ـ يا عجباً ! يحقد هذا الرجل عليَّ هذا الحقد كلّه في حين أنني لم أبحْ له برأيي في كتابته . . .

وقد فات ذلك الأخ الكاتب الكبير يومئذ انَّ عجز المقصِّرين عن مجاراة السَّابقين يحرِّك بغضة صدورهم لهؤلاء ، وحقدهم عليهم .

« وما راء كمن سمعا »

حدَّثني الأستاذ تقيّ الدين الصلح في مجلس كان لنا على التأريخ وكتَّابه ، وتقديم رواية العيان في الغالب الأكثريّ على رواية السَّماع ، انَّه سمع « مرسيه » من مستشرقي الفرنسويِّين ، يقول : إنَّما بلغ ابن خلدون هذه المبالغ العالية في باب التاريخ لكونه لا يقول في روايته : « قرأتُ » ، بل هو يقول : « رأيتُ » و« سمعتُ » . . .

وقد أذكرني ما نقله الأستاذ الصلح عن لسان هذا المستشرق الفرنسويّ كلاماً للأمير شكيب في تعليقاته على تأريخ ابن خلدون (كتاب العبر) ، جاء فيه ما محصَّله : قد يؤخذ علينا في هذا الكتاب كوننا تكلَّمنا عن نفسنا في بعض وقائع شهدناها بأعيننا . وانَّما القصد بذلك توثيق الوقائع التي نرويها بذكر ما شهدناه منها عياناً . إذ هناك فرق كبير بين السَّماع والعيان .

ويرى القارىء انَّ كلام « مرسيه » وكلام الأمير شكيب يجيئان في معنى توثيق الرِّوايات من واد واحد . ومن هذا الوادي يجيء أيضاً قول الشاعر القديم : « وما راء كمن سمعا » .

بقي أن يستطيع كاتب التأريخ القول كلَّ مرَّة في روايته « رأيتُ وسمعتُ » !

أمّا التّصديق لما يقول انّه شهده بعينه وسمعه بأذنه ، وأمّا ما يوجب عليه من صدق اللسان ، ودقّة المراقبة للأحداث والمصاير ، فذلك مسألة حبل الكلام فيها طويل .

« عدوّ الرجّالة نومر و 2 »

كان المرحوم المازني إذا طايب ومازح من ألطف خلق الله . عرّفته يوم كان عندنا في لبنان ، في صيف بعضِ الأعوام ، بالأستاذ جرجي باز ، صاحب « الحسناء » ، وكان باز يلقّب « بنصير المرأة » ، فقال لي المازني بلهجته المصريّة ، وباز يسمع ، ما هذا حرفه : « جرجي باز عدوّ الرِّجّالة نومرو 2 ؟؟؟ » .

ثمّ قال لفوره : « نعم ! نعم ! هو نومرو 2 ، فانَّ المرأة في ذلك هي نومرو 1 . . . » . أراد انَّ « نصير المرأة » هو العدوّ الثاني للرَّجل بعد المرأة ! فاستغرقتُ وباز ، وكلّ من حضر ، في الضّحك .

ولَمّا بلغت كلمة المازني الأميرة نجلا أبي اللمع ، صاحبة « الفجر » ، وكانت هي راية الحركة النسويّة يومئذ ، قالت لمن كان شاهداً مجلسها : « أمّا نحن النساء فنقول للأستاذ المازني انَّ الرَّجل هو حبيب جنسنا ! واذا رابه الشكّ في هذا الكلام ، فليشاورْ فيه أمّه وأخته وبنته وحبيبة نفسه . . . » .

وهي كلمة فيها من اللطف النسويّ بقدر ما في كلمة المازني من فكاهة ، وحلاوة .

في النقد أيضاً

يوم قلتُ في فصول لي عن النّقد في الأدب انَّ الجرأة ليست من

لزومه ، وأنّـه على الجملة تدليل على ذوق للنّـاقد لا علاقـة له بأذواق الآخرين ، كتب خليل مردم بك ، رحمه الله ، في « الميزان » يقـول : هذا خير فكٍّ للمشكلة !

عادة !

كتبتُ إلى واحد من اخواني ، وقد عرض عليَّ المدد في عسرة ماليَّـة حصلت لي ، وألحَّ في قبوله :

« شكراً لك ، ولكنّـني قد عوّدتُ نفسي أن لا أكون في حاجة إلى ما أنا في حاجة إليه ! فلا تظنّـها تجبُّـراً عليك » . . .

في التربية

التّـربية عندنا تقوم على العنف بالارادة ، وهي في أوروبة وأميركة تقوم على التلطُّف بسؤالها . ولذلك أخفقنا نحن في هذا الباب ، وبلغوا هم الغاية !

ولقـد روى لي الأمـير شكيب أنّـه يوم كان طالبـاً في مدرسـة « الحكمة » ، سمع مؤسِّسها المطران الدّبس يقول لبعض الأساتذة من القسوس : أقلّ في الصُّـفوف من استعمال الأمر من « فَعَل » ، وأكثرْ من استعمال « لو » التي للتّمنّي . . .

ذكر لي الأمير شكيب هذا الكلام وهو يضحك ، ثمَّ قال : كان هذا القسيِّـس ، رحمه الله ، على تضايق صدر ، وتسرُّع كثير ، وكان يرى الدُّنيا صرفاً ونحواً ، فجاءه العلاَّمة الدِّبس من خير الطُّـرق !

زاد الدُّنيا وزاد المعاد

كان من أصحابي في المشايخ ، في دمشق ، رجل يتّقي الله ، ويتواضع له ، ويصون نفسه . ثمّ انّه يكدّ في تحصيل المال ، ويشدّد في التحفّظ عليه ، ويقول : هذا زاد الدُّنيا ، وهذا زاد المعاد ! فكاشفتُ بعجبي من الرَّجل رضا الشّربجي ، من انبه شباب سورية ، أيام « الكتلة الوطنيَّة » ، فقال : صاحبك نصفه في الجنّة ، والنّصف الآخر في النّار ، إن شاء الله . . . » .

لم يقتنع رضا ، رحمه الله ، بقاعدة زاد الدُّنيا وزاد المعاد !

الدَّليل بالفعل

الدَّليل بالفعل أقوى من الدَّليل بالقول . فانّ فعل الأسد ، مثلاً ، أفصح بكثير من قولك : انّه الأسد . . . وهو ما أورده بعضهم في الشّعر ، وجاء به في كلام سنيّ ، قال :

وفعال الضّرغام أوقع في النفس ،
من القول انّه الضّرغامُ . . .

ولقد تسنّى لي في بلاد الخليج العربيّ أن أرى « أبا فراس » من قرب ، وهو خلف الحديد . فلمّا جال جولته ، وقام الزّئير ، نزلت من عيني قصيدة بشر (أفاطم لو شهدت) !

موت الأصدقاء

من أجود ما قرأتُ في العربيَّة على موت الأصدقاء قول أبي حامد السِّجستانيّ : « إذا مات لي صديق ، سقط منّي عضو !! » .

رحمك الله ، أبا حامد ، رحمك الله ! فانَّ بضعة اللحم التي في الجانب الأيسر من ضلوعك اسمها : القلب . . .

ولقد كنتُ وماري عجمي نتذاكر ذات مرَّة في كلمة السِّجستانيّ ، ونقلِّب ما تحتها من إجادة ، ورقّة ، وعطف ، فساقنا الكلام إلى قول بعض القدماء يذكر اخوانه وأترابه الذين فارقوا الدُّنيا :

أُولئك اخوان الحياة رُزئتهم ،
وما الكفُّ إلاّ اصبعٌ ثمَّ اصبعُ .

فقالت ماري : « لا ، يا فلان ! أين كفّ صاحبنا هذا وأصابعه ، في حلاوة المعنى ، من العضو الذي يسقط من أبي حامد . . . » .

يومئذ رأيت ، أيضاً ، كيف يقصُر الشعر في بعض مقامات القول عن النثر .

ذكرى العقّاد

يوم ذهبتُ إلى مصر ، مندوباً للبنان في عرس الملك فاروق ، كان أوَّل من تلقّاني من أدباء المصريِّين بتحيَّة القادم أخي وحبيبي ونور عيني الأستاذ المازني ، رحمه الله ، ومعه الأستاذ العقّاد ، الذي لم أكن أعرفه يومئذ إلاَّ من المطالعة .

وكان المازني وصاحبه يعملان معاً في جريدة « البلاغ » المشهورة . كرسُّي الأوَّل لصق كُرسِّي الثَّاني في الغرفة الواحدة . دعْ انَّ مكانيهما كانا ، أيضاً ، متآخيين في جلالة الأدب ، وبعد الصِّيت ، على جنبات الشَّرق !

ولقد كان لنا ، بعد ذلك ، جلسات في تلك الغرفة ، من « ادارة البلاغ » ، رُفعت فيها الكلفة ، ودارت لطائف يرقرقها المازني في خفّة من الرّوح لا أعرف لها نظيراً إلاّ عند النّسيم . . . أخاطبه أنا ، مثلاً ، بقولي « يا أخي » ، أو « بيا ابراهيم » ، وأقول في مخاطبة العقّاد « يا أستاذ » ، ويرى هو لذلك في نفس صاحبه شيئاً كالغيظ ، أو كالعتب ، كأنّما يريد العقّاد أن لا أتّجه بصداقتي كلّها نحو المازني ، فيقول له المازني ، وهو يتكلّف الجدّ في الهزل : « وكيف تريد غير ذلك ! كيف يقدر أمين أن يقتحم الجبال الممتنعة ؟ [يشير إلى عبوس كان بالعقّاد ، وإلى مديد قامته] كيف يترك هذا السّهل الدّاني ؟ [يريد بذلك نفسه ، وقد كان بين الرّبعة والقصير ، وبه عرج] . فيا أخي : انزلْ إلينا قليلاً . . . » . وهكذا جرّاً في الحديث من أمثال هذه الممتعات « المازنيّة » إلى ان يُحرّك قمقم الطّيب في ركدته ، فيفيض العقّاد في الانبساط والمرح ما شاء الله له !

وقد بقيت كلمة « يا أستاذ » هذه ، وما يحوك لها المازني من تعليقات رقائق ، موضع كلام بيني وبينه حتى بعد أن فصلتُ من مصر . ومن ذلك ما جاء له في إحدى رسائله إليّ ، وقد جعلها ناشر كتابي « كتاب الملوك » لحقاً له . وهي هناك بخطّ يد المازني ، منقولة بالزنكوغراف ، صوناً لهذه الذّخيرة الأدبيّة النّفيسة من الضّياع والتّلف . قال :

« أبلغتُ [الأستاذ] سلامك الرّقيق ، وتحيّاتك الطّيّبة ، فسرَّ بها واغتبط ، وازدهى أيضاً . ومن كان الأستاذ أمين نخلة يذكره على البعد ، فهو حقيق بالزّهو والخيلاء . وقد أصبح يقول ، وهو يتيه بذلك عليّ ، انّك من أصدقائه . فهنيئاً له ، ولستُ أحتكر انساناً ، أو

إحساساً ، أو شيئاً ما ، حتّى ولا نفسي . فاسمحْ له أن يعتقد أنّك تعدّه صديقك ، فانّك تتيح له بذلك أن يعتزّ بكنز من الأدب والمودّة يعزّ ندّه في دنيانا يا أخي ! » .

فيا صديقيّ اللذين أقفر منهما جانب الأدب : أنا واحد من تسعين مليون عربيّ يبكون منذ أيام أحدكما ، بعد أن بكوا منذ أعوام أحدكما الآخر ، وأنا الأخ المفاخر بأُخوّتكما ، المعتزّ بأدبكما ، والذي ترافقه الحسرات عليكما إلى التُّراب . . . واني أدير عينيّ في أدب العرب ، فلا أرى بعدكما نجمين طالعين طلوعكما ، مضيئين ضياءكما . رحمكما الله ، وأخلف على المكانة التي تركتماها في الطّبقات العلى .

داء قديم عهد

كنّا في مجلس سماع ، في بعض البيوت التي لا يزال يفهم أهلها انّ قولة « يا ليل » ، مثلاً ، أشهى الى القلوب ، والطف على الأسماع ، من طبول « الجازبند » ودفوفه وأبواقه ومزاميره وصنوج النّحاس في غمرات صخبه . . . وكان المجلس قد احتشد فيه أخلاط من النّاس ، جمعت شتاتهم شهرة المغنّي الذي طلع في تلك الليلة الموعودة . فما كاد يأخذ الرّجل في الترنيم بصوت خافت ، وينتقل به من مقام إلى مقام أشدّ ، أو أحطّ ، كيما يستبين مرتبة النّغمة ، حتى أخذوا هم في الحديث والجلبة ، دون أن ينصت بعضهم لبعض ، وحتى نغّصوا هناءة المجلس من بابه الى نافذته !

ويظهر انّ أهل المجالس وليالي السّمر في القديم كانوا يشكون مثل شكوانا من هرج النّاس بين الغناء ، فلقد وقفتُ في أحد المجاميع على

أبيات لابن علويه الكرمانيّ ، جاء له فيها قوله :

لو أنّني قاض ، قضيتُ بحقّة :
انّ الحديث مع الغناء حرامُ !

لا فضّ فوه ، فانّ الحديث على الغناء بغيض ثقيل ، تقذفه الأسماع ، ولو كان المتكلّم يدير بين فكيه لساناً أحلى من لسان أوسكار ويلد . . .

الجاهلية وعصر الجاهلية !

لا أدري كيف يقولون في التأريخ للأدب العربيّ : جاهليّة ، وعصر جاهليّة ! على أنّه يوجد من دقائق الفلسفة العقليّة في هذا الذي انتهى إلينا من شعر الجاهليّين (وقد ضاعت علينا إجاداتهم في الكتابة والخطابة) شيء كثير . فعند النّابغة ، مثلاً ، من الكلام على النّظام السياسي ، وعند زهير ، والحارث بن حلّزة ، من الالتفات إلى علم الأخلاق والآداب الاجتماعيّة ، وعند طرفة في القصيدة التي يطالب فيها بحقوق أمه (وردة) ، ما يقصّر الشّعر اليوم عن لحاقه في هذا الميدان !

أفهذا ، كلُّه ، يا إخواننا ، مؤرّخي الأدب ، قد جاء من زمن يهدر من ضرم جاهليّة جهلاء ؟ . . .

قال لي الرّيحاني (فيلسوف الفريكة) ، ونحن نعرض في أحد الأيام مسألة القرآن في بلاغته ، وأحكامه الرّوائع ، بازاء الجاهليّة ، ما هذا مؤدّاه : « لو لم تكن الجاهليّة متحفّزة الصّدى ، لما جاء القرآن بهذا الصّوت الذي هزّ الجزيرة في البلاغات ، والنُّظُم الاجتماعيّة ! » .

صدق أمين ! ثمّ يقولون لك : جاهليّة ، وعصر جاهليّة . . .

إلى تمثالي

دخلتُ « دائرة الفنون الجميلة » ، في « وزارة التربية الوطنيَّـة » ، فوجدتُ فوق منضدة هناك ، يجلس إليها رئيس الدَّائرة ، تمثـالاً لي ، وهو التِّمثال النصفيّ الذي صنعه النحَّـات المشهور الأستاذ العطَّـار ، وجاء فيه النَّـقل يحـكي الأصـل ، على أبـرع ما تقـع المحـاكاة في فنّ النَّـقاشة .

وما كان مني الاَّ بضع نظرات إلى التِّـمثال حتى شجاني في الحديد شبيهـي الـذي ينظـر بعينيه ولا يبصر ، ويفتـح ما بـين شفتيه ولا يتكلم . . . شاخص هكذا أبداً !

أفطول الدَّهر ، يا شبيهي ، تنظر إلى الدُّنيا هكذا ، لا ينطقك فيها جمال ، ولا خير ، ولا حقّ !!!

أنا ، يا تمثالي ، لا أحبّـك . . .

في مصر

وجدتُ في مصر ، قدمتي هذه المرَّة ، مجتمعين اثنين للأدب : مجتمع الجيل القديم ، ومجتمع الجيل الجديد ، ورأيتُ اختلافهما في الذّوق ، وفي الثّـقافة ، وفي كلّ ما يتَّـصل بأحوال الحياة . الأول يؤثر العربيَّـة في فصاحتها وبيانها وأسلوبهـا الأصيل ، ويؤثـر الثَّـانـي ترك البلاغـة في النثر ، وترك الفصاحة والأوضاع والحدود في الشعر . فكأنَّ هذا الفريق يريد أن يخرج الى القـرَّاء بمباذلـه ، وكأنَّ ذاك يريد أن لا يلتقيهـم الاَّ بالثّـوب الرَّسميّ !

وثمَّ فرق آخر ، وهو الذي يجعل البون شاسعاً بينهما . فانَّ الأوَّل

يلتفت في الذّوق الى الشرّق ، ويلتفت الثاني الى الغرب . شرّق أحدهما ، وغرّب الآخر ، فهما لا يلتقيان ، ولا يتّصلان ، ولا يفهم واحدهما من صاحبه !

أمّا ثالث هذين ، وهو الذي يعرف كيف يقرّب الشقة بين صاحبيه ، والذي أسأل الله لمصر أن تُرزقه ، فانّ عيني لم تقع عليه فيها . . .

الصّداقة

تكلّم بالحديث عنّي في بعض المجالس ثلاثة من أصدقائي ، فكان اثنان منهم يذكرانني بأقبح الكلام ، وكان الثالث يدفع عنّي ، عن قصد ، بأضعف الحجج !

فيا أيّتها الصّداقة : هنيئاً لنا بالعداوات . . .

خبير ينبىء

كان الأستاذ باترو طراد ، أحد رؤساء الجمهوريّة السابقين في لبنان، من جلّة المحامين . وكان له حديث خلاّب ، ونكتة بارعة . جئته يوم نلت الشّهادة في المحاماة ، فقال : « وصاتي لك أن تفعل في المحاماة ما تشاء ، إلاّ أن تطلب الحكم بالقتل ، أي بالإعدام ، على متّهم وكل إليك الدّفاع عن خيط عنقه ! » . فضحكتُ يومئذ ، وظننت انّه كان يريد ، رحمه الله ، إلى الفكاهة ، فلمّا قضيت في المحاماة أعواماً ، علمت بأخرة انّه أراد جدّاً كثيراً . . .

أين فصاحة التليان ؟

نحن يوماً جلوس على سطح « الميرامار » في بيروت ، وهو اليوم نادي

« الكيتكات » ، والوقت صيف ، والشّمس إلى الغروب ، والبحر ينبسط انبساطه إلى آخر مدّ النظر ، وبين البحر والسّماء ، حيث يمسّ الشّفق الزُّرقة ، لمعات للنّهار المودِّع ، تأخذها أحضان الأفق عناقاً وضمّاً . . . وإذا أحدنا يتحرَّك في كرسيّه ، وقد أفاض المشهد ذات صدره ، فأخذ يذكر كلاماً لبعض شعراء الإيتاليِّين في وصف الغروب في المدينة ، ومن أطيب ما جاء فيه ما هذا معناه : إنَّ المساء يرى دمه مسفوكاً على الجدران العالية . . . وكان الأستاذ « الأخطل الصَّغير » حاضراً يسمع (وأنا لا أعرف في زماني من يتتبَّع في فيه مذاق الكلام تتبُّع مذاق الطعام والشراب كالأخطل الصَّغير !) فقال لصاحبنا : « امسكْ ، يا رعاك الله ، عن فصاحة التّليان ! فأين أنت من كلام أبي سعيد الخدريّ في رواية له على خطبة للنّبيِّ بعد العصر ، وقد قال : ولم يزل يخطب حتّى لم يبقَ من الشّمس إلاَّ حمرة في أطراف السُّعف . . » . فرجَّ المجلس من الطَّرب لكلام أبي سعيد .

ولا ، والله ، ما جاء بهذه الحمرة ، التي بقيت عالقةً بعد الزَّوال بأطراف سعف النَّخل ، قلم شاعر إيتاليّ ، ولا ريشة رسَّام إيتالي !

عجز التعريفات

أذكرتني كلمة « لأندره موروا » في تعريف المدنيَّة تعريفاً لا يحيط بمعناها احاطةً كافية ، وهي قوله : « انَّها ، على الجملة ، كلُّ ما يُشعر الفرد بالقيمة الانسانيَّة عنده ، وعند الجماعة » ، بما قاله لي أحمد شاكر الكرمي ، كبير نقَّاد الأدب في وقته . وذلك في أثناء حديث كان لنا على عجز التَّعريفات العلميَّة ، والأدبيَّة . قال : « الناس ، إلى اليوم ، إلى هذا القرن العشرين من عمر البشريَّة ، لم يتَّفق لهم رأي على

تعريف شيء من أشياء الحياة بالضبط ! ولولا أنَّـهم يعرفونه معرفة لمس ، او حسٍّ ، أو بصر ، لما أغنتهم ألوف التَّعريفات عن ذلك فتيلاً . . ».

وهو كلام فيه كثير من التَّـضـايق باختـلاف الـكتَّـاب والعلماء في تعريفاتهم ، وتعليلاتهم ، وأخذهم وردّهـم ، الاَّ انَّ فيه ، أيضاً ، شيئاً كثيراً من الصَّـواب الذَّي لا بدَّ لمن يقف على أقوالهم من الاعتراف به ، فانَّ حبلهم ليس له نهاية !

أسلوب طَـه حسين

قال لي أحد كبار الكتَّـاب : « أسلوب طَـه حسين في الكتابـة من أعجب الأساليب . فكأنَّ طَـه إذ يكتب يتكلَّـم ، وإنَّـما هو يكتب كي لا يقاطعه أحد . . . » .

هذا أفحش طعـن على كاتـب سمعتـه في حياتـي ! الاَّ انَّ فيه من الملاحة ما يشفع بنقله حتى بين يدي صديقنا الدكتور طَـه ، وهو من هو في لطافة الحسّ .

التأريخ والمعاصرة

لا يجوز أن تؤ رِّخ الوقائع ، ولا أن يُترجم للرِّجال الاَّ بعـد فوات تلك ، وموت هؤ لاء بزمن طويل ، خوف التَّقيَّة ، والمصانعة ، وهوى النَّـفس ، والاَّ جاء أكثر ما في التَّـواريخ والتَّـراجم متَّـهماً ، مدخولاً .

وانِّي لا أعرف في الكتَّـاب المؤ رِّخين ، من أهـل زماننـا ، من لـم يلجئه الأمر إلى التَّقيَّة ، وهو يخاطب معاصريه ، إلاَّ واحداً كان في عقله حمق ، وهوج كثير ، فلمَّـا أخرج كتابه للنَّـاس ذاق وبال أمره !

« كلُّ فتاة بأبيها مُعجبة » ، هو المثل الذي تضربه العرب في إعجاب الرَّجل برهطه وعشيرته . وأراني ، وأنا في إعجاب شديد بهذا التُّراثيّ اللبنانيّ ، الذي يقولون له « الفولكلور اللبنانيّ » ، و « الفنون الشعبيَّة اللبنانيَّة » ، جديراً أن يُذكر بي مثل العرب هذا ! فانَّني أرى التُّراثيّ اللبنانيّ هو الذي يسلم الينا أمانات الماضي في سهولة ورفع كلفة ، فنأخذ باليدين ألفاظ سلفنا في مصايرهم اليوميَّة ، وفي أغانيّهم ، وأمثالهم ، ونكاتهم ، وهتفات نفوسهم ، وعادات مجتمعهم في الملبس ، والمطعم ، والرقص ، والموسيقى ، وفي مختلف أطوار المواصلة . كتاب تأريخيّ « أهليّ » يُفتح عليه بين عينيك ، وأذنيك ، في أهنأ ما يلتذّ البصر والسَّمع . فهو غير الكتاب التأريخيّ الآخر ، القائم فوق الرَّفّ من خزانة كتبك ، يملأ ما بينك وبينه مهابةً ووقاراً . . .

وقد كان والدي ، إذا ذُكر قول زجَّالنا القديم « وِسْعِتْ تيابي من ضنى جسمي عليكْ » ، يقول : « هذا يفضح قول أبي الطَّيِّب :

كفى بجسمي نحولاً أنَّني رجل
لولا مخاطبتي إيَّاك ، لم ترَني ! » .

ثمَّ يقول : « صاحبنا الزَّجال القديم يخاطب النَّاس ، هنا ، من عالم الحياة ، وأبو الطَّيِّب يخاطبهم من العالم الشِّعريّ . فهم يتلقَّون بالتَّصديق كلام هذا الشاعر العامَيّ ، ولا يصدقون في كثير ، ولا قليل ، ما قاله سيد شعراء العرب !!! نعم ! نعم ! لقد بات على جماعة الأدب ، في هذا الزَّمن الذي استوسع في كلّ امور الحياة ، أن يطرقوا باب العالم الأول ، وإلاَّ تركهم النَّاس في الزَّوايا ، وانقلبوا عن القول

البليغ إلى الفعل البليغ ، ووقعت بذلك الطَّامَّة التي تفوق ما سواها . . . » .

أقول : أمَّا أن تدخل هذه التُّراثيَّات عالم الأدب بالشّكل الذي يدخلها به في هذه الأيام نفر من الشعراء ، وكتَّاب القصص عندنا ، فذلك ما لم يقصد إليه والدي في كلامه ! وإنّي لا أعرف في باب الغلظة ، وثقل الظِّلّ ، شيئاً كهذا الكلام الذي يأتون به في التَّحدُّث على تراثيَّاتنا . . . وافٍ لسراويل آبائهم ، وفساتين امَّهاتهم ، ولبيت « العتابا » ، و « ردَّة المعنَّى » ، و « لجرن الكبَّة » ، و « جرن القيمة » ، و « دقّ الجرس » ، و « هيجة الدَّبكة » الى آخر هذه التراثيَّات التي لا يعرفون كيف يُمهَّد لها في متعات القول ، وأساليب البراعة !

فيا كلَّ « سعد » من هؤلاء : ما هكذا تورد الإبلُ . . .

حول الديمقراطيَّة

لا أعلم انَّ في لبنان رجلاً واحداً يعرف ما هذه الديمقراطيَّة ، التي يقال لها : « حكْم الشّعب » ، أو انَّه يؤمن بها ، أو يسكن إليها قلبه ! وبرغم ذلك ترى اللبنانيِّين ديمقراطيين جميعاً ، يتمسَّكون بأساليبها ، ويشيدون بمحاسنها ، ويحمدون الله على قيامها في وطنهم ! وهذا من الخصائص العجيبة في تعوُّد الديمقراطيَّة . . . لا يعرف النَّاس ما هي ، ويحبُّونها . على انَّ الكلمة المشهورة في قضية الكره للمجهولات تقول على العكس : « المرء عدوٌّ لما جهل » !

جاءني في أخريات الحرب العالميَّة الماضية بعض العمَّال يسألني : « ما الديمقراطيَّة ؟ » ، وقد كانت محطَّات الإذاعة في دول «الحلفاء»

تطفح يومئذ بالخطب الضّافية عليها ، ثمّ قال : « أنا رجل لم يُكتب له أن يأخذ العلم عن أستاذ ، ولكنّني ولوع بحبّ المعرفة ، فاذا انقلبتُ إلى بيتي في المساء ، رحتُ أصغي في الرّاديو إلى الإذاعات من هنا ومن هنا . ولقد حار عقلي في تفهُّم الديمقراطيَّة التي يُطنطن بها في محطَّات الإذاعة كلَّ يوم ، حتَّى انَّ مستر تشرشل بقي ليلة أمس يفصِّل في مفاهيمها في إذاعة لندن أكثر من نصف السَّاعة ، ويتدفَّق تدفق النَّهر الشَّديد الجرية . فلو ذكرتَ لي ما هي ، ويحفظك الله » . فحار عقلي في تعريف الرَّجل بها حيرة عقله هو في فهمها ، فقلت له : « اعلمْ ، يا صاحبي ، انَّ في الدُّنيا ثلاثة لا يفهمون ما الديمقراطيَّة . أفتعرف من هم ؟ » ، قال : « لا » ، قلت : « هم : أنت ، وأنا ، ومستر تشرشل . . . » . فتظاهر الرَّجل بالضَّحك لجوابي ، على انَّه كان يظنُّ في نفسه انَّني أضحك من جهله للديمقراطيَّة ، واتعالى عليه بتضلُّعي من معرفتها ، ووقوفي على ما قرب أو بعد من مسائلها . ولو انَّه درى ، لضحك هو من جهلي أنا أيضاً لها . . .

فيا هذا العامل ، الذي لا يعرف ما الديمقراطيَّة ، ويظنُّ انَّني أعرف بها منه : عفوكَ عنّي !

قرد ابن عرب شاه

عرفتُ في مصر واحداً من كتَّاب السَّجع الرَّديء ، من الذين لا يفهمون بشقِّ الأساجيع إلاَّ أنَّها موالاة الكلام على رويٍّ واحد . همُّهم التَّقفية ، فاذا وقعت لهم ، لم يلتفوا بعدها إلى غرض ، ولا إلى معنىً ! وأمَّا إذا خطر لواحدهم أن يركب بين كتفي الظَّرف ، فهناك تكون الطَّامَّة التي ليس مثلها . . .

فذكرتُ للرَّجل انَّ ابن عرب شاه أراد أن يقول انَّ العرب تتصرَّف في الكلم الدَّخيلة ، وأن يتظرَّف في عبارته ، وقد جرى في خاطره قول القائل :

كرةٌ طُرحت بصوالجةٍ ،
فتلقَّفها رجلٌ رجلٌ ،

فكان منه أن قال : « انَّ كرة الالفاظ الأعجميَّة إذا تداولها صولجان اللغة العربيَّة ، خرطها في الدَّوران على بناء أوزانها ، ودحرجها كيف شاء في ميدان لسانها » . ثمَّ قلتُ لصاحبنا السَّجَّاعة المصريّ : أنا نشدتُك بالله إلاَّ ما قلتَ لي : أإبن عرب شاه يكتب هنا كلاماً وبياناً ، أم انَّه يرقِّص قرداً ؟!! فبُهت الرَّجل ، وابتلع ريقه . . .

في الدَّعوى

قال بعض مدَّعي البحث والتَّقصِّي والغوص على الغوامض لألفريد كابي ، وهو الكاتب الفرنسويّ المشهور بالنُّكات اللاَّذعة :

- يا عزيزي كابي : كلٌّ هو في كل !

فقال له :

- نعم ، يا عزيزي فلان ، والعكس بالعكس !

فجاءه كابي بهذا الكعك من ذلك العجين . . .

ولعمرك ، ليس أثقل على النَّفس من لحُانة يتنحَّى الأَّ مدَّعي علم يتكلَّف الوقار ، ويتعاظم ، ويأخذ نفسه بما يأخذ به العلماء نفوسهم ! وقد كان الشَّيخ يوسف الخازن إذا أقبل علينا أحدهم ، وهو من

أصحاب الدّعوى العريضة ، يقول : « جاء الجبل . . . » !

وممـا ورد لأبـي العينـاء في اللطـائف ، وهــو ليس بعيداً من هذه القرحة ، قوله :

« ـ سمعتُ عبد الرّحمن ابن أخي الأصمعيّ في جنازته يقول : إنّـا لله وإنّا إليه من الرّاجعين . فقلتُ : ما عليه لو استرجع كما علّمه الله ! » .

التلقيب بالإضافة إلى الدِّين

كان أمين تقيّ الدِّين من ألطف خلق الله محاضرة ، ومـن أبرعهـم سوق نكتة . وكان يكره التّـلقيب بالإضافة إلى الدِّين (على أنّـه هو من أسرة تقيّ الدِّين ، كما ترى) ، ويردِّد في هذا المقام قول الشّـاعر :

طلـع الـدِّيـنُ مستغيثـاً إلى الله ،
وقـال : العبـاد قـد ظلمـوني .
يتسـمّـون بي ، وحقِّـك لا أعـرف
منهـم شخصـاً ، ولا يعرفـوني !

قلتُ له في بعض الأيّـام : « تتضايق بالإضافـة إلى الـدِّين ، فلـو أخذتَ من اسمك جزأ ! » ، فقال ، وهـو يضحـك ، رحمـه الله ، تلك الضّـحكة الحبيبة بين عينيه وفمـه : « أو تريد الاختصـار ، فنقـول : تقيّ ؟ هذه أعظم . . . » .

ولقد سمعته يقـول للأخ صلاح اللبـابيدي : « يا صلاح : إيّـاك والدِّين في اسمك ، ولو أصبحتَ معه صلاح الدِّين بن يوسف ، قاهر الفرنج ! » .

كنتُ أحدِّث مرَّةً الأخ أسد رستم بما ترتاح له نفسي كلَّما رجعتُ إلى « معجم الطَّالب » في نبشٍ قريب ، حيث لا تصل اليد إلى الأمَّهات اللغويَّة ، أو لا يكون وقت للمراجعة المستفيضة .

وقد ساقنا الكلام إلى ذكر العلاَّمة اللغويّ ظاهر خير الله ، صاحب الرِّسالة الصَّافية في اللغة والمعاجم ، وهي التي طُبعت صدراً « لمعجم الطَّالب » ، وجاء فيها من الكلام على التَّدوين ، وعلى مبادىء قياسيَّة يُستعان بها في مآزق الاستعمال ، ما لا غاية وراءه !

قال الدكتور رستم : أو تعلم شيئاً عن بلديِّنا الشَّيخ خير الله في بداية أمره ؟ (الدكتور من الشوير ، في لبنان ، وصاحبنا خير الله من تلك القرية ، ايضاً) . لقد كان الرَّجل في حداثته بنَّاءً . نعم ، كان البناءُ حرفته ، ولم يكن له من المعرفة بالقراءَة والكتابة أكثر ممَّا يكون في العادة لأمثاله . فسمع في بعض الأيام انَّ صاحب « معجم الطَّالب » (وهو بلديُّه ، ومن ذوي قرابته ، وفي مثل سنِّه) غادر القرية إلى بيروت ، بطلب العلم في الجامعة الأميركيَّة . فترك من يومئذ حرفته (والعلى تُعدي !) ، وانصرف إلى تعلُّم العربيَّة ، حتى بلغ فيها بطول الأيام مبالغه المعروفة .

فقضيتُ العجب مما حدَّثني به الدكتور رستم ! أمن « هَذْر البُناة إذا أضحوا على شَعَف الجُدران في صَخَب » ، كما يقول ابن الرُّوميّ في شعر البحتريّ ، إلى التَّضلُّع من اللغة ، والغوص على دقائقها ، والتَّنقيب عن غرائبها ونوادرها ؟ ألا إنَّ عُلوَّ الهمَّة يتخطى الموانع ، ولا يعظم عليه أمر !

هذا ، وقد عرفتُ في شبابي العَّلامة أميناً ، ابن العلاَّمة ظاهر ، وهو منذ ولادته أصمٌّ كالحجر ! كان يأتينـا أيام جريدة « الهـديَّـة » ، وقيام جرجي عطيَّـة ، صاحب « المعتمد » ، على إصدارها ، ثمَّ أتانا مرَّات أيام مجلَّـة « مينرڤا » ، يجيءُ لنشر فصـل في اللغـة ، وأجـيء أنـا لنشر قصيدة ، أو فصل في الأدب . ولقد عاش سميّي ما عاش ، رحمه الله ، وهو يأكل من كسب يده . كان يعمل القفف من قصـب أو خوص ، ويدور يبيعها على البيوت . فاذا أوى إلى بيته في المساء ، وقرَّ قراره ، عكف على قلمه ودواته ، ملازماً التأليف في أخفى أسرار هذه العربيَّـة ، أو المناظرة لجماعة من صدور علمائها في طائفة من المسائل ، نحو ما وقع له من الأخذ والرَّدِّ مع العلاَّمة الكرمليّ في قضية المباني والتَّـخريج ، وفي استخدام حروف المباني ، وفي ألفاظ وعبارات عديدة . وهي المناظـرة التي كان لها يومئذ طنطنة ، ودويّ .

وعمل العلماء وأهل الأدب للكسب باليد ليس جديداً . ومما أذكر من ذلك ، وهو غاية في اللطف ، ما رواه صاحب « السرّ الصَّـفيّ » . وملخَّـصه : انَّ الشَّـيخ البساطيّ ، قاضي قضاة المالكيَّـة في وقته ، كان مع جلالة قدره زاهداً في الدُّنيا ، يأكل من صيد السَّـمك . فكان يخرج في الغلس بشبكته ، فيصطاد ما يبيعه بقوت ذلك اليوم ، وهو في هيئة الصَّيَّادين . ثمَّ يجيء من كوَّة تؤدِّي الضَّـوء إلى بيته ، فيدخل ، ويلبس ملابس القضاة ، ويخرج من الباب إلى الدِّهليز ، ويجلس للحكم بين النَّـاس . . .

وعلى سبيل الاستطراد أذكرُ ، أيضـاً ، أنَّ صديقنـا الشَّـيخ توفيق البلاغي ، الشاعر السَّليقيّ المشهور (وهو الذي من أجله أصدرتُ في

سنة 1931 [كتاب المئة]) كان أيضاً صيَّاد سمك . وله من الرَّقائق في الشِّعر ، ممَّا يشير إلى حرفته ، شيء كثير . ومن ذلك قوله : « وانـي أصيد الـدُّرَّ في ما أصيدُهُ » ، وقولـه : « والبحـر بحـري عنـد شطِّ الطَّـويلْ » .

السَّبب واحد

قـال لي سليم سركيس ، صاحـب « مجلَّـة سركيس » المشهـورة ، وكان آية في الظَّـرف والفكاهة والرَّقائق : « ما عرفتُ امرأةً تطالب بمـا يقال له حقوق المرأة ، الاَّ كانت دميمة الصُّورة ، أو ، في الأقلّ ، على قبح يسير ! » .

ولقـد اجتمعـتُ منـذ أيام بواحـدة من اللواتـي يكتبـن ، ويطلن الفصول في تلك المطالبة ، فاذا هي وسيمة قسيمة ، تملأ العين حسناً . ولكنَّني نظرتُ ، فاذا زوجها ، وقد كان إلى جانبها ، قبيح ، تتجـافى الأبصار عن منظره ، فتذكَّـرت كلمة سركيس ، وقلتُ في نفسي : رحمه الله ! انَّ حسن هذه الكاتبة لا يزحزح كلمتـه عن مكانهـا ، فانَّ قبـح الزَّوج يوطِّـدها . . .

« شدَّة الشكيمة »

جمعنـي في بـيروت مجلس بالعلاَّمـة الـكرمليّ ، صاحـب « لغـة العرب » ، وكان في المجلس الشَّيخ ابراهيم المنذر . ودار الحديث عن الكناية والمجـاز والاستعـارة ، وتحجُّـر الواسـع في العـربيَّـة . فقلـت للكرملي : « ما لنا في هذا الزَّمن ، زمن السَّيـارة الكهربائيَّـة ، لا نزال نقـول ، مثـلاً ، فلان شديد الشَّـكيمـة . وانَّـما الشَّـكيمـة الحـديدة

المعترضة في فم الفرس ! » . فقال : « تريد إذاً أن نقول : شديد الدِّيركْسيون ! » (يريد : موجِّه السَّيَّارة) . فأنفتُ أنا من مجاوبته ، وأمسكتُ عن الحديث . فقال له الشَّيخ المنذر : « لا هذه ولا تلك ، يا بلدِّينا ! [أبو الكرمليّ من آل عوَّاد ، من بكفيًّا ، وقد فصل منها إلى بغداد ، في خبر ليس ما هنا محلَّه] بل نقول : عنيد ، ويتمُّ المعنى » .

ثمَّ اني نشرت في مجلة « المشرق » ، بعد ذلك ، فصولاً لي في طائفة من دقائق اللغة ، متخذاً لها هذا العنوان « مخخة المتون » ، من سجعة للإمام الزَّمخشري في « الأساس » ، وهي قوله : « الزَّيت مُخُّ الزَّيتون ، والحواشي مَخخَةُ المتون » . فنشر الكرمليُّ في مجلة « العرفان » فصلاً ضافياً ، بعنوان « نظرات في مخخة المتون » ، كال لي ، رحمه الله ، فيه أشياء من نحو : « استغربتُ هذا العنوان ، وقلتُ في نفسي : لعلَّه يحاول أن يعلمنا اللغة الواقواقيَّة . . . » .

واتَّفق أن لقيت ، بعد أيام ، الشيخ المنذر ، وكان قد اطلع على مقالة الكرمليِّ في « العرفان » ، فقلتُ له : « أأعجبك ما فعلت بنا [شدَّة الشُّكيمة] ؟ . . . » .

كلمتان بارعتان

ما التقت شفاه علماء ، ورجال دين ، على كلام في اللطائف ، والرَّقائق ، أحسن من كلمتين : الأولى نقلها كرد علي ، أحد لدات الشيخ طاهر الجزائريّ ، (من جلَّة مشايخ وقته) . والثَّانية سمعها كاتب هذه السُّطور من فم المطران اغوسطين البستاني ، (من جلَّة مطارين زماننا) .

فلقد روى كرد علي في كتابه « كنوز الأجداد » انَّ لدة للشيخ الجزائري حدَّثه بقوله (وأنا مورد هنا باختصار ما ذكره كرد علي عن لسان محدِّثه) : كنَّا ذات مرَّة في « دمَّر » ، من قرى دمشق ، نتنزَّه في بعض البساتين ، ومعنا الشيخ طاهر . ونحن يومئذ في نحو من الثلاثين من العمر . فانعزل الشيخ عنَّا في ظلّ شجرة يطالع ويكتب . وكان في البستان فتاة يهوديَّة صبيحة الوجه . فقلنا لها : تأتيننا بهذا الشيخ المستظلّ بالشَّجرة ، ولك منَّا الحلوان لذلك . فلما جاءته ، رفع رأسه من كتابه ، وأخرج لها قطعة من « القمر الدين » ، أي معجون المشمش ، وقال : « بارك الله فيك ! أتأكلين قمر الدين ، يا قمر الدُّنيا ؟ . . . » . ثمَّ صرفها عنه بهذه اللطافة من التَّقريظ .

أما كلمة المطران البستاني ، فهي قوله لي ، في اثناء حديث كان المدار فيه على موظَّف في الحكومة ، جرَّته زوجته إلى الفساد والرَّشوة : « المرأة ، يا فلان ، تقود الرَّجل بشعرة من ضفائرها ! . . . » .

وهي كلمة على هذه الشَّعرة ، التي تُقاد بها أعناق الرِّجال ، ليست كلمة معاوية على الشَّعرة التي جعلها بينه وبين النَّاس ، بابرع منها في بابها ، ولا ألطف تورية .

التمثُّل بالشعر

للتمثُّل بالأبيات النَّازلة منازلها في صواب الأمور ، وسدادها ، موقع في النَّفس عظيم ! ذكرتُ لأخ لي في بعض الأيام بادرة بدرت من واحد من اخواننا ، فقال : « أيُّ الرِّجال المهذَّبُ ! » ، يشير إلى قول الشَّاعر :

ولستَ بمستبق أخاً ، لا تلمُّه

على شعث ، أيُّ الرِّجال المهذَّبُ !!!

فسكن ، والله ، ما كان في نفسي . . .

نصيب من اسم

من أقوال العرب المتعارفة : « لكلِّ شيء من اسمه نصيب » . وقد رأينا في زماننا تصداق هذا القول في شاعر من كبار شعرائنا ، وهو : حافظ ابراهيم .

قال الشيخ البشري ، صاحب « في المرآة » ، من فصل له على حافظ ، يذكر سرعة حفظه ، وثبات حافظته (والبشري نعم الخبير حين ينبىء عن حافظ ، فهو صديقه ، ورفيق صباه وكهولته ، وأعلم النَّاس بغرائزه وملكاته) :

« لم أرَ قطُّ رجلاً أسرع منه حفظاً ، ولا أثبت حافظة . ولقد تقع له المقالة الطَّويلة ، أو القصيدة الضَّافية ، فترى نظره يثب فيها وثباً حتى يأتي على غايتها ، وإذا هو قد استظهر أكثر جملها ، أو أبياتها ، إن كانت قصيداً ، وإذا هي ثابتة على قلبه على تطاول السِّنين » إلى أن يقول : « وإذا كنت ممن يجري في صناعة الكلام على عرق ، وهُيِّىءَ لك أن يحاضرك حافظ في الأدب ، لصبَّ على سمعك عصارة الشِّعر العربيِّ ، وأبدع ما انتضحت به القرائح ، من عهد امرىء القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعدَّ بحقٍّ حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخيِّر الشِّعر العربيِّ عُرف إلى اليوم » .

ولقد كان لي من السَّعادة ، كما علم القرَّاء مما تقدَّم من هذه

الفصول ، أن أصاحب حافظاً في بيروت ودمشق ، في قدمته لهما ، فشهدتُ بنفسي صدق هذا الكلام الذي ساقه الشيخ البشري . ومن ذلك انَّ الحديث تطرَّق ذات مرَّة في مجلس لحافظ في دمشق ، في فندق « فيكتوريا » ، على « الجسر » ، إلى ذكر عمر بن أبي ربيعة ، وقصيدته « أمن آل نعم » ، فلا ، والله ، ما ترك من القصيدة بيتاً شائقاً إلاَّ وقد أفرغه من حافظته ، كما تفرغ أنت الماء من وعائه !

المطالعة وكثرة الكتب

كان أستاذنا في فقه اللغة ، الشيخ عبد القادر المغربي ، كثير الإعجاب بالأمير شكيب أرسلان . وكان يقول : « أقوال الأمير شكيب تزخر بالممتعات في مجالسه ، وفي كتاباته » . وكان ، أيضاً ، يقول ما هذا لفظه : « الأمير شكيب يُتمسَّح به لفضله ! » ، يريد : انَّه لفضله جدير أن يُتبرَّك به .

ولقد ذكر لي الشيخ ذات مرَّة كلاماً للأمير شكيب على المطالعة ، فكتبته عنه ؛ وهذه فقرات من ذلك الكلام السَّنيّ . قال :

« ليست المطالعة في كثرة الكتب ، فقد يوجد صاحب كتاب واحد فيستفيد منه أضعاف ما يستفيد غيره من عشرات الكتب . وقد قيل : لا تخفْ إلاَّ من صاحب الكتاب الواحد ! قالوا انَّ صاحبه يجعله عدَّته الوحيدة ، والوحيد مذلَّل معتنىً به . وهكذا يكون القليل المخدوم في المطالعة أجزل عائدةً من الكثير المهمل . والأرض بقليلها العامر ، لا بفسيحها الخراب » إلى أن يقول : « حدَّثني الإمام محمد عبده ، وهو نادرة وقته ، انَّه بقي مدَّةً من أيام صباه يزاول الكتابة ، وينشر في الجرائد ، ولم يقرأ شيئاً من أدب وعلم ، ولا حفظ سوى القرآن » إلى أن

يقول : « وإن كان لا بدَّ من كتاب واحد ، فليكن كتاب الواحد تعالى » (يريد القرآن) .

قال الشيخ المغربيّ : انَّ الأمير شكيب أرسل اليَّ بهذه المقالة من لبنان إلى مصر ، يوم كنت أكتب في جريدة « المؤيِّد » ، فنشرتها فيها ، وصار للمقالة في مجالس الأدب ، في وادي النيل ، دويّ بعيد .

بين شاعر وشاعر

حدَّثتني الآنسة « ميّ » ، أيام مرضها في بيروت ، باعجابها بموشّح للأستاذ المازني ، عنوانه « الدّار المهجورة » ، وكانت تطرب جدّاً لقول الأخ المازني فيه :

أوصدوا الأبواب بالله ، ولا
تدعوا العين ترى فعل البلى .
وامنعوا دار الهوى أن تُبذلا .
إنَّ للدَّار علينا ذمما ،
وقبيحٌ خونها بعد الخرابْ . . .

فقلتُ لها : وأين أنت في باب البكاء على المنازل والدِّيار ، والأيام الخالية ، من قول شوقي يخاطب الخديوي اسماعيل ، وقد أشرف أمير الشُّعراء ، وهو في « نابولي » ، على الدَّار التي بها كان يقيم الخديوي في منفاه :

نظر الزَّمان إلى ديارك كلِّها ،
نظرَ الرَّشيد إلى منازل جعفرِ؟! . . »

قالت ميّ : « ولكن هذا وادٍ ، وهذا وادٍ آخر ! » . فقلت لها :

« نعم ! وهذا شاعر ، وهذا شاعر آخر . . . » .

ذكرى وعبرة

في أيام الطّلب قرأتُ لعبد الحقّ حامد ، الكاتب التّركيّ المشهور ، قوله في خطبة طارق بن زياد يوم الكرّة على أوروبّة : « إنّ هذا الصّوت الصّاعد من الأرض إلى السّماء ، هو أخو الصّوت النّازل من السّماء إلى الأرض ! » . ثمّ قرأتُ لكاتب من كتّاب الرّوس ، من عصر القيصر نيقولا الثّاني ، وقد أُنسيت الآن اسمه ، قوله : « ليس لبقرة القيصر من القرون أكثر مما لبقرات النّاس » ، وقوله : « تاج القيصر لا يقيه وجع الرّأس » ، وقوله : « إنّ دمعة واحدة تنزل من عين القيصر هي التي تقتضي مناديل كثيرة » . فعلمتُ من يومئذ انّ الأدب التّركيّ يجنح إلى الغرب ، وانّ الأدب الرّوسيّ يجنح إلى الشّرق . إلاّ انّني لم أتصوّر في ذلك الوقت انّ جنوح التّرك في الأدب سوف يعقبه أيضاً جنوح منهم إلى الغربيين ، في كلّ ما جلّ أو دقّ من أحوالهم بالاجتماع ، حتّى لو انّ قائلاً يقول في ذلك انّ جيراننا لم يتركوا ما عندهم من لغة وتأريخ وتقاليد وعادات وحروف كتابة ترك يد ، بل هم قلعوه من أصله ، فلا يكون مغالياً !

وها هنا حزّة للنّظر ، فليغتنمها من لم يعلم إلى اليوم انّ الأقلام هي التي تقلب الدّنيا رأساً على عقب . . .

خير الأساليب

يوم رُشّح الأستاذان نَمّور والمرّ لرئاسة نقابة المحامين في بيروت ، حصل في النّقابة تحزُّب شديد حولهما ، خرج إلى العنف والجفاء . فرأى

الأستاذان تحكيم والدي في نزول أحدهما عن التَّرشيح للآخر ، درأ لعواقب الانقسام الوخيمة . فكتب ، رحمه الله ، حكمه في رسالة ضافية ، جاء له في أوَّلها قوله :

« إنَّ الثِّقة التي أوليتماني شرفها قد أوقفتني بين صديقين كريمين عليّ ، يرى كلُّ واحد منهما لنفسه في التَّرشيح ما ليس من الهين نكرانه عليه ! » إلى أن يقول : « والكفَّتان راجحتان بالجدارة ، إلاَّ انَّ واحدة منهما غير راجحة بالحجَّة . ففي رأيي الضَّعيف : انَّ ما أدلى به الأستاذ نَمُّورأعلى حجَّةً مما أدلى به الأستاذ المرّ » .

فلما انتهى المرّ في القراءة إلى آخر هذه الفقرة من الرِّسالة ، قال : « يكفي ! يكفي ! إنَّ اللطف في الكلام من حقِّه الانقياد لحكم صاحبه . . . » . ثمَّ انَّه نزل عن التَّرشيح لنمُّور .

هذا برهان من آلاف البراهين على كون خير الأساليب في الكلام ، انما هو الملطَّف المرقَّق ، لا الخشن الجافي !

هذا العصر

عصرنا في الأدب ، وفي الفنون الجميلة ، انما هو عصر البشاعة ، والخروج على الذَّوق !

ففي الأدب ترك النَّاس الطلاوة ، والفصاحة المرقصة ، وعمق الغور ، إلى التَّفاهة والسَّطحيَّة .

وفي الموسيقى حلَّت آلات عبيد افريقية ، من طبول وطنابير وأبواق نحاسيَّة ، محلَّ رقائق الأوتار والقصب ، حتى أصبح الطَّرب صخباً ، وزعقاً ، وصياحاً منكراً .

وفي التَّصوير صار التَّخليط ، واللطخ بالألوان ، وفقدان التَّوافق بين الشيء ومقداره ، والمدى ومسافته ، واللمعان وأثره ، عنوان البراعة !

وهذا العبث هو الشأن الجاري ، أيضاً ، في النَّحت ، وفي الخطّ . فربَّ حجر لم يعمل منقاش النَّحَّات في بعض جوانبه إلاَّ غرزةً ، أو غرزتين ، وترك الباقي صلابةً على حالها ، ثمَّ يقال لك ، مثلاً : هذا تمثال النَّهار ، أو الليل ، أو الرَّبيع الجديد ! وربَّ رقعة من رقاع الخطّ أطلق فيها الخطَّاط يده ، كما يطلق الأطفال أقلامهم في مجمجة ، وطمس للحروف ، ثمَّ يقال لك : هذا نسق في الخطوط عصريّ !

ولقد ذكرتُ شيئاً من هذا الكلام ، أيام كنتُ في باريس ، لصديق لي من علية الفرنسويين ، فقال وهو يضحك : هذا من جملة فضلنا عليكم في الشَّرق . . . فقلت له : نعم ، انَّه من جملة فضلكم ، ولا كثَّر الله خيركم !

عند بيت « الأعشى »

قصدتُ مرَّةً من مدينة الرِّياض إلى قرية « منفوحة » (في أرض اليمامة) ، لأرى دار الأعشى فيها ، أعشى قيس ، « صنَّاجة العرب » ، و « أستاذ الشُّعراء في الجاهليَّة » ، و « أشعر النَّاس إذا طرب » ، و « المقدَّم على الشُّعراء بكثرة طواله الجياد ، وتصرُّفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشِّعر ، وليس ذلك لغيره » ، والذي فيه قيل ، أيضاً : « من زعم انَّ أحداً أشعر من الأعشى ، فليس يعرف الشِّعر » إلى آخر ما قيل فيه من قديم . فاذا داره كتلة من الحجارة متجمِّدة بفعل عوامل الطَّبيعة من أمطار ورياح وسيول ، في توالي المئات من السنين. ترى

العين مداخلها ومخارجها وأفنيتها بالظَّنّ والتَّـقريب .

فشجاني مشهد الفناء والدُّثور وصمت الماضي ، وخطر ببـالي من شعر الأعشى قوله في لاميَّـته المرقصة :

... وظللنا ما بين شاوٍ ، وذي قدْرٍ،
وسـاقٍ ، ومُسمـعٍ محفـالِ ،
في شبـاب يُسقـون من مـاء كرمٍ ،
عاقـدين البُـرود فوق العوالي .
ذاك عيـش شـهـدتُـه ، ثمَّ ولّى .
كـلُّ عيش مصـيره للزَّوالِ !

ثمَّ اني رأيت يومئذ كيف انَّ بيت الأعشى ، الذي عندي ، في خزانة كتبي (أي ديوان شعره) ، هو أعظم ، وأبقى على الدَّهـر ، من بيتـه الذي في اليمامة . . .

الفصل الثّـاني

النّـجاوى

المذكرات ـ الرسائل الخاصة ـ الفكاهة عندنا ـ تدُبر الكلام ـ لم يمض زمانـه ـ طبع الحياة ـ كلمة أعـرابية ـ الكره للسُّعداء ـ واحدة لواحدة ـ الأستـاذية ـ بـين رؤ وس الأمـوال ـ الـذين في الحـران ـ حدود الأوطـان ـ الـلازم والألـزم ـ عامـل الأجداد ـ القوَّة العسكريَّـة ـ الأشياء العصريَّـة ـ في الحكومات الديمقراطيَّـة ـ على قاعدة ابن خلدون ـ وراء الستار ـ الفلسفـة ـ فنٌ في السينما ـ صدر العـربية ـ همُّ الواعد ـ العادة ـ من النقد ـ الشيوخ والشباب ـ طلب العربية ـ حكم الديمقراطية ـ ما تغيَّـر الكتاب ـ كيف تُـشتقُّ القوانين ـ « الأمم المتحدة » ـ أستاذة ـ أبناؤ نا ـ لا بدَّ من الثـواب ـ التقـدُّم العلمـيّ ـ الاتحـاد المكين ـ لمن نكتـب ـ عنـد المرأة ـ أشهـر المجهولات ـ عندما تحكم هي ـ لا ، يا حبيبي ـ من المرضى ـ العزلة ـ الصُّحـاف الطائرة ـ حبر لا يلتمع ـ لغة الدوابّ ـ نعم الحياة ـ حاجة المجتمع ـ خيار ـ التلمذة ـ واحدتهم وواحدتنا ـ الغناء والشعر ، مشكل القديم والجديد ـ في الميراث ـ العوامّ ـ سبحانه ! ـ « لا أدري » ـ النكتة الحارَّة ـ في التفاسير ـ النكتـة المواجهـة ـ الأغنيَّة اليوم ـ كلمة خبير ـ العمل وأصحاب الأموال ـ نفاسة سنّ الفيل ـ النواميس المقرَّرة ـ البادىء أظلم ـ الرَّجل العظيم ـ حلاوة الوجدان ـ الألقاب ـ حسن يوسـف ـ الورق والحبر ـ فصاحة ـ حول الحرية ـ الفجائع ـ الكذب ـ الغربـاء ـ قضيَّـة الرائحـة ـ الغصُّ بالماء ـ الجمال والزيُّ ـ الزواج والأخلاق ـ من شأن الفلسفة ـ في السعادة ـ الرفق بالأجسام ـ الدعاية ـ الجرائد ـ « اعرفوها واحذروها » ـ أشخاص قصصنا ـ الاستقلال بالرأي ـ معرفة الطالع ـ قتل النملة ـ المجامع العلمية ـ نظام للطبيعـة ـ الصحافة ـ المرأة في العربية ـ الزوج اثنان ـ أشياءٌ ذُكرت ـ التلفيزيون ـ المذكرات

والصراحة - العلم يثبت الشعر - حقوق المرأة - في الكلام - القرع بالعصا - القول والفعل - طبائع - رسالة - ثياب الأفكار - محدِّث أو ثرثار - تاريخ القافية - التنضيد الجديد - غاية - الألم - القلب والعقل - « قفا نبكِ » - الذي هو لا كيِّس ولا ظريف - أمثولة - البديهيَّات - قولة ريفارول - بعد النَّسخ - التربة السوداء - أداة الكشف - القرآن - الصَّديق - فهم الحقيقة - المدى الحيويّ - كلمات لشكسبير - رسائل - مواضيع القصص - الإجهاد - التقدم والتأخر في الزمن - كبوة جواد - المطالعة - المرأة - الفتوح السمائية - دفع المحال - أهل الذَّوق - في التفسير - الزَّواج - بنات الأفكار - القرار في السياسة - « ولا تنفِّروا » - من نعم الله - التأريخ - تكرُّه - القصص « البوليسيَّة » - في القرآت - مكاسب العقل - الشرق والغرب - الكلمة - الابتسام للأعداء - المحاكاة - الشيخوخة - سنَّة الحياة - المال - القوَّة والحقّ - الخطابة - الحيلة - حزَّة جديدة - الكاتب العظيم - واحدتهم وواحدتنا - تخاشع العلماء - الفصاحة والبلاغة - انسانية - المشكلة - وأد بنات الأفكار - الأفلام الناطقة - معنى كلمة - عبث مجَّان - قول « إن شاء الله » - أذواق الأقوام - الحيوان والتّيار - « حديث » - أدب إنكليزيّ - العجائب - أدوية جديدة - من الشعر العصريّ - البيان والأخلاق - الطبقات - المعاني والمباني - التشبُّه بالآباء - مشكلات التفَّاح - حكم الديمقراطية - سلِّمْ تسلم - مسألة النَّسل - جار الغيور - الفضيلة والرذيلة - علامات الأمم الصغيرة - أين وأين - طبقات الشعراء - التمثيليَّات - الرَّبيع الجديد - أنواع الأصدقاء - مرض اجتماعيّ - مطارحات - نجاوى قصيرة .

كتابة المذكّرات

كتابة المذكّـرات تنزل في زماننا موضعاً مقدّماً من آداب الأمم . فانّ الكتّـاب يتهافتون عليها ، والقرّاء يقبلون على الجليل والضّـئيل منها . ولا عجب في ذلك ، فانّ الزّمن زمن ميكانيك وطبيعيّـات وصواريخ وذرٍّ وشـعٍّ وهيمنـة على مجهـولات الأفـلاك ، وإغفـال لكلّ ما يقـال له « الشّـخصيّـة الإنسانيّـة » ، حتى صار النّـاس يشوقهم كلُّ لامع برقٍ من ناحية النّـفس ! وليســت المذكّـرات ، في الجملــة ، إلاّ مواضيع خاصّة تُعلّق بمواضيع عامّة ، او مواضيع عامّة يُفاض منها إلى مواضيع خاصّة بأدنى ملابسة . إذ أنّ كاتب المذكّـرات يرى وجوه الأمور بمرآة نفسه ، وينفض هوى صدره في كلّ موضع من مقامات الكلام .

هذا ، والنّـاس بطبعهم يتهاونون بالموفور لهم ، ويولعون بالمضنون به عليهـم . ولله ما أصدق قول من قال : « أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُـنعا » . . .

الرّسائل المكنونة

نشر رسائل الكتّـاب الرّاحلين ، أي رسائلهم الخاصّـة ، يُـنظر اليه من جهات مختلفة . فيقال : انّـها كتابات فيها خصوصيّـات ، ونفض كتمات صدر ، وأشياء من عفو الخاطر ، ما تأنّـى فيهـا الكاتـب ، ولا تروّى طويلاً ، فلا تحلُّ إذاعتها في النّـاس . ويقال : بل تحلُّ ، فهي رسائل أصبحـت في يد التـأريخ . ثمّ يختلف رأي القائلـين بالنّـشر ، فبعض يرى نشرهـا بحذافيرهـا ، وبعض يرى نشر أشياء منهـا وطـيّ أشياء ، وبعض يرى التّـريُّـث في النّـشر حتّـى ينقضي زمن المعاصرة ،

وتأتي أيام خشوع الضمير ، ورفع المودّات والعداوات ، بعد حادث الموت !

ولعلّ الرّأي في ذلك كلّه ، انّه حين يكون في الرّسائل المكنونة ما يتعلّق بالحياة ، أو بالأدب ، أو بأهله ، وان هو جاء نجيّ كاتب مع قلمه ، فانّ في ذلك ما يشفع لإباحة النّشر . إذ انّه من الفائدة واللذة للنّاس ان يقفوا على اشياء لا يجمعها أصحاب الرّسائل الخاصّة في هذه المسائل العامّة ! وهنا اضفْ انّه لا يجوز التّصوّر انّ لهؤلاء الكتّاب الرّاحلين رايين في قضايا الحياة والأدب متباينين ، واحد يخفونه عن النّاس ، وآخر يطلعون به عليهم . . .

هذا ، وليس ببعيد منّا يوم نقول فيه : « أدب رسائل » ، كما نقول اليوم : « أدب مذكّرات » ، و « أدب اعترافات » ، فانّ النّاس يشوقهم حبّ الكشف إلى كلّ مغطّى !

قضيّة الفكاهة

الإنكليز يقولون بلغتهم ما هذا معناه : « فلان عنده حاسّة الرُّوح الفكه » ، يجعلون حبّ الفكاهة سادسةً للحواسّ الخمس ! وهم ، على ما يلوح عليهم من برودة الرُّوح ، أكثر خلق الله احتفالاً بالفكاهة . وبحسبهم في هذا المجال أن يكون عندهم « سويفت » ، و « مارك توين » ، و « أوسكار ويلد » ، وهذا العجوز المعاصر ، الذي أعيا النّاس مكراً ، ولذع نكتة : « برنارد شو » !

أمّا العرب فانّهم لا يعرفون الفكاهة في كتبهم الأ عابرة سبيل ! على انّهم هم الذين يعدّون البرودة في لغتهم من علل الأجسام ، ومن

علل الأرواح ، أيضاً . ففي العربيَّة تجد البَرْد مرادفاً للموت . يقولون : « وبَرَدَ » ، أي مات .

وهكذا ترى انَّ الإنكليز لا يضحكون ، وانما تضحك كتبهم ، وانَّ العرب يضحكون ، وكتبهم لا تضحك . فعسى أن لا يأتينا غداً من يقول انَّنا نحن في الكتب أوفر رزانةً من الإنكليز . . .

إعتراف بالذَّنب . . .

يا طالما توقَّف قلمي في يدي عن السَّبح في بياض الصَّحيفة ، فكأنَّه الفرس في الحران ، لا يريد أن يجري . . . فكنتُ ألقي بالقلم ، وأعود الى نفسي ، أُفتِّش عن السَّبب ، فاذا أنا الذي لم يستطعْ تحريك القلم ! أنا الذي لم يتدبَّر الكلام في نفسه ، قبل أن يتناول قلمه . . .

من المدح المرقص

رأى بعض كتَّاب المصريين جماعة من المشايخ حول « أمّ كلثوم » ، كبيرة مغنِّيات هذا العصر ، وهي تغنِّي ، وهم يتمايلون كالأغصان ، فقال في كلام له ما هذا معناه : أمّ كلثوم نعمة من نعم الدُّنيا ، فما بال هؤلاء لا يملكون نفسهم عنها ، بل هم يحيطون بها من كلِّ جانب ! ! !

الله ! الله ! هذا هو المدح المرقص ، هذا هو الأسلوب في الكتابة الذي تتقطَّع دونه الأعناق - ثمَّ يقولون لكَ انَّ المدح المرقص مضى زمانه . . .

الغُتم الهين

بعد عهد النَّاس بهذه المحدثات العصريَّة ، أمثال السيَّارة

والطيّارة والتلفون واللاسلكي والرّاديو والتلفزيون ، وقد قرّبت كلّ بعيد ، ولفّت الأمكنة بعضها إلى بعض ، لا أعلم سبباً في ترك النّاس للقرى والأرياف ذوات الزّرع والخصب ، وتهافتهم على سكنى الحواضر ، الّلهمّ الاّ طلب الرّزق من أهون سبيل . فانّ الفلاحة لا تعطي الاّ بالمشقّة ، ولا تردُّ الاّ بعد انتظار طويل . والنّاس بعد أن استفحل أمر الآلة في السُّرعة ، وقضاء الحاجات في المأكل والمشرب والملبس والتّقلّب والمعاش ، إلى آخر ما تأثّلوا من المناعم ، أصبحوا وكأنّهم لا يريدون أن يتناولوا أشياء الحياة الاّ برؤوس أصابعهم ! لا تحدّثهم بكدٍّ ، ولا بإعنات ، ولا بصبٍّ دافق لعرق الجبين . . .

وفي الحقيقة انّ اطّراح الشّقاوة ، الذي يتطلّبه البشر في يومهم هذا ، انّما هو الغاية القصوى من كلّ ما يقال له علوم وفنون وصناعات ، ولكن طبع الحياة لا يرضى أن يفوزوا بذلك بلا بدل !

أعرابيّة لا تورّي !

ورد في بعض المظانّ العربيّة القديمة انّ أعرابيّة اجتازت بفتيان يشربون ، فسقوها من شرابهم . فلمّا عملت فيها ثورته ، قالت لهم : « نساؤكم يشربن من هذا ؟ » ، قالوا : « أجل » ، قالت لهم : « إذنْ ، فوالله ، ما يدري أحدكم من أبوه . . . » .

أقول : وعسى أن لا يظنّ القارىء انّ هذه الأعرابيّة الجافية تقصد هنا إلى الفكاهة !

كره الناس للسُّعداء

لا جرم انّ السُّعداء بالعيش يمقتهم النّاس ، وينظرون إلى نعمة الله

عليهم بعين مريضة . لذلك كان يتمنّى « فولتير » لو يُكتب له في حيطان باريس ، بين عيني الرّائح والغادي ، هذه الجملة : « يُعلن فولتير كلَّ صاحب وعدوّ أنّه ليس على شيء من السّعادة . . . » .

لا بدّ من نغصة !

« تصلُّب الشّرايين » ، وهو مصيبة الحضارة ، لا يكون في الصّحراء ، حيث يعيش البدويّ على الإعتدال في المناعم . وشظف العيش ، وهو مصيبة البداوة ، لا يكون في المدينة ، حيث يعيش الحضريّ على الإفراط في المناعم .

واحدة لواحدة كفآء . وكلُّ شيء في هذه الدُّنيا لا بدَّ معه من نغصة ، فانَّ الامور قد أبت الاّ أن تكمل من جهة ، وتنقص من أخرى !

القول والقائل

« النَّظر إلى ما قيل لا إلى من قال » ليست قاعدة عامّة ، إلاّ في ما يكون من قبيل الإتيان بالبدائع والإجادات . وامّا في غير ذلك ، فالأمر يختلف . إذ انَّ احتجاجك في العربيَّة ، مثلاً ، بقول قاله بعض الضّعفة ، ليس كاحتجاجك بقول لابن العلاء ، أو لواحد آخر من هذه الطَّبقة العالية .

وانَّ هذا الذي في اللغة ، هو ما في علوم وصناعات وفنون كثيرة ، تستوي فيها الأستاذيّة على عرش . . .

رؤوس الأموال المعنويّة

رؤوس الأموال المعنويَّة أعلى في القيمة من رؤوس الأموال

الحسيَّة ، وأغلى في الثَّمن . ومشتري التُّحف الفنيَّة بالثَّمن الغالي انَّما هو كمشتري الكتاب ، أو المجلَّة ، أو الجريدة . الأوَّل يشتري إبداع المتفنِّنين ، لا الخشب ، ولا الحجر ، ولا الزُّجاج والحديد والكتَّان وزيت الدِّهان ، إلى آخر ما ينبغي لإخراج المستطرفات الفنيَّة . ويشتري الآخر إبداع الكتَّاب ، لا الحبر ، ولا الورق ، ولا مسوك التَّجليد . وعلى قدر ما يتحضَّر المجتمع تروج سوق هذه البضاعة الشَّائقة .

فانظرْ إلى رؤوس الأموال المعنويَّة هذه كم هي منحطَّة الثَّمن بنفسها ، وكم هي غاليته بقيمتها !

ومن أجل ذلك قال شارل موراس ، في كلام له على المقابلة بين الضَّروريّ والكماليّ من أشياء الناس : انَّ رغيف الخبز أرخص من ورقة الكتاب بمرَّات . . .

تغيرُّ الزَّمن

في تقويم نشرته ، من شهرين ، « الشَّركة الأوروبيَّة للمخطَّطات الجغرافيَّة » ، في باريس ، انَّه في هذه العشرين الأخيرة من السِّنين قام أربع وثلاثون دولة جديدة ، وزال من الوجود سبع دول ، وحصل في المخطَّطات واحد وخمسون ألف كيلومتر حدوداً دوليَّة جديدة ، وخمسة وسبعون ألف تغيير في أسماء المواضع المشهورة في أطراف الدُّنيا .

فيا حسرتا لأولئك الذين في الحران ـ إنَّهم لا يريدون أن يتغيَّروا بتغيرُّ الزَّمن !

قضيَّة الوطن

حبُّ السَّكن يسوق إلى حبِّ القرية ، أو المدينة ، من أجل السَّكن . وحبُّ القرية ، أو المدينة ، يسوق إلى حبِّ الوطن من أجل واحدة منهما . فلا أدري كيف لا يسوق حبُّ الوطن إلى حبِّ أوطان النَّاس مجموعة معاً في مثل قولك : العالم ، أو المعمور ، أو الدُّنيا !

هذه خاطرة اجتماعيَّة ، لا شيوعيَّة فيها ، كما ترى ، ولكنَّها تفضي إلى التَّفكير في حدود الأوطان ، من جهة الضِّيق والسَّعة في رقعة أرضها ، وكون ذلك تخطيط مخطِّط ، لا وحي واحٍ من السماء . . .

بين اللازم والألزم

هنيئاً لكلاب نيويورك قوامها المعتدل ، ولكلاب سان فرنسيسكو معاطفها الشّتائيَّة التي لا يخرقها البرْد ! فلقد جاء في بريد أوروبَّة الأخير انَّ في نيويورك قامت شركة لبيع وجبات خاصَّة بالكلاب ، في علب على الوزن . فيأكل الكلب ويشرب بالقانون ، حتى لا يزيد بدنه في السِّمن عن حدِّ الكفاية . تقنين صحِّيّ « لابن وازع » ، أي « ريجيم » بأربعة وعشرين قيراطاً ، كما نقول في لبنان ! وانَّ في سان فرنسيسكو طالب رئيس « جمعيَّة الرِّفق بالحيوان » بجعل كسوة للكلاب شتائيَّة ، فيها البتُّ الغليظ ، وفيها المعطف المسمَّك ، والممطر ، والشَّملة (وقد سامح هذا الرَّئيس المحترم في الأُربة وزيق القميص ، أي في الكرافات والقبَّة) . . .

فأين صاحبنا الأعرابِّي القديم ، الذي لم يكن له من الملبس ، على اختلاف فصول السَّنة ، الاَّ بتُّه ، وأنشد فيه قوله المشهور :

من يكُ ذا بتٍّ ، فهذا بتّي ،

مصيِّف ، مقيِّظ ، مشتّي !

حتى يرى كلاب سان فرنسيسكو في الأصواف والمطارف المزرّرة . . . وأين صاحبنا الأعرابي الآخر ، وهو الذي يقول في وصف مأكله ومشربه :

الأبيضان أبردا عظامي ،

ألماءُ واللفت بلا إدامِ !

حتى يشهد كلاب نيويورك في « الرّيجيم الصحّيّ » . . .

هذا ، وعسى أن لا يأخذ عندنا فريق من السيّدات ، والسّادة الرّجال ، من الذين يقتدون بالأجانب في الطّالع والنّازل ، بما يجري في سان فرنسيسكو ، وفي نيويورك . فانّ الأميركيّين ، ومن في بلدان أوروبّة ، قد ضمنوا في دوائر المعاونة في الحكومة ، وفي مصارف القروض ، وجمعيّات الإحسان ، وفي مستشفيات المجّان ، والمياتم المجّان ، والمآوي المجّان ، كلّ ما يوسّع على الإنسان في رفه العيش ، فما يضرُّهم بعد ذلك إن هم أخذوا بالرّحمة حيواناً أليفاً أنيساً ! ؟ والقاعدة الفقهية تقول : « يقوم بالنّافلة من قام بالفريضة » .

أمّا نحن ، في هذه النّاحية من الدُّنيا ، فليس لنا أن نقفز في السلّم إلى هذه الدّرجة ! ذلك في باب الاجتماع اسمه : اللازم ، ونحن في حاجة شديدة إلى الألزم . . .

أثر الأجداد

أخذ العلم الحديث ينظر إلى أثر السّلف في الخلف نظراً بعيداً . فقد

كاد يجمع رأى فريق غير قليل من علماء النّفس على انّ عامل الأجداد أعظم في التّأثير من عامل الوالدين . فكأنّ لفظ « الجدود » في قول القائل : « نعم الجدود ولكن بئس من تركوا » لم يكن من رمية رامٍ ، ولا من أجل إقامة الوزن ! بل كأنّ ابا الطّيّب أراد إلى ذلك ، أيضاً ، في قوله :

أرى الأجداد تغلبها كثيراً ،

على الأولاد ، أخلاقُ اللّئامِ !

ولو أنّه أراد المقابلة في « الأجداد » و « الأولاد » ، ليس الأ ، لما أعجزه أن يقول « أرى الآباء » و « على الأبناء » ، فانّ هذه آنس ، وأخفّ ، وأقرب ارتباطاً في المعنى . وليس المتنبيء هو من تخفى عليه هذه الدّقائق . . .

القوّة الجديدة

ليس من الشّرط عليك أن تكون شيوعيّاً ، مشبوب النّفس ، أو ديمقراطيّاً محافظاً ، ساكن الطّائر ، حتى تدرك انّ « الدّم الأزرق » و « الذّهب الأصفر » هما القوّتان القديمتان اللتان جهدا جهدهما في الأيّام للسّيطرة على البشر ، وتحكيم الهول في االنّفوس ، تمكيناً للسّيطرة ، وانّ القوّة العسكريّة أخذت تحلّ في زماننا ، إلى جانب القوّة « الصّفراء » ، محلّ القوّة « الزّرقاء » !

ولعمرك ! ليست هذه القوّة الجديدة هي التي تعرف التّقاصر عن الغاية في للسّيطرة ، وتحكيم الهول . . .

« الأشياء العصريَّة » !

يقول بعض النُّقَّاد للشّاعر الأصيل ، وللكاتب الأصيل : هاتا لنا « أشياء عصريَّة » ! وأيّ أشياء عصريَّة يريد هؤلاء منهما ؟ . . . فإنَّما رجل الفنّ يحمل في نفسه ، أي في هذه العوالم العميقة من مطاوي صدره ، « عصريَّة » خاصَّة به ، تأخذ من كل ما يحيط بها في زمان صاحبها أخذ العين من الشُّعاع ، والأذن من الصَّوت ، ليس غير . . . فمن المحال الكثير قول هؤلاء المساكين من النُّقَّاد انَّ رجل الفنّ مكلَّف تصوير مشكلات عصره تصوير الفوتوغراف ، أو اليد !

ألا فليطرحْ رجل الفنّ في محيط هذه الحياة البشريَّة ما تفيض به نفسه من جرائد الوجدان والفكر ، التي تظلُّ تطفو فوق الأمواج العالية حتى آخر الأزمنة ، وليلجّجْ غيره على « الأشياء العصريَّة » ، وما شاكل هذه الأشياء العصريَّة » . . .

الالتئام في الحكومات الديمقراطيَّة

نزل كثير من آراء بول لروابوليو (وهو من أئمة المؤلفين في علمي الاقتصاد والسِّياسة) من مكانه ، بعد أن دار الزَّمن بالمجتمعات الإنسانيَّة هذا الدَّوران المتعجِّل . إلاَّ انَّ رأيه في الأسباب التي ينجم منها التَّناقض ، أو عدم الالتئام ، في دواوين الحكومة في البلدان الدّيمقراطيَّة ، لا يزال ثابتاً في منزلته العالية من الصَّواب ، وهو قوله في كتابه المشهور « الموجز في علم الاقتصاد » : « انَّ الحكومة لا تستطيع ، إلاَّ فيما ندر ، أن تجعل مستخدميها على شاكلة واحدة ، بدليل انَّ نوّابها يتخالفون في أكثر أمورهم ، ويقضي بعضهم على آراء بعض ، وانَّ الذين يتولون المناصب فيها لا تستقرُّ بهم مناصبهم ، فينجم من ذلك

تناقض ، أو عدم التئام في هيأة الحكومة » .

ومن أبرع الغمز ، انَّ لروابوليو يسوق هذا الكلام في باب ما جعل عنوانه « الأسباب التي توجب على الحكومة التَّواضع » . . .

الموسيقى العربيَّة

في الموسيقى العربيَّة اليوم من الخلاف ، وتناطح الآراء والأذواق ، ما في الأدب العربيّ ، سواء بسواء ، فمن جماعة الموسيقى من يقول ، مثلاً ، انَّ « الصَّوت » المعروف بالسِّيكاه ، وهو الثالث من « ديوان المقام » ، ليس الاَّ وحيداً ، مطلقاً . ويقول آخرون بالخلاف ، أي انَّ السِّيكاه يمكن تغييره مع « المقامات » .

ومنهم من يقول ، مثلاً ، بصون الموسيقى عندنا ، خالصة من كل مزج ، فلا يدخل فيها لحن أجنبيّ ، ولا نغم أجنبيّ ، ولا آلة للموسيقى أجنبيَّة . ويقول غيرهم بالمزج ، وبالآلات ، حتى آلات النَّحاس والزَّجاج ، إلى آخر ما هناك من اختلاف في الذَّوق والرَّأي .

وعندي انَّ هذا الذي نجده اليوم في الموسيقى العربيَّة هو ما نجده في الآداب العربيَّة : تقليد أعمى من المغلوب لكلِّ ما عند الغالب ، أي على قاعدة ابن خلدون المشهورة . وإنَّ الأجانب لا يزالون على رفعة فوقنا ، بينما نحن لا نزال فوق هذا الحصير ، برغم ما نبت لنا في مخطَّط الجغرافية من ألوان دول ، وأسماء دول . . .

المرأة وراء الستار

إذا اجتمع الرَّجل بامرأتين ، سكت هو وتكلَّمتا هما ! فأمَّا إذا

اجتمع بامرأة واحدة ، فانما هي التي تسكت ، وهو الذي يتكلم ! فانظرْ ما أضعف المرأة حين تكون وراء ستار . . .

الكتابة في الفلسفة

الكتابة في الفلسفة محاولة جاهدة للوقوف على حقائق الأشياء ، ومفاهيم الحياة . على انَّ الفلسفة ، من سوء الحظّ ، لا تفضي إلى ذلك الوقوف ، ولكنّها في آخر الأمر تنتهي بالكاتب إلى معرفة أسلوب الكتابة فيها ، ليس غير !

لذلك أجدني أكره هذا النّوع من الكتابة ، فانَّه ينتهي إلى غير شيء . . .

الصُّور المشوَّهة

الصُّور المشوَّهة فنٌّ طلع به الأميركيون في السينما للإضحاك والإطراف . فترى هناك من حركات الأشياء والنَّباتات ، وتصرُّف أشباه للبشر والحيوانات عجيبة ، ومن اختلاط الأمكنة ، وطيِّ المسافات والأوقات ، ومن مخالفة المقتضى في المسموع والمنظور ، ما لا تخطر غرائبه على القلب ، ولا تدخل في العقل ! وليس ذلك جنون مخيِّلات ، ولا اضطراب عقول ، ولكنَّ الإنسان إذا سئم العاديّ جنح إلى غير المألوف ، اذ انّه لا يستطيع أن يجنح إلى شيء آخر !

والأميركيّ ما برح رأساً في باب الإطراف ، وحبِّ الأمور الخارقة .

العربيّة صدرها واسع . . .

وقوع الحافر على الحافر في المعاني يحصل بين لغة وأخرى حصوله في

اللغة الواحدة . ولقد جاء للسيدة « دي سيثينيه » في بعض رسائلها إلى بنتها ، وكانت مصدورة ، قولها (وهو من أشهر الرّقائق التي تدور في كتب الأدب الفرنسويّ) : « يا بنتي : انّ صدرك يوجعني ! » . وجاء في كتاب « القضاة » هذا الكلام لسهل بن عليّ ، قال : « كنتُ الازم ابن نعيم القاضي ، وأجالسه ، وأنا يومئذ حديث السنّ . وكنت أراه يتّجر بالزّيت ، فقلت له : وأنت أيضاً تتّجر ؟ فضرب بيده على كتفي ، ثمّ قال : انتظرْ حتى تجوع ببطن غيرك ! فقلت في نفسي : كيف يجوع إنسان ببطن غيره ؟ فلما ابتليتُ بالعيال ، إذا أنا أجوع ببطونهم . . . » .

السيدة « دي سيقينيه » يوجعها صدر بنتها المصدورة ، وابن نعيم القاضي يخاف أن يجوع ببطون عياله ! وهذا ، كما ترى ، من أعجب ما يكون توارد الخواطر بين لغة ولغة .

ثمّ فلينظر القارىء إلى فصاحة هذه العربيّة التي تتسع لكل شيء ، حتى لجوع المرء ببطن غيره ، ولا تقصّر عما يظنّنه بعض الحمقى والمغفّلين وقفاً على الفصاحات الأجنبيّة !

الوعود

حقيق بمن وعدته أنا بقضاء حاجة له أن يبيت في فرح الوعد ، وحقيق بي أن أبيت في همّ الإنجاز ! ولكننا نتلاقى معاً في الهمّ ، يوم لا أستطيع إنجاز وعدي : صاحبي يحزن عندئذ لذهاب حاجته عنه ، وأنا أحزن لتعذّرها عليّ ، وفواتها عليه .

ولكنّ النّاس في أيّامهم هذه تعوّد بعضهم من بعض عدم الإنجاز في الوعود ، فقلّ همّ الموعود ، وقلّ همّ الواعد . . .

العادة

ما رأيتُ كذوباً يحبُّ الكذب ، ولا سفيهاً يحبُّ السّفاهة ، ولا نماماً يحبُّ النّميمة ، ولا رأيتُ راكب فعلة أخرى من العار يحبُّ ركوبها . ولكن هي النّفس ما عَوَّدْتَهـا تتعوَّد !

نمطان من النّقد

من النّقد الذي لا نهاية لحسنه في اللطف ، وبراعة النُّكتة ، وعدم الفحش وسوء القول ، على كونه كالسهم يغرز غرزاً ، ما ذكره كليمنصو في المقابلة بين صاحبيه بريّان وبوانكاره ، قال : « بوانكاره يعرف كلَّ شيء ، ولا يفهم شيئاً ، وبريّان لا يعرف شيئاً ، ويفهم كلَّ شيء . . . » .

وهو نمط من النّقد ينبغي له شيء من التأمُّل ، حتى يكشف عن حسنه ، فكأنّه الرمانة ، عليك أن تنقفها لتستخرج ما فيها .

أمّا قول سنت بوف في بلزاك : « السيد بلزاك مشغول اليوم بكتابة مائة مجلد لن يقرأها واحد من النّاس . . . » ، وهو القول الذي يردده النُّقاد في الأدب الفرنسويّ كثيراً ، فانَّ فيه من الحزازة السّافرة أكثر مما فيه من النُّكتة المستترة . وهذا ، في رأيي ، أقلّ مذاهب النّقد براعةً ، ولطف موقع .

الشُّيوخ أبصر والشّباب اشعر

قول المثل القديم : « حال الجريض دون القريض » ، أي حال الغمُّ والغصص دون الشّعر والطّرب ، لا يقدِّر حقيقته إلاَّ الشُّيوخ من الشُّعراء . فهم الذين علموا بأخرة انَّ خير القريض ما جاء في العهد

الغريض من العمر . ولكنَّ الشيوخ أبصر بالشعر ، والشباب أشعر ، ولا ريب ـ « روائح الجنَّة في الشباب » !

اللَّهمَّ ، نعم ! في الشباب . . .

تعليم العربيّة

لا يمكن التَّصوُّر أنَّ هذه الطرائق المتصعِّبة في تعليم العربيّة في مدارس زماننا ، سوف تكون هي طرائق التَّعليم في مستقبل الزَّمن !

وإني أعترف هنا انَّ عهدي بأيام الطلب ، وتحصيل العربيَّة ، لا يزال إلى اليوم ، وقد ارتفعت بي السنّ ، تقضّ ذكراه مضجعي في بعض الليالي !! فأرى في ما يرى النائم كتاب ابن عقيل على « الألفيَّة » يرقص بين عينيَّ . . . وإنَّ الذي يقول هذا الكلام هو من كُتب له في لوح النعم أن يتخرَّج على الشيخ البستاني ، صاحب « البستان » ! فما ظنُّك في من جهدهم التَّحصيل عند المجمجمين ، والمتعسِّفين ، ومحجِّري الواسع ؟!!

نعم ، قد تغيَّر الأمر كثيراً بعد أيامنا بالطلب ، وجاءت أيام أبنائنا ببعض اليسر في كتب التَّصريف والنَّحو . ولكنَّهم فصلوا عن ابن عقيل ، وابن مالك ، وابن هشام ، وعن « بحث المطالب » ، في صرف « باخوسه » ، ونحو « بستانيّه » ، وجاءوا إلى الشرتوني ، وأشباه الشرتوني ، من نقلة المؤلِّفين في الأوضاع ! ولله ما أشبه حجل الجبال بألوان صخرها . . .

الدِّيمقراطيَّة

حكم الدِّيمقراطيَّة ، أي حكم الشعب من طريق الانتخاب

النّيابيّ ، أسلوب في الحكم قد خابت تجربته ، وظهر إفلاس الرّأي فيه عندنا ، وفي أوروبة (التي هي منبع الدّيمقراطيّة !) منذ خمس وعشرين سنة ، وتزيد . ولكنّ المسألة هي انّ النّاس لم يجدوا ، إلى اليوم ، أسلوباً جديداً يبدلون به هذا الأسلوب . ولقد جنحوا من أعوام إلى « الديكتاتوريّة » ، يجرّبون التّسلّط والمتسلطين ، فجاء ذلك من قبيل الاستجارة بالنّار من الرّمضاء !

تغيُّر الأشياء

ما تغيَّر الكتاب الذي كنتَ لا ترى فيه شيئاً ، فصرتَ ترى فيه أشياء كثيرة ! وإنّما الذي تغيَّر هو أنت ، أيها القارىء . . . فإنّك قرأت الكتاب في زمن الحداثة ، ثمّ قرأته في الكهولة ، فإذا الكتاب غير الكتاب !

القوانين عندنا

هذه الدُّول العربيّة ، في مشرقها ومغربها ، تنتف في القوانين والأوضاع من كلّ ريش في أوروبّة وأميركة ! فهي تأخذ ، مثلاً ، من سويسرة وهولندة ، كما تأخذ من فرنسة وإسبانية والولايات المتّحدة الأميركيّة . ونحن في لبنان لا نزال نجعل فرنسة « على حندورة عيننا » ، كما تقول العرب . من نارها نقبس في كلّ ما نطلع به في القوانين . فكأنّ القوانين تُجلب في الأقوام كما تُجلب البضاعة !

وإني لا أرى في بحث التّفصيل على القدّ في القوانين ، وترك التّقليد والاقتباس في غير مواضعه ، كلاماً يبلغ في الصّواب مبالغ التّعريف المأثور عن « منتسكيو » ، وهو قوله : « القوانين تشتق من طبيعة الأشياء » .

الجُبّة والقميص المطلوبان . . .

« الأمم المتّحدة » بحيرتها في تدبير القضايا مع الشّعوب (ويا طالما حارت قبلها ، في ذلك ، أختها جمعيّة الأمم . . .) تذكرني القول المشهور :

قالوا : اقترح شيئاً نُجدْ لك طبخه ،
قلتُ : اطبخوا لي جبّةً وقميصا !

وأنا أقول : لا تأتوا الشّعوب بمؤتمرات ولجان ووفود وعهود ومواثق ، بل هاتوا لها الدّوآء الذي يشفي الدُّول القويّة من الطّمع في منابع الزُّيوت ، وفي كلِّ معبر من الأرض يُفضى منه إلى منابع زيوت .

كلام « أستاذة » !

في صدد الكلام على البيئة التي راجت فيها الخلاعة ، وفشا الفساد ، وتناهت الحريّة المطلقة للمرأة ، يعجبني جدّاً اعتذار إحدى خواطىء العرب بقولها : « قربُ الوساد ، وطولُ السّواد . . . » .

إنه كلام « أستاذة . . . » يصيب التّشخيص ، فهو عن فحص واختبار !

رفقاً بالأبناء . . .

السّبب الأوّل في ما تراه من حال أبنائنا بالشّكّ ، والقلق ، وتضايق الصّدر ، وفقدان الوجهة ، وتقبيح الأوضاع ، وتعييب الماضي ، والتّبجُّج بالمعارف اليسيرة ، والتّطاول على أهل الأستاذيّة ، إنما مردُّه إلى هذا الذي يجدونه في العلم والاجتماع والأدب ، من كون كلِّ رأي لا يساوي أكثر مما يساوي الرّأي الذي يخالفه ! وهم لا يزالون في

ليان العود ، هيهات أن يكون لهم أن يعلموا كيف يخلصون من ذلك إلى الرَّأي الذي تمليه النَّفس في مختلف المسائل ، بعد مخضها للآراء . واستخراج الزُّبد لا يأتي من مخض قليل ، وأيَّام قصيرة . فلسوف يظلُّ الزُّبد يختلط عند أبنائنا بالخاثر ، حتَّى تجرّهم الدُّنيا إلى ما نحن فيه من خشونة العود . يومئذٍ تقرُّ فورتهم ، ويذهب ما بهم .

فرفقاً بالأبناء . . .

الثَّواب المنتظر

ما أتعس ما تكون عاقبة هذه الدُّنيا ، إذا هي لم تثب الالم جزاءَه ، فلا توليه شيئاً كالإكبار ، أو كالمكافأة ، أو ما يكون ، في الأقلّ ، كالبلاسم التي تُضمَّد بها الجراح !

وإني لا أنظر في قضيَّة هذه « العاقبة » بعين من قلبي ، فأتأمَّل ، مثلاً ، في لذَّة وشفاء صدر ، ما سوف يطرح من الاشواق في لقاء الذين سبقتنا رحالهم إلى المنازل الخفيَّة ، ولا ما سوف يكون من اجتماع رخيٍّ لا يعرف فصل حبيب عن حبيب . . . وإنما أنا أرى بعين العقل انَّه ليس في الممكنات ان يكون الوجود ، أي هذا الذي تراه عيناك من دنيا وأفلاك ونواميس وسنن كونيَّة ، مفضياً إلى عدم !

وهكذا يلحق عندي بما يراه العقل في ذلك ، انَّ الألم الذي هو أقسى ما تفرضه الحياة على العابرين في طريقها ، لا بدَّ لعاقبتها المنتظرة من أن تثيب الجزاء على حمل أثقاله . . .

خير التَّقدُّم العلميّ وشرُّه

لقد وقع لي منذ أيَّام أن أطالع كتابين اثنين في يوم واحد (وهو مما

بات لا يقع لي كلَّ يوم بعد الـّشباب !!!) . الأوَّل في ما يستطيعه العلم من الخير ، والآخر في ما يستطيعه من الشرّ .

وقد وجدتُ في « كتاب الخير » ، وهو يدور على عجائب « الالكترونية » ، انَّ العلماء ، بعد اختراع الأيدي « الالكترونـيَّة » ، والأرجل « الالكترونـيَّة » ، توفَّقوا أخيراً في اختراع عيون « الكترونـيَّة » ، ترى وتتأثَّر بالـُّشعاع ، كما ترى به العين الآدميَّة وتتأثَّر ، وانَّ هناك اتصالاً دقيقاً يقوم بين ما يقال له « الأعصاب » ، في تلك العيون ، وما يقال له « الأعصاب » في تلك الأيدي والأرجل . فتدلُّ العين « الالكترونـيَّة » بذلك إلى مواقع الجلاء ، وتجري على دلالتها أخواتها الأرجل والأيدي في أمان الله !

ثمَّ اني وجدتُ في الكتاب الآخر (كتاب الشرّ) ، وهو في موضوع « القنابل الذَّرِّيَّة » ، انَّ الخطر من الإشعاع الذَّرِّيِّ هو فوق ما يتصوَّره العقل ! قال المؤلف : انَّه عند تعرُّض الخلايا الحيويَّة في الجسم البشريّ للإشعاع ، لا بدَّ من حصول إصابة سرطانـيَّة في البضعات ، أو من حصول جنون يأخذ بمادَّة الحياة في الأنسجة !

عيون « الكترونـيَّة » تحسُّ ، وترى ، وتدلُّ الحركة إلى الطريق ؟ وإشعاع ذرِّيّ يصيب بالـّسرطان ، وبالجنون في أنسجة الجسم ؟ فالعلم إذنْ في سباق على الخير والشرّ ! غنم من هنا ، وغرم من هنا . ويا ليت شعري ، هل يفي خير هذا بشرّ هذا ؟؟؟

المادَّة والرُّوح

من أحسن ما قالتـه السيدة « كوليت » ، الكاتبـة الفرنسـوية

المعروفة ، في كلام لها على انَّ المدنيَّة الصَّحيحة تقوم على قدمين : الرُّوحيَّة والماديَّة ، وانَّ الماديَّة يفضي بها الأمر إلى الاستزادة من متع الحياة ، وانَّه لولا الأسباب الماديَّة لما كان للرُّوحيَّة أن تنعم بتلك المتع : ينبغي أن تكون المادَّة والرُّوح في اتِّحاد مكين ، لا ينقسم ، ولا ينفصم ! » .

أقول : انَّ قيام هذه الوحدة ، من روح ومادَّة ، هو شرط الشُّروط في المدنيَّة الفاضلة ، ولا ريب . ولكن كيف ، لعمرك ، يمكن الجمع بينهما دون أن تطغى الواحدة منهما على الأخرى ! . . .

لمن يُكتب الأدب ؟

روى الأستاذ يوسف السّباعي انَّ الدكتور طه حسين قال في بعض جلسات « نادي القصَّة » ، في القاهرة : « يجب أن يظلَّ الأدب عزيزاً ، عالياً ، محتفظاً باصالته ، وطيب معدنه ، لا أن يهبط ويغدو في متناول كلّ من هبَّ ودبَّ ! » . وانَّه قال ، أيضاً : « الأدب كالمرأة الحسناء ، أفترون لها أن تبقى عزيزة المنال ، أم أن تتبذَّل حتى تغدو في متناول كلِّ يد ؟ » .

قال الأستاذ السّباعي : « وأذكر انَّني أجبته ، وأنا أضحك : بل الأفضل ، يا دكتور ، أن تتبذَّل وتغدو في متناول كلّ يد ، كيما تتناولها أيدينا . . . فقال الدكتور طه : هذا هو الأفضل لكم ، ولا ريب ، ولكنَّه ليس بالأفضل لها . . . » .

وهنا أردف الأستاذ السّباعي على ذلك قوله : « فنقطة الخلاف ، إذنْ ، هي هذه : أيُّ الإثنين هو الذي يجب أن يكون موضع الاهتمام :

الأدب أم قرّاؤه ، والمادّة المستهلَكة ، أم الجمهور المستهلك ؟! » إلى آخر قوله .

أنا أقف هذه المرّة إلى جانب الدكتور طه ، وأقول للأخ يوسف : رويدك ، يا ابن محمد السّباعي ! فمعاذ الله أن تصبح ، مثلاً ، إجادات أبيك في كتاب « الصّور » من البضاعة التي تُساق إلى « سفرجي » في القاهرة ، أو إلى « عربجي » في الاسكندرية . . .

« عالم » المرأة

هو نابوليون بونابرت الذي خرّ جاثياً بين قدمي « جوزفين » ! وهو مارك أنطونيو الذي سقط فوق قدمي « كليوبطرة » جثّة هامدة ! وانّي ما وجدتُ قطُّ انَّ امرأة فعلت مثل ذلك في الهوى . فكأنَّ القويّ ، المتين العضل ، والعريض الألواح ، هو الذي كُتب عليه في الميدان أن يقع في الأرض ، لا هذه النّاعمة ، الواهنة ، المرفوعة فوق قدميها كالزّهرة !

يا سبحان الله ! كلُّ شيء يتّصل بالمرأة ، ولو بخيط دقيق ، لا يمكن دخوله في حساب المنطق . . . ومن ذا الذي يزعم ، يا سيّدتي ، انَّ اثنين واثنين ، يكون حاصلهما عندك أربعة ؟؟؟

« الوجوديّة » و « الوجوديّون »

أنا معترف هنا ـ ولا استحياء بجهل ! ـ انَّ هذا الأدب الجليب ، الذي يقال له « الوجوديّ » ، والذي له يُطنطن في طائفة من الكتب والصُّحف في لبنان ، في هذه الأيام الأخيرة ، لا أفهم معه قبيلاً من دبير ! ولقد كنتُ ، وأنا أطالع لجماعة من أشهر كتّاب « الوجوديّين » في زماننا ، أمثال « كامي » ، و « سارتر » ، و « غبريل مرسيل » ،

و « سيمونَ دي بوفوار » ، وكأنني أستخرج بالأزاميل فتائت من خواطرهم وأغراضهم ! حجارة سوداء قاسية ، لا تعرف ملاسةً ، ولا بهقاً . . . وناهيك « بذاتيّة وجوديّة » ، و « بوعي » ، و « باللاوعي » ، و باللاشيء » ، و « باللاكيت » ، و « باللاكذا » ، إلى آخر هذه الغثائث التي تطرّقت إلى الأدب ، وتريد أن تمدّ سيقانها فوق بساطه ، وبين روحه وريحانه !

لستُ أذكر من ذا الكاتب المصريّ الذي قال في « الوجوديّة » ، انها أشهر المجهولات في مصر ! لا فُضَّ فوه . . . ولو أنّه أضاف إلى قوله ، وفي لبنان ، وفي بلاد العرب قاطبةً ، بل في الخافقين ، لما أبعد . . .

إنَّ « الوجوديّة » تصرَّم يومها في أوروبة ، وهي منشأ الأدب « الوجوديّ » ، والفلسفة « الوجوديّة » ، فما لهم يجرّون إلى مطلع الشّمس هذه الغياهب التي نزلت ، والحمد لله ، في الحجاب ؟!!

المرأة تحكم . . .

هيهات أن تنظر المرأة إلى الأمور من نافذة عقلها ، وانما تنظر من نافذة قلبها أبداً ! فاذا هي خالفت القاعدة جاز الارتياب في أنوثتها ، ووجب الفحص . . .

وبنفسي أن أرى المرأة ، مثلاً ، تجلس للقضاء ، حتى إذا جاءها في المدّعى عليهم شابٌ أبلج الغرّة ، أبيض ، أهيف ، ماجت في مكانها ، وقالت له ، وقد تحيّرت عيناها كما يتحيّرُ البصر من النّظر إلى الثّلج :
« ـ وأنتَ ، يا نور عينيَّ ، ما لك تخالف القانون ! . . . » .

همومي المزعومة

كتب منذ أيام بعض ناشئة الكتّاب في القاهرة يقول ، وهو يظنُّ ، حفظه الله ، انه بذلك يرفع من قدري :

« ولعلَّ اهمَّ ما يهمُّ أمين نخلة في شعره ونثره ، هو إصلاح المجتمع » .

فأنا أقول له :

ـ لا ، يا حبيبي ، ليس من همي في شيء اصلاح هذه الدُّنيا ! بل تراني أحبُّها ، وأصف حبِّي لها ، لا غير . ولا بأس ، بعد ذلك ، أن يجيء في هذا الوصف ما يحبِّبها ، أيضاً ، إلى النَّاس . . .

صنف من المرضى

إنَّ الله ، سبحانه ، لم يخلق بعد حسن الوجوه ، وحسن الأزاهر ، شيئاً أفعل في النَّفس ، ولا الذَّ لها ، ولا أقوى في تحريك مواجيدها ، من الموسيقى !

فما بال هؤلاء الذين لا يحسُّون بين يدي الموسيقى طرباً ، ولا شجواً ، ولا رحمة قلب ، ولا نشاط أمل ، ولا اهتزاز أريحيَّة ، ولا أنفة من استكانة ، لا يهرعون إلى المصحَّات والأطبَّة !

مواطن العزلة

يطلب النَّاس العزلة في بطون الأودية ، أو في شعفات الذُّرى ، أو في كثبان الشَّواطىء ، أو في مغامض الغاب . وانَّما هي في النُّفوس التي وراء الصُّدور . هناك يلقى المرء عزلته ، وينعم بالسَّكينة ، ويرفه بالهدوء .

فانظر ما أبعد النّاس من نفوسهم ، وما أبعدهم من مواطن الاعتزال . . .

حسرة مشروطة

إذا صحّ ما يقوله في هذه الأيّام الأخيرة جماعة من علماء الأسرار الكونيّة من انّ هذه « الصّحاف الطّائرة » ، التي تمرّ مرورها السّريع بإزاء الأرض ، انما هي بُردُ بعض الكواكب إلينا ، وانّ « البحر الميت » ، وهو الذي لا يتحرّك فيه حياة ، ما أصبح بين البحار هكذا ، إلاّ لما فُجّر في جوفه من قنابر نوويّة ، هي من صنع كوكب قريب في الكواكب ، وانّ أصواتاً ، وهمسات عجيبة ، ليست جوانب الأرض مصادرها ، تطرق في الأحايين الآلات الخاصّة بوقع الصّوت في مدارات الأفلاك ، فاذا صحّت هذه الأقوال ، أو صحّ في الأقلّ بعضها ، كان الأمر البشريّ مقبلاً على التّغيير من رأس إلى عقب ، وكان تحسّرنا يومئذ شديداً . فانما نكون نحن ، أبناء هذا الزّمن ، قد بكّرنا في المجيء إلى الدّنيا . . .

الشّرط المقدّم

يقول الخوارزميّ انّ الشّعر علم يُنال بالجدّ والمثابرة . قلتُ : وأين السّليقة ؟؟؟

نعم ! لم يبقَ في هذا الزّمن الذي قام فيه العلم ، والاستنباط ، وسعة الإطّلاع ، مجال لشاعر كيما يقول ما قاله بعض الأعراب يفتخر انّه يتكلّم بالسّليقيّة ، اي عن طبع لا عن تعلّم :

ولستُ بنحويٍّ يلوك لسانه ،
ولكن سليقيٌّ يقول ، فيُعربُ !

ولكنَّ السَّليقة ما برحت هي الشَّرط المقدَّم ، وإلاَّ جاء الشِّعر حبراً لا يلتمع ، كما كان يقول شبلي الملاَّط (شاعر الأرز) .

من فلسفة الحكم

الدَّوابُّ في مرابطها لا تحرِّك ساكناً ، إلاَّ إذا قلَّ العلف بين يديها . فأمَّا إذا توافر هذا الذي تُطعمه ، فلا رفس ، ولا لبط ، ولا ضرب بالقوائم . فكأنَّها في ذلك تقلِّد النَّاس ، وتتبعهم من غير تأمُّل ، ولا نظر !

هذه حقيقة معلومة في بداهة العقول ، لا تحتاج إلى قلم من عيار قلم ڤولتير ، مثلاً ، حتى يفصِّل في صوابها ، ويفيض في الدَّلالة عليها ! ولكن من لكَ بمن يُفهم الحكومات في هذه المجتمعات الحاضرة ، (وهي التي يضيق ذرعها بقضايا الشُّيوعيَّة ، والاشتراكية ، والإضراب ، والنَّقابات ، والعمَّال ، والتَّأثُّل ، ورأس المال ، وإدارة الإنتاج) لغة الدَّوابِّ !!!

من نعم الحياة

إنَّ القلوب الواعية تجد في فرحة العصفور على الغصن ، وحكِّ جناحيه لورقة بعد ورقة ، نعمةً من نعم الحرِّيَّة . وتجد في عطف زهرة الأقحوان على أختها الأقحوانة نعمةً من نعم الحبِّ ، وفي قيام واحدة السَّنابل على ساقها ، وهي مثقلة الرَّأس ، نعمةً من نعم الخير !

فيا حرَّ صدري على هؤلاء الذين لا يرون في الحياة حرِّيَّةً ، ولا حبّاً ، ولا خيراً عميماً . بل هم يوصدون نوافذ بيوتهم ، ونوافذ

قلوبهم ، فلا تقع عيونهم على عصفور يزيك ، أو أقحوانة تنحني ، أو سنبلة تنعطف في الرِّيح . . .

المدنيَّة الوسط

إنَّ المدنيَّة التي تقوم على المادَّة وحدها تقصُر عن الوفاء بحاجة المجتمع البشريّ ، وهكذا المدنيَّة التي تقوم على الرُّوحيَّة وحدها ، فانَّها تقصُر أيضاً عن ذلك . فمدنيَّة الصِّين والهند ، وهي تكاد تكون روحيَّةً صرفةً ، ومدنيَّة أوروبة وأميركة ، وهي التي تغلب عليها المادِّيَّة الصِّرفة ، هيهات أن تحقِّق الواحدة منهما سعادة البشر .

فهل يجيءُ ، ليت شعري ، زمان للنَّاس يكون لهم فيه مدنيَّة وسط بين الاثنتين ، توفِّر سعادة هذا المجتمع البشريِّ على خير حال ؟!

أنتَ بالخيار

المغلوبون على أمرهم في الدُّنيا هم الذين يظفرون بعطف النَّاس ، وبحدبهم ، ورحمة قلوبهم . فان كنتَ تطلب هذا النَّوع من جود النَّاس عليك ، فإيَّاك أن تسعى في عملك إلى النُّجح ! إنَّ فوزك به يقسي عليك القلوب ، ويجلب لك الحسد ، والانتقاد ، والمقت الشَّديد . . .

الصِّياح من البيضة

التَّلمذة لأستاذ الصِّناعة ، وهي ما يقال له عند المحامين : « التَّدرُّج » ، شرط في حرفة المحاماة ، وفي سائر الحرف من رفيعة ووضيعة . وهي شرط ، أيضاً ، في هذه الصِّناعة الكتابيَّة . فانَّ الذي لا يشحذ لسانه باجادات أهل الطَّبقة العالية في المنثور والمنظوم ، ولا يعبُّ ما شاء الله له من تلك الحياض الصَّافية ، هيهات أن يكون له في كتابة ،

أو شعر ! فليس الأفصيح الدُّيوك هو الذي يصيح من البيضة . . .

لا ! ليست واحدتهم بواحدتنا !

من ظنَّ انَّ الشَّرقيِّين، في تاريخ الحضارة ، لم يعطوا الغربيِّين أعظم مما أخذوا منهم ، فقد ظنَّ خطأ كثيراً ! لقد ناولوهم المبادىء العليا للإنسانيَّة حلالاً زلالاً . وناهيك بذلك من عطاء لا يوازنه هذا الذي أخذوه منهم من أسباب المدنيَّة في الرَّفه ، وتدبير المنزل ، ونظام الاجتماع ، وفنون الصّناعة وجرّ الأثقال ، وما إلى ذلك من بضاعة مادِّيَّة .

ألا فليتَّقِ الله من يقول في هذا المقام : « واحدة بواحدة » !

من مصائب الشّعر

في « أخبار النَّحويِّين البصريِّين » قصَّة جارية غنَّت بيتاً من الشّعر ، فلحنت فيه ، وصحَّفت ، وغيَّرت ، وبدَّلت شيئاً كثيراً . وقد جاء في القصَّة قولها لمن راجعها في ذلك : « لا أقبل هذا » ، أو « لا أغيِّره » إلى آخر ما قالت .

وهذا دليل آخر على انَّ الغناء بالشّعر هو من قديم مصيبة على الشّعر ، وعلى الإعراب !

أقول هذا ، وأنا أستغفر الله منه في غناء عبد الوهَّاب ، كبير مغنِّي زماننا . فانَّ الأخ محمداً هيهات أن يخالف في غنائه وجه الصَّواب .

فكُّ المشكل

ما رأيتُ فكّاً لمشكل القديم والجديد في الاجتماع ، والأدب ،

ومصاير النَّاس (وهو الذي يختلف فيه كلُّ يوم اثنان) ، خيراً من قول أبي بكر الأوسيِّ في أبيات له :

وإن كان عندي للجديد لذاذةٌ ،
فلستُ بناسٍ حرمةً لقديمِ !

أما والله لو بُعث الإمام أبو يوسف قاضياً فوق منبر (وهو الذي فيه قيل : لو كان الرَّأي في مدار الكواكب لطاله !) ، وجاء أهل زماننا بين يديه يدوكون في خصومة الجديد والقديم ، لما طالع النَّاس بألطف ، ولا أكيس ، ولا أعلق بالعدالة ، مما في هذا البيت . . .

الميراث المستحيل

من يظنُّ انَّه في وصيَّة الموت يستطيع أن يقول ، مثلاً : « انِّي أورِّث أولادي ، في ما أورِّثهم ، حاسَّة الشَّمِّ التي لي » ليس هو أشدَّ غفلةً من الذي يظنُّ انَّه يستطيع توريث أولاده ذكاءَه ، أو ظرفه ، أو شجاعته ، أو حلمه ، أو طلاقة لسانه ، أو أيِّ واحدة أخرى من غرائزه ، وملكاته !

هوى العوامّ

لا تحدَّث العوامّ بالأمور الصَّادقة ، ولا بتلك البسيطة غير المركَّبة ! بل هاتِ لهم ما تشاء من مخترعات القصص ، وأخبار ما شذَّ وخرج عن المألوف ، ممَّا يُصاح به في الكتب والجرائد والرَّاديو والسِّينما والتَّلفيزيون . فإنَّه ليس في ذلك ما ينظر إلى نفوسهم ، وواقع حالهم ، وانَّما هو أحاديث عن الآخرين ، وسرح أصابع في أشيائهم ،

ومصايرهم ، وتقلُّبهم في العيش ، مزخرف هناك أحسن زخرف !

ثمَّ دعهم من المعادات ، أي المكرَّرات اليوميَّة ، وهات لهم الجديد البهيج من أعياد ، ومهرجانات ، ومواكب دافقة ، وجيوش حاشدة ، ومراقص وموائد يتدافعون فيها بالأكتاف من فجوة إلى فجوة ، فإنَّ في ذلك ، أيضاً ، ما يباعدهم من نفوسهم ، وواقع حالهم . . .

سبحان خالق البيضة !

لا يمرُّ للعقل حلاوة البحث في الكائنات إلاَّ الوصول إلى آخر الحبل ! أي عند تطلُّب الإدراك لسرِّ الحياة ، أو استشفاف شيء من غوامضه . فإنَّ العلوم الحيويَّة (التي يقول لها الفرنج : علوم البيولوجيا) تعترف ، وهي خاشعة خانعة ، انَّ التَّعليل في هذا المعمَّى بالقواعد الطَّبيعيَّة المعروفة ليس في الإمكان ، وإنَّه لا يُفضى منه إلاَّ إلى قول : كذا كان . . .

وهكذا تجد انَّ معرفة ظهور الحياة في الأرض ، لأوَّل مرَّة ، لا تزال فوق طبقة العقل . ولقد قيل انهَّا جاءَت من الجماد ، من طريق النُّشوء . وقيل : بل جاءَت من فجاة تنفَّست عنها مهيِّيات ، وأحوال كونيَّة ، بتنا لا نفهم اليوم خصائصها . وقيل غير هذا ، وغير ذاك ، ممَّا لا يخرج عن حدِّ المظنونات ، ولا يأتي المسألة بيقين .

نعم ! لقد وقع لجماعة من العلماء ، في أيَّامنا ، أن ولَّدوا بالآلة حياةً . اتخذوا بيضة من حيوان حيّ ، أنثى ، فخرجت الحياة من الجرثومة . أي جاءَت حياة من حياة ، لا أقلَّ ولا أكثر ! كان لا بدَّ لهم من البيضة ، وهي التي فيها سرُّ الحياة ، فسبحان خالق البيضة . . .

قولة « لا أدري »

قولة « لا أدري » كانت من اعتزاز علماء السَّلف في ما لا يدرونه ، وقد ورد : « نصفُ العلم قول لا أدري » . ومًما لا يزال يتردَّد في خاطري من ذلك ، انَّ رجلاً سأل الإمام مالكاً عن مسألة ، فقال : « لا أدري » . قال الرَّجل : « سافرت البلدان اليك ! » ، فقال : « ارجعْ إلى بلدك ، وقلْ سألتُ مالكاً ، فقال : لا أدري » . . .

مالك بن أنس لا يتوقَّف عن قول « لا أدري » في مسألة لا معرفة له بها ، فأمَّا أنصاف الجهلاء ، وأصحاب الدَّعوى العريضة ، فإنهم لا يسكتون عن الجواب في مسألة . يخافون على جاههم في العلم !!!

ومن أجمل ما يدخل في هذا الباب ، ما نُقل عن زاذان أبي ميسرة ، قال :

« خرج إلينا عليٌّ يوماً ، وهو يمسح صدره ، ويقول : يا بردها على الكبد ! سُئلتُ عمَّا لا أعلم ، فقلتُ : لا أعلم . . . » .

النُّكتة الحارَّة والكتب

النُّكتة الحارَّة لا تسكن الكتب ، بل هي تتنقَّل في المجالس والأبهاء والمطابخ وغرف الطَّعام والمنام ، وفي المقاهي والمنازه والمطاعم والطُّرق ، وفي كلِّ مكان يتحرَّك فيه لسان بين فكَّين . فاذا شئتَ أن تسكنها كتاباً ، أقامت به كئيبةً ، كاسفةً ، متكسِّرة الوجه ، فالمكان هناك بارد . . .

من أدب « التفَّاسير »

من أطرب ما قرأتُ في « التَّفاسير » ، تعليقاً على الآية « الذي علَّم بالقلم » ، ما هذا بعضه :

« قال تعالى للقلم ، يوم خلْقه : اكتبْ ، فقال القلم : ربِّ : وما أكتب ؟ فقال ، سبحانه : اكتبْ : هذا ربيع الله في الأرض . فتبسَّم القلم فرحاً بذكر اسم الرَّبيع مقروناً باسم الله . وقد انشقَّ القلم من التَّبسُّم ، وبقي ذلك عادة في الأقلام . فهي لا تكتب خطّاً إلاَّ بالشَّقّ » .

فرح القلم بقرن اسم الرَّبيع باسم الله ، لكونه هو من قصب ، من النَّبات الذي ساقه أنابيب وكعوب ، كما كان عهد النَّاس بالأقلام في زمن المفسِّر .

هذا أدب في « تفسير » ! وكم في « التَّفاسير » من حلاوات أدبيَّة ، لو جُمعت لجاءت كتاباً برأسه ، ينزل في كتب اللطافة ، وعلوّ الخيال ، موضعاً مقدَّماً .

نظام النُّكتة المواجهة

كلُّ نكتة في الحديث مواجهة يقتضي لها في المجلس وجود ثلاثة : صاحبها الذي يطلع بها ، ثمَّ سامعها الذي يفهمها ، ثمَّ سامعها الذي لا يفهمها .

أمَّا الأوَّل فيهمُّه الثَّاني ، مخافة أن لا يكون قد فهم النُّكتة ، ويهمُّه الثَّالث ، مخافة أن يكون قد فهمها !

وأمَّا هذا الثَّالث المسكين ، فلا بدَّ له من أن يضحك للنُّكتة ضحك صاحبيه لها ، وإن لم يفهم منها شيئاً ، على انَّه هو الذِّي عليه تلفُّ وتدور . . .

الأغنية العربيَّة

نحن من الأغنية ، في أخريات هذا الزَّمن ، صرنا في أنواع ثلاثة

(خلا أغنيات قليلة ، عصم ربُّك أصحابها ، فجاءُوا بها بعيدة من هذه الأنواع !) :

المخنَّثة : وهي التي تسيل في اللِّين والتَّكسرُّ لهفاً ، ودموعاً ، وحسرات . وكأنَّ معانيها وألفاظها إناث لا ذكران فيها !

والفاجرة : وهي المنبعثة في ألفاظ الفساد والفحش ، لا تستحي من سامع ، ولا من سامعة !

والفظَّة ، الخشنة ، الغليظة : وهذه هي المبتذل معناها ولفظها ؛ فتضطَّرب لها النُّفوس حتى تكاد تتقيَّا !

فكأنْ ليس في هذه الدُّنيا جمال طبيعة ، ولا جمال طبائع ، ولا جمال فصاحة ، وأذواق ، ووجوه ، وهوىً ، وبطولات ، وفورات أمانيّ ، ومطالب عالية ، إلى آخر ما تهتف له النَّفس البشريَّة !!!

فيا سامعي الصَّوت في دور الإذاعة ، والتلفيزيون ، والسِّينما ، في أقطار العرب : ارحمونا من التَّخنُّث ، والفجور ، والفظاظة . . .

وهذا ، أيضاً ، خبير ينبىء !

في باب التَّعريف بالشِّعر يعجبني جدّاً عجز « فاليري » عنه عجزاً يفيض لطفاً ، وحلاوةً ! فإنَّه يقول في إحدى محاضراته في « السُّوربون » ما معرَّبه : « الشِّعر هو فنُّ نظم البارع من الشِّعر » . . .

وأنك واجد هنا ، ولا ريب ، انَّ الخبير قد أنبأك ، أيضاً ، هذه المرَّة !

إضراب العمّال

الكلام في زماننا عند رجال الحكومات ، وعلماء الاجتماع ، والاقتصاد ، على نقابات العمّال، وإضرابهم ، أي تعطيل العمل حتى يخضع صاحب المال لمشيئتهم ، ويجري مطالبهم ، صار هو الموضوع الذي ينتطح فيه كلّ يوم رأيان . فقد قيل من الأخذ والرّدّ في حظر الإضراب ، وإباحته ، وشروط الإباحة ، وفي ما يُستقبح منه ، وما يُستحبُّ ، وما على الحكومات من واجب قبل حصوله ، وفي أثناء حصوله ، وفي أعقاب ذلك ، ما لو جُمع لجاءَ هضبةً من الكتب !

ومن عجيب ما أتى به « غوستاف لوبون » ، في كتابه « روح السّياسة » ، من أسباب الإضراب عند العمال ، وكثرة وقوعه ، هذا الذي معرّبه : « أصبحنا في هذه الأيّام ، وقد رُفع من صدور النّاس رادع الضمير ، لا شيء إلاّ كره متوارث يضمره أهل الفقر لأهل الغنى ! ». يريد أنّ رادع الضمير قد رُفع من صدور أصحاب المال .

وهو كلام لا يفكُّ في المسألة مشكلاً ، الاّ انّ فيه من الصّواب شيئاً ليس بقليل !

شقوة الحسن

لولا تدبُّر الحكومات الرّاشدة لانقرض الفيل من كلّ صقع وطئه الإنسان . فقد ذكر أحد المقوّمين انّ في العام الواحد كانت تُقتل ألوف الفيلة طمعاً في عاج أسنانها ، حتّى خيف على جنس الفيل من تفاقم ذلك الطّمع . أي انّ نفاسة سنّ الفيل هي السّبب في شقائه ! فكأنّ قولة « انّ من الحسن لشقوة » تنظر إلى جهات كثيرة .

حول حقوق المرأة

إعطاء المرأة حقّها شيء ، ومساواتها بالرَّجل هي شيء آخر ! أمَّا إيتاؤها حقّها ، فإنَّ القوانين الرَّاقية قد أعطتها إيَّاه في زماننا وافياً تامّاً ، وأمَّا مساواتها بالرَّجل فتلك مسألة من وارد الامتناع ، كما يقال في لغة المناطقة . أي انهَّا مطلب محال ، لا يقع في الإمكان . فإنَّ مساواتها بالرَّجل ليست من النَّاموس الطَّبيعيّ في شيء ، ما دام تركيب الجسم النّسويّ غير تركيب جسم الرَّجل ، وما دام دماغ المرأة وقوَّتها غير دماغ الرَّجل وقوَّته . ومخالفة البشر للنَّاموس الطَّبيعيّ لا تؤدّي إلى صواب . فليس الخروج على النَّواميس المقرَّرة في هذه الدّنيا إلاَّ جنوناً محضاً !

والبادىء أظلم . . .

قرأتُ في بعض المظانّ الأوروبيَّة انَّ الأستاذ « وستنهوفر » ، من علماء « التَّشريح المَرَضي » ، قد عكس قضيَّة « داروين » ، وخالفها على خطٍّ مستقيم . فهو يقول انَّ الإنسان لم ينشأ من القرد ، وإنَّما القرد هو الذّي نشأ من الإنسان !

ولقد أورد الرَّجل في تأييد مذهبه العجيب هذا براهين وحججاً كثيرة .

أقول : جاء « وستنهوفر » صاحبه « داروين » على قدر ! وهي واحدة بواحدة ، والبادىء أظلم . . .

بيئة الرَّجل العظيم

إيَّاك أن تظنَّ انَّ الرَّجل العظيم ، مهما علت درجته في العظمة ، لا

تؤثّر فيه بهيئته ! نعم ، إنّك لا تستطيع أن تقول انّ مثل الفرنسويّين « قلْ لي من الذّي تعاشره ، أقلْ لك بعدها من تكون أنت ! » هو الكلام الذّي لا يُؤتى من جهة ، ولكنّك تستطيع أن تقول ، مثلاً : انّ خادم العظيم يقول لسيّده ، في بعض الأيّام : « أكلُكَ للبطّيخ الأحمر يوم أمس حرّك قلوبنا عليك خوفاً وذعراً » ، فلا يأكل المولى في ذلك النّهار إلاّ بطّيخاً أصفر . . .

حلاوة الوجدان

بلوغ الأرب ، حتّى في الأمور الحقيرة ، من أشهى لذائذ النّفس . ويعجبني في هذا المقام ما ذكره الإمام الثّعالبيّ في « المضاف والمنسوب » ، من انّ أعرابيّاً ضلّ له بعير ، فأخذ ينادي : من وجد بعيري فهو له . فقيل للأعرابيّ : فلمَ تنشده ؟ قال : فأين حلاوة الوجدان !!!

العرب والألقاب

كره العرب قبل مخالطتهم للفرس ، وفساد سلائقهم وعاداتهم ، أن يتخاطبوا ، أو يتكاتبوا بالالقاب الرّسميّة ، أو العرفيّة . حتّى انّ واحدهم كان يدخل على الخليفة من خلفائهم ، فيقول له : « يا فلان » ، يناديه باسمه . وهم لم يستعملوا « يا مولاي » ، ولا « يا سيّدي » ، ولا « يا أمير المؤمنين » ، ولا أيّ شيء آخر من هذه الشّعبة ، الاّ في النّدرة . وقد قال أبو طاهر بن البرخشيّ ، وهي من روايات صاحب « طبقات الأطبّاء » ، إذ رأى رجلاً يكتب كتاباً إلى صديق له ، فكتب في صدره : « العالم فلان الفلانيّ » :

لمّا انقضت سنن المكارم والعلى ،

وغدا الأنام بوجه جهل قاتمٍ ،

ورضوا بأسماءٍ، ولا معنى لها ،

مثل «الصّدّيق»، تكاتبوا «بالعالِمِ» . .

فكأنَّ العرب أنفوا منذ مئات من السِّنين ممَّا أخذنا نأنف نحن منه منذ بضع عشرة سنة !

وفي هذا المعنى أستحلي أنا كثيراً قول محمود سامي البارودي : « حبوتكَ ألقاب العلا ، فادعني باسمي ! » . أمَّا قول شوقي :

« شاعرُ العزيز » ، وما

بالقليل ذا اللّقبُ !

فإنّه من حلاوات الفخر ، وهو ليس من هذا الوادي !

حسن « يوسف »

عجز جماعة من هذا النّبات الشّعريّ العجيب ، الذّي ظهر عندنا في آخر الزّمن ، عن الإجادة ، وإدراك الغايات في الفصاحة ، فجاءُوا يتّهمون أساليب المتنبّيء ، وأبي نواس ، والبحتريّ ، وأبي تمّام ، وابن أبي ربيعة ، وابن الرّوميّ ، والشّريف الرّضيّ ، إلى عشرات من هذه الطّبقة ، في قديم وحديث ، بالعجز وتقييد القرائح !!!

ولقد وجد هؤلاء في الصّحف ، في الأيّام المتأخّرة ، من ينشر لهم أقوالهم ، ووجدوا في القرّاء من يطالعها ! ولكن هيهات أن ينسى « يعقوب » حسن « يوسف » . . .

قال سقراط ، وقد سُئل عن تركه لتصنيف الكتب : « لستُ أنا ممن ينقلون العلم من قلوب البشر الحيَّة إلى جلود الضأن الميتة ! » . فانَّ اليونانيِّين يومئذ كانوا يكتبون في المسوك .

ولقد جاءَني في البريد ، يوم أمس ، كتاب مطبوع في باريس ، في ورق هو بالحرير أشبه (وله رائحة مداد ذكيَّة العرف ، كما يكون لنسمة الرِّيح ، وهي تخرج من صدر البستان في زمن الرَّبيع !) . فقلتُ في نفسي : لو يرى سقراط . . . ثمَّ قلتُ : ولكنَّ القلب البشريَّ هو أشرف ، أيضاً ، من لحاء الشَّجر ، ومن بوالي الخِرَق ، وكِسَر الخشب ، وما في نحوها مِمَّا يُصنع منه الورق في زماننا ، فكأنَّنا لم نُطمعْ سقراط في شيء !

وهنا تذكَّرتُ انَّ الورق ، على خساسة أصله ، هو الذي يسع نتاج العقول ، ومحصول الضَّمائر ، فمن حقِّه أن يشرف ، وأن تعظم في العيون درجته ، وجال في خاطري قول « الشِّبْليِّ » :

أوما ترى الجِلْد الدَّنيءَ مقبَّلاً

بالثَّغر ، لَمَّا صار جارَ المصحفِ ؟ . . .

كما جال ، أيضاً ، في خاطري قولهم : « كم حبر أغلى من تبر » ! غلا الحبر في نظرهم بما غلا به الورق .

بلاغة أفصح من الفصاحة !

ما قرأتُ في كتاب قطّ ، ولا سمعتُ من فم قطّ ، كلاماً يتعلَّق بالصَّداقة من قريب ، أو بعيد ، ويترنَّم له القلب شجىً ووجداً ، أعلى

من كلام يسوع ، وهو فوق الصّليب ، يخاطب أمّه وتلميذه يوحنّا ، المعروف « بالحبيب » (أي حبيب السيّد المصلوب) ، وقد أومأ برأسه في المخاطبتين ، إذ كان لا يستطيع أن يومىء بيده : « يا امرأة : هذا ابنك ! وأنتَ : هذه أمّك ! . . . » .

ألا إنَّ البلاغة في بعض مقامات القول أفصح من الفصاحة . . .

الحرّيّة المطلقة

ليس في الدُّنيا حرّيّة مطلقة ! وانّما الأمر في ذلك يجري على قاعدة التّفاوت . فلا يكون لك أن تقول ، مثلاً : سويسرة بلد حرّ ، أو أميركة بلد حرّ ، بل انّك تستطيع أن تقول : في سويسرة من الحرّيّة أكثر ممّا في الرُّوسيّة ، وفي أميركة من الحرّيّة أكثر ممّا في اسبانية ، وهلّم جرًّا على هذه القاعدة .

رؤية الفجائع

لو لم تمتْ الفونزين بلاسّي (أي ذات الكاميليا) حبًّا وهياماً ، وداءً دويّاً ، ولا باعد أبو « ليلى » بين دارها ودار « ابن الملوّح » ، حتّى مات « المجنون » في الهوى ، لما ضجّت الدُّنيا بذات كاميليا ، ولا بمجنون ! فانَّ النّاس مولعون برؤية الفجائع عند الآخرين ، لا تلذُّهم رؤية السَّعادة ومباهج السُّرور ، عند السُّعداء والمسرورين ، بمقدار ما يلذُّهم ، مثلاً ، رؤية مصارع اسبانيٍّ مسكين ، تُمزَّق أحشاؤه بين قرني الثّور الهائج !

طبع مركّب في هذه السّريرة الإنسانيّة ، لا يُستطاع قلعه . وهو ، في ما أرى ، أدنى إلى اللؤم منه إلى أيّ غريزة أخرى .

« الكذب الأبيض »

من أساليب السّياسة نوع يُقال له عند الفرنسويّين : « الكذب الأبيض » ، أي انّه كذب لا يفضي إلى مضرّة ، ولا إلى نفع ، وانّما هو طريقة لرجل السّياسة في جرّ النّاس باعنّة التّعليل ، وحفظهم حوله بين الظّفر والخيبة .

هذا نفاق « ابيض » ، يقول أهل السّياسة أن لا لطخ عيب فيه . ولكنّه في عين الأخلاق ليس شديد البياض ، خالصاً !

وها هنا تحضرني كلمة للويس الحادي عشر الفرنسويّ ، وهي في هذا الباب بارعة جدّاً ، قال : « على رجل السّياسة أن لا يقترف الكذب في كثير ولا قليل ! وانّما عليه أن يعطي ما لا تملك يده ، وأن يعد بما لا يستطيع الوفاء به . . . » .

غربة الشّيوخ

ما بال الشّيوخ لا يتذكّرون انّهم ليسوا وأبناءهم أهل زمان واحد ! زمانهم ولّى ، وهذا زمان أبنائهم ، وهم فيه غرباء ، فقد قيل :

إذا ذهب القرن الّذي أنت فيهمُ ،

وخُلّفت في قرن ، فأنتَ غريبُ !

والغريب متضيّف ، والضّيف لا يكون فضوليّاً ، ولا متضيّقاً في خُلق ، ولا منكراً في المضيف لما لم يعهد في بيته . . .

قضيّة الرّائحة

قضيّة الرائحة (اي نسيم كل شيء)، وأثرها في النّفس، لم تولها العلوم

النّفسيّة إلى اليوم ما تستحقّ من البحث . وكلُّ ما هناك ملاحظات ، والتفاتات عابرة ، لا تشفي غليلاً . على انّ البحث في الرّائحة هو ممّا يجب ان يُفطن له في كلّ ما يتّصل بموضوع الانفعالات النّفسيّة ، أو يُضاف اليه .

ولأمر ما جُعل وجدان رائحة الشّيء ، في لغة الفرنسويّين ، في مادّة شَعَرَ بالشّيء ، وأحسّ به . فهم يقولون « سنتير » في الرّائحة ، و « سنتير » في الشّعور .

وفي العربيّ تقول : «أشِمُّ في القوم ريح فلان » ، أي انّك تحسّ بوجوده فيهم .

امّا في الشّعر ، فقد نظر الشّعراء إلى الرّائحة من وجهات أخرى . قال أبو العتاهية :

أحسن الله بنا أنّ
الخطايا لا تفوحُ ...

وقال موريس دي غورين ، الشّاعر الفرنسويّ ، ما معرّبه : « رأيتُ وجهك يوم أمس في رائحة الورد الأبيض » .

وقال حافظ الشّيرازيّ ، شاعر الفرس ، ما هذا معناه : « يا ليت كلّ نقيصة تُعرف من الرّائحة ، كما يُعرف الصّادق من الكاذب ! » .

وعلى الجملة : لا يزال الكلام على الرّائحة في العلوم النّفسيّة من أبكار المعاني ، لم يُعلّق به خاطر ، ولا أعمل فيه فكر . فقد شُغل أصحابها ، في هذا الباب ، ببحث الألوان عن بحث الرّوائح . فضّلوا

الأدنى على الأعلى ، وتمّ فيهم مثلنا العربيّ القديم : « جعلوا الزُّجَّ قدّام السِّنان » !

لو بغير الماء غصصتُ . . .

من أشدّ الأمور على النّفس، أن يُدهى المرء من حيث ينتظر الخلاص والمعونة .

لمّا كنتُ حديث السِّنّ ، كنت أتمنّى بلوغ السِّنّ العالية ، حتّى أُصبح بطول الزّمن صاحب محفوظات ، ومستظهرات كثيرة . فلمّا جاءت الكَبرة ، صرتُ أنسى ممّا حفظتُ واستظهرتُ في أيّام الشّباب شيئاً كثيراً .

يا ماء : لو بغيركَ غصصتُ . . .

من مسائل الجمال

النّقط في الخطّ العربيّ أصبح نعمةً على القارىء . وقد كانت أيّام حُسب فيها الإكثار منه في العيوب . حتّى لقد انتقد المأمون العبّاسيُّ النّقط ، ولقّبه بالشُّونيز (والشُّونيز : هو الحبُّ الأسود ، ذو الطَّعم الحرِّيف) .

وخطُّ الرُّقعة كانوا لا يعدُّونه في ما يقال له عندهم : « الخطُّ المنسوب » ، أي الخطُّ ذو القاعدة . وكانوا يقولون انَّ الرُّقعة رديء ، يعجز الناس عن قراءته ، وانَّ فيه قرمطة ، وطمس حروف ، واشتباه حرف بحرف . وممّا رُوي في ذلك انَّ الإمام أبا حنيفة مرَّ بكاتب ، فوجده يقرمط الحروف ، فقال له : « لا تقرمطْ ، فانَّك إن عشتَ تندمْ ، وإن متَّ تُشتمْ . . . » .

وقد كان النَّاس في لبنان ، وفي الشَّام والعراق ومصر ، إلى قريب من زماننا ، يتكلَّفون خطَّ الرُّقعة على مشقَّة وإعياء . وهذه أيَّامنا نحن بالرُّقعة ، فقد بتنا نحبُّ هذا الخطّ ، وتطيب لنا عرائس حروفه ، وهي مائلة بالحبرات السُّود في الصَّفِّ المقرمط . . .

وهكذا ترى انَّ الجمال ليس بنفسه جمالاً ، وانَّما هو كالزِّيِّ ، تجعله الأُلفة والعادة حبيباً الى الذَّوق .

العزب والمتزوِّج

ليس العزب في التَّوادّ والتَّعاطف ، والرِّفق في المعاملات ، كالمتزوِّج . وأبو الأولاد أحنّ فؤاداً ، وأرقّ صدراً ، ممَّن لم يولدْ له ولد . فهو يحبُّ صغار العالمين من أجل صغاره . . . أي على قاعدة « كثيِّر » :

وأنتِ التي حبَّبتِ كلَّ قصيرةٍ
إليَّ ، وما تدري بذاك القصائرُ !

ومن هنا نشأ في علم الاجتماع قول القائلين : انَّ الزَّواج ضروريّ للنَّسل ، وللأخلاق ، في وقت معاً .

الحمد لله . . .

الكشف عن « الإنسان المجهول » في الإنسان ، هو من شأن الفلسفة ، لا من شأن الأدب !

فالحمد لله على ذلك ألف مرَّة . . .

مغالطة النَّفس

إنَّ الَّـذي زعـم لكَ أن لا بدَّ من مغالطـة النَّفس بازاء الهمــوم ، لتحصل سعادةَ العيش ، قد أخطأ كثيراً ! فانَّ في هذه المغالطة من بذل الجهد في إقناعِ نفسك بعـكس الواقـع من الأمـر ، ما يلقِّيك برحـاً ، ونصباً ، وخطَّةً شديدة . ولعمرك ! كيف تقع السَّعـادة مع بعض هذا العناء ؟ . . .

الآلة والعمل

إتعاب الأبـدان ، وإنضـاء النُّفـوس ، سنَّـة مستحبَّـة عنـد بعض الرُّهبانيَّات في النَّصرانيَّة . وهـي مسـتحبَّـة ، أيضـاً ، عنـد جماعـة من المتزهِّدين في الإسلام ، ولكنها مستكرهة عند كثير من علمائه . وهؤلاء يقول قائلهـم : روِّحـوا القلـوب تعـي الـذِّكر . أي لا بدَّ من الرِّفـق بالأجسام حفظاً لقوَّتها ، فانَّه إذا رُفِّه عن الآلة جاد العمل .

الخوف من الدِّعاية

الدِّعاية (وسواءً أجاءت في لسان العرب بالياء أم بالـواو ، أم انَّـه ليس هناك الاَّ الدِّعوة ، لا غير !) أصبح عليها المدار في كلِّ شيء من أشياء بني قومنا . يقلِّدون في ذلك الأوروبيِّين والأميركيِّين ، وما فتىءَ الضَّعيف المغلوب ، كما في كلام جليل لابن خلدون ، مولعاً بالاقتداء بالقويِّ الغالب !

وأخوف ما أخاف على عقـول النَّشء من هذا الزَّعـق والصِّياح في الجرائـد ، هو الدِّعـاية لكتَّـاب وشعـراء من المعـاصرين ، ممــن درج بعضهم ، ومكث بعضهم في ظلِّ الحياة . أولئك جماعة هم في مؤخَّـر

أهل الجودة في الكتابة والشّعر ، تعرض الجرائد أقلامهم كما تُعرض سيوف الهيجاء ، فاذا أنتَ امتحنتَ تلك الأقلام ، وجدتها عند السَّلَّة عصيّاً لا تقطع ، ولا تفري ! ولكنَّ المعاصرة حجاب شديد الكثافة ، فهو يستر الحالي ، ويستر العاطل أيضاً . ومن لكَ بدورة الزَّمن حتَّى يأزف الآن وقت فصل الخطاب ، فيعلم أبناؤنا في يومهم ، وقد ركدت الغبرة ، من ذا السّابق ، ومن ذا المتخلّف !

السّبيل الجرائد !

نحن في بلد لا تروج فيه كتب الجدّ والرّزانة، فليس لأهل الفكر فيه من سبيل إلى العقول والقلوب إلاّ الجرائد ! والفكر دائم الحرارة ، دائم النّزوان ، فهو يطلب الخروج من مغامض كدّه إلى الفعل ، أي إلى الذّيوع ، والانتشار في الآفاق .

فأمّا بقاء الكتّاب في « الأبراج العاجيّة » ، كما يُقال بلغة الفرنسويّين ، أي أخذهم بهذا النّوع من الاعتزال « الأرستوقراطيّ » للجماهير ، والحال ما قلنا ، فانَّ ذلك صار في رأيي قعوداً عن التأدية لرسالة الفكر !

فلينزلّ ، اذاً ، « أرستوقراطيّ » البرج العاجيّ من علوّ مكانه إلى صفحات الجرائد ، على أن يغدو هناك « أرستوقراطيَّ » السّاحات العامّة . . .

عزّ السّبيل على الكتب ، فمن أراد وصولاً فالسّبيل الجرائد !

« اعرفوها ، واحذروها »

ما شيء شفى نفسي من كلمة « اتّقِ شرّ من أحسنتَ اليه » ، إلاّ قول

الشّيخ الجاويش في « الهداية » ، انَّ ذلك من « الأحاديث » الموضوعة . وقد أورد كلامه بعنوان « اعرفوها واحذروها ! » .

وإذنْ ، فليس من نوابغ الكلم ، والحمد لله ، هذه القولة التي تزهّد في المروءَات ، والمكارم !!!

القصص العربيّ

أعجبُ ، وأنا أطالع في الأحيان طائفة من هذه القصص التي أخذت تظهر في الأدب العربيّ ، لما أرى من اختلاف النّتائج في سياق الحادثة عن المقدّمات . فكأنَّ جماعة القصّة (أي أشخاصها) قد أفلتوا في بعض المواضع من يد الكاتب ، وراحوا يتكلّمون بالمسائل على هواهم ، لا على هوى صاحبنا . . .

فمن أين لهم ؟؟؟

المستقلُّ برأيه في السّياسة ، يجب أن يكون حرّاً في نفسه ، والحرُّ في نفسه يجب أن يكون غنيّاً بماله ، والغنّي بماله هيهات أن يشتغل بالسّياسة ـ الّلهمّ الاّ إذا كان ينزع إلى المزيد من الثّروة على حسابها ، أو إلى المحافظة على ثروته بانتسابه إلى أصحاب السّلطان ، وهناك لا يبقى له استقلال بالرّأي ، ولا حرّيّة في النّفس .

فمن أين للنّاس ، بعد هذا ، بالرّجل المستقلّ برأيه في السّياسة ؟ . . .

عصريّة مضحكة

تطفح جرائد أوروبّة وأميركة (وقد طارت العدوى أيضاً إلى جرائدنا . . .) بهذه الخرافات التي تدور على تعلُّق الخير والشّرّ ،

والإعطاء والمنع ، والإعجال والاعتياق ، وما في نحو من ذلك ، بأذيال الكواكب والبروج ! فهذه كواكب سعود ، وتلك كواكب نحوس . . . وهنا بروج جارية ، موافقة ، وهناك بروج واقفة ، منافرة لها . . . ثمّ أيّام ذات طول تختار فيها الأعمال ، وأيّام ذات عرض لا تصلح للعمل . . . ثمّ فأل بتسديس ، أو تخميس ، وشؤم بتربيع ، أو تثليث ، أو بمقابلة عدد بعدد في أوقات خاصّة ، وأهلّة معيّنة ، إلى آخر ما في تلك الأوهام ، والمزاعم المضحكة . . . .

ومن أعجب ما سمعتُ عن تأثير الجرائد ، عندنا ، بما تنشره من مقالات الموقّتين وأصحاب الطّوالع ، انّ واحداً ممّن يُستصبح بضوئهم في معضلات التّجارة والاقتصاد ، في بيروت ، بات يصدّق هذه التّرّهات والأباطيل ، حتّى انّه لا يكاد يخرج في أعماله وحاجاته ، قبل أن ينظر في الجريدة طالع يومه !!!

الرّفق بالحيوان

من ظنّ انّ مسألة الرّفق بالحيوان ، وهي ممّا يُستشهد به في ترف النّفوس ، والتّناهي في الحضارة ، لم يلتفتْ إليها العرب في عنفوان أمرهم ، فقد أبعد جدّاً !

قال في « جامع الفضائل » ، في « المقالة الثّانية على حقوق الحيوانات » (وأنت ملتفت ، ولا ريب ، إلى قوّة المعنى في قوله : حقوق الحيوانات !) :

« يُعرض العلف والماء على الدّابّة كلّ يوم مراراً كثيرة ، ولا تُضرب دابّة على وجهها ، ولا يُعذّب حيوان ، خصوصاً بالنّار » إلى أن يقول : « ولا تُقتل النّملة غير المؤذية » إلى آخر ما هناك .

لا تُقتل النَّملة التي لا تؤذي ؟؟؟ فلا ، والله ، ما ترك السَّلف « لجمعيَّة الرِّفق بالحيوان » شيئاً . . .

سُبُل الغايات

في المجالس ، والحفلات ، والمآدب ، التي يقال لها في أيَّامنا : « العالية . . . » ، والتي من عمَّارها رجال الحكومات ، والثراء ، والصَّحافة (أريد من هؤلاء : الذين لا يعرفون كيف قبض القلم ، أمن رأسه يُمسك ، أم من ذنبه . . . ولكنَّهم كتَّاب جرائد يخدمون رجال الحكم ، أو رجال المال ، بفصول ليس لها من العربيَّة إلاَّ أشكال الحروف !) يسطع نجم النِّساء ، فيأخذون بأزمَّة الأحاديث ، والآراء في المسائل ، ويمتطين الرِّجال في كلِّ سبيل إلى غاية خاصَّة ، أو عامَّة !

ولقد طالعتُ ، منذ مدَّة ، كتاباً « لدوغلاس ويليت » ، اسمه : « هتلر والنِّساء » ، جاء فيه ما مفاده : « إنَّ النِّساء من عوانس ، وأيائم ، وحسان على نصف شبابهنَّ ، وزوجات مثرين وحدثاء نعمة ، هنَّ اللاّئي كنَّ في أوَّل العهد بطاغية المانية ركائز يستند إليها في رقيِّه نحو القمَّة » . فلم أعجبْ لما أورده صاحب الكتاب !

خدم طيِّعون . . .

الإتيان بالأولاد والذَّراريِّ ، نظام للطَّبيعة في حفظ النَّسل لا غناء لها عنه بنظام آخر .

فيا لله ! كيف جُعل الحسن ، والحبُّ ، والعطف الزَّوجيُّ ، والحنوُّ الوالديُّ ، وعرق الجبين في كفاية العيال وتدبير المعاش ، خدماً تعمل لهذا النِّظام على الرَّأس والعين . . .

في الصُّحافة

أصبحت الصُّحافة في زماننا هي الصَّوت المدوِّي ، الذي يسمعه الجميع ! ولا مفرَّ لأحد من سماع هذا الصَّوت ، ولا من التَّصديق له ، والتَّأثُّر به . تقول أنت فيه : دعايات ، وصخب عالٍ ، وكلام جرائد ، ثمَّ تغدو وقد ملتَ ميله ، دون أن تلحظ ذلك في نفسك . . .

وفي هذا العصر الحاضر ، وهذا المجتمع الحاضر ، وهو الذي يقوم أمره على صياح الجماهير ، لا على همسات الفرد ، صار لكلِّ من يجرُّ قلماً أن يدلي بدلوه في كلِّ مقام من مقاسات الرَّأي . فكأنَّ الصُّحافة هي صوت العصر ، ولسان المجتمع ، صمتها سكون الحركة العامَّة ، ووقف الزَّمن عن الدَّوران !

فانظرْ ، حين يكشر الظُّلم عن نابه في الشُّعوب ، كيف أنَّه يستهلُّ السَّضَّ بالتَّضييق على الصُّحافة ، والإيقاع بالصُّحافيِّين ، قبل أن يأخذ أخذه بأفعال الشِّدَّة ، والقسوة ، وإرهاف الحدِّ !

المرأة في لغتنا . . .

العرب تقول : « فلان فحلُ شعر » ، و « فلان فحلُ كَرَم » . وهي لا تقول : « فلانة فحلة كَرَم » ، أو « فلانة فحلة شعر » . وإنَّما الفَحْلة من النساء ، في لسانهم : السَّليطة اللسان ، والمتخلِّقة بأخلاق لا تليق بجنسها . فكأنَّهم كرهوا أن تتشبَّه المرأة بالرَّجل ، حتَّى في اللُّغة ! وأضفْ أنَّ مؤنَّث الرَّجل ، في العربيَّة : هو المرأة ، لا « الرَّجُلة » - إلاَّ في لغة ضعيفة ، يا « رجال » هذا العصر . . .

زوج المرأة اثنان . . .

لو نظرت الزَّوجة إلى رجلها من النَّافذة التي منها تنظر إليه عشيقته ، لرأت رجلاً غير الذي تعرفه في غرفة المنام ، وغرفة الطَّعام ، وبازاء المطبخ ، وغرفة المغتسل والمتزيَّن !

فاذا قال قائلٍ : كلُّ زوج انَّما هو رجلان اثنان ، وليس واحداً ، فانَّه ما غالى كثيراً . . .

شيء أذكر أشياء

يقول كاتب في « الرِّسالة » (مجلَّة صديقنا الأستاذ الزَّيَّات) ، هو الأستاذ كمال نشأت ، وذلك من كلام له على « الجانب الانسانيِّ في شعر أبي ماضي » ، وشعر جماعة من شعراء المهجر الشَّماليِّ الُّلبنانيِّ : « أمَّا شعرنا العربيُّ القديم فقد جانب هذا الاتِّجاه [يريد الاتِّجاه الإنسانيَّ] ، وإن ظهر ، فلمعٌ هنا وهناك » .

ولقد أذكرني كلام الأستاذ نشأت أفراد أبيات قديمة ، تطبِّق المفصل في هذا الموضوع السَّنيِّ . ومن ذلك قول أميَّة بن أبي الصَّلت الأندلسّي :

إذا كان أصلي من تراب ، فكلُّها
بلادي ، وكلُّ العالمين أقاربي !

وقول أبي العلاء من قصيدة له ، شرَّقت طائفة من أبياتها وغرَّبت ، وتناولتها التَّرجمة إلى لغة الإنكليز والفرنسيِّين والترك والروس ، وهي لا تزال تدور في مجالس الأدب في الدُّنيا :

فلا هطلت عليَّ ، ولا بأرضي ،

سحائب ليس تنتظم البلادا !

وهما من جهة هذه النَّزعة الإنسانية التي يستشهد لها الأستاذ نشأت بمثل قول ندرة الحدَّاد ، من شعراء المهجر :

هوذا قمحي الذي أحسبُه ،

ما عشتُ ، قمحَكْ .

أعلى طبقة في المعاني ، وفي المباني ، ممَّا ساقه من الشَّواهد على إنسانيَّات شعرائنا المهجريِّين .

وقد أذكرني ، أيضاً ، كلام الأستاذ نشأت قول البحتريِّ في هذه الشُّعبة من الموضوع :

ولا تقلْ : أممٌ شتَّى ، ولا فرقٌ .

فالأرض من تربة ، والنَّاس من رجلِ !

أمَّا ما أورده الأستاذ من شعر جبران خليل جبران في باب المساواة ، وهو قوله ، من موشَّح له طويل :

ليس في الغابات حُرٌّ ،

لا ولا العبد الذَّميمْ.

إنَّما الأمجاد سخفٌ ،

وفقاقيع تعومْ .

(وكأنَّ الكاتب ، رعاه الله ، قد حلا له في ما حلا له هنا ، هذه [الفقاقيع التي تعوم] . . .) فأين ذلك ، كلُّه ، من قول الشَّاعر القديم :

وإن جاءَنـي يلتفُّ بالطِّمـر أحمـرٌ ،

أتاني أخاً من جانب الأرض يُقبِلُ . . . .

ولا ، والله ، ما لحسن قوله : « أتانـي أخـاً من جانـب الأرض » نهاية !

وكيف أنسى الآن أبيات محيي الدِّين ابن عربي ، وهي التـي فيها يقول :

فقـد صار قلبـي قابـلاً كلَّ صورة .

فمرعـىً لغـزلان ، وديرٌ لرهبانِ ،

وبيتٌ لأوثـان ، وكعبـة طائف ،

وألـواح توراة ، ومصـحف قرآنِ !

أدين بدين الحـبِّ أنّـى توجَّهـت

ركائبـه ، فالحـبُّ دينـي وإيماني . . .

ولعمرك ، ما بعد هذا الكلام طرب شعريٌّ ، ولا سماحة إنسانيَّة !

نعم ، أيها الأخ الكاتب المصريُّ ، إنَّها « لمع » ، كما قلتَ ، ولكنَّها إجادات يباهـي بها أدب العـرب كلَّ أدب ، ولا تدانيهـا في عالية الفصاحـة ، ولا في عالية الرِّقائـق الإنسـانيَّة ، « مهجريَّاتـك » ، هذه . . .

الآلة المباركة . . .

جاء في بعض المجلاَّت الفرنسويَّة لأستاذ جليل في علـم النَّفس ، وهـو من أساتـذة الجامعـة في ليون ، انَّ « التلفيزيون » يطلـق ، في الغالب ، من ألسنة الفتيان في الأسرة ، ويمسك ألسنة الشُّيوخ عن الأحاديث المستفيضة .

ثمَّ قال : ولقد لوحظ في فرنسة ، بعد العهد « بالتلفيزيون » ، ظهور النُّقصان في عدد المجادلات التي تحصل ، في الأحايين ، بين الزَّوج والزَّوجة ، من أجل التَّوافه من الأمور . يريد انَّ مع جلوسهما الى « التليفزيون » لا يبقى مجال للأخذ والرَّدِّ في شيء مَّا .

أفيكون كثيراً على « التلفيزيون » ، بعد الذي تقدَّم لأستاذ الجامعة ، إن أنا قلت في رأس هذا الكلام انَّه آلة مباركة ! . . .

امتناع الصراحة في المذكرات

قرأتُ من كتب المذكِّرات ، بين الأدب والاجتماع ، ومن الكتب التي تقارب هذا الموضوع ، شيئاً كثيراً ، ولم اكتف من القلادة بما أحاط بالجيد ، كما يُقال في المثل . فكنتُ لا أترك في الفرنسويَّة ، « اعترافات » روسُّو ، أو « اعترافات » موسِّه ، أو « دفاتر » بلزاك ، أو « أشياء » هيغو ، أو « إقرارات » بودلير ، من المذكِّرات القديمة ، إلاَّ لآخذ بمذكِّرات موراس ، أو بارس ، أو فاليري ، أو ليون دوده ، أو فرنسوا مورياك ، أو أندره موروا ، أو أندره جيد ، أو ألبير كامي ، أو جيلبار سيسبرون ، إلى أشباههم من المعاصرين . أمَّا المذكِّرات السِّياسيَّة في العربيَّة والفرنسويَّة ، وفي اللُّغات التي منها تُرجمت إلى هاتين اللُّغتين عشرات المذكِّرات ، فتلك من كثرة ما طالعتُ منها ، بتُّ اليوم وأنا لا أكاد أتذكَّر أسماءَها ، ولا أسماء أصحابها !

ولقد صار عندي من الرَّأي ، بعد تلك المطالعات الكثيرة ، انَّ كتابة المذكِّرات ليست نجيَّ كاتب مع قلمه ، كما يبادر إلى الذِّهن . فانَّ الإفضاء بجلاجل النَّفس بلا تكاليف ولا تحوُّطات ، لا يكون مع إرادة النَّشر على الملا . . .

رحم الله ابا العلاء !

جاء في بعض برقيّات الجرائد ، التي ظهرت صباح هذا النّهار ، انّ احد علماء الفلك من الأميركيّين أعلن في حفل عظيم ، وذلك من أيّام قلائل ، انّ عمر الكون مليون مليار سنة !

مليون مليار ، والمليون في العــدد ألف ألف ، والمليار ألف مليون ؟؟؟ فانظرْ ما أصدق ، اذاً ، ما قاله المعرّيّ قبل ألف سنة : « لا أظنُّ أديم الأرض إلاّ من هذه الأجسـاد . . . » ، ثمّ انظـرْ كيف جاء العلم ، هذه المرّة أيضاً ، يثبت الشّعر ، ويخدمه على الرّأس والعين !

الى المرأة

كنتُ أطالع ، من بضعة أيام ، مقالة لكاتبة دمشقيّة طويلة النَّفس ، لم تبق كلاماً في موضـوع حقـوق المرأة مخلَّاً لم يُمتطَ ، الاّ تسنّمتـه ! فحضرني كلام « لمكس أوريل » ، هو من ألطف ما ورد في هذا الباب . قال ما هذا معناه ، يخاطب المرأة :

« تريدين ، يا حفظك الله ، أن تصبحي حرّة ، طليقة ، وانّما نحن الرّجال نقرُّ انّنا عبيدك الخُضّع ! وتريدين أن تدخلي مجالس النُّواب ، وأن تضعي القوانين ، في حين انّنا نقرُّ انّ لفظة عذبة تخرج من فمك ، إنّما هي قانوننا الأعظم ! فامّا أن يكون لك الرّأي في تدبير الشُّعوب ، وسياسة الممالك ، فهذه حزّة أخرى . وإنّك تذكرين ، ولا ريب ، انّ هذا الجنس البشريّ قد سقط سقطته، أيام آدم، من رأي امرأة . . . » .

الفرق في الكلام

من كلام لأبي الأسود الدؤليّ : « إذا أردتَ أن تعظم ، فمتْ ! » .

يريد انَّ الإنسان لا تظهر محاسنه ، ولا يُعطى تمام قسطه من الثَّناء ، إلاَّ بعد أن يصبح في قبره .

وهو كلام من أصدق ما جاء لقائل في هذا المعنى ، ولكنَّني أفضِّل عليه قولهم : « المعاصرة حجاب » ، وإن كان في كلمة أبي الأسود اندفاع إلى صميم الموضوع ، من غير مواربة ، ولا تمهيد . إلاَّ انَّ في كلمته من الجهر بهذه الحقيقة الصَّادعة ، ما يذكر بفظاظة من يقول للأعور في عينه : « يا أعور » ، بدلاً من أن يقول له ، مثلاً : أنتَ ، يا من ذهب حسُّ عينه . . .

افٌّ لهذا الزمن !

صرنا في زماننا لا نكاد نجد في كتب القصص ، ولا في دور السِّينما ، ولا في دور التَّمثيل ، ولا في التلفيزيون والرَّاديوا ، إلاَّ دماء ، ودموعاً ، ونزوَّ شهوات ، وجموح غرائز ! فكأن لم يبق في الدُّنيا حبُّ أبوَّة ، ولا حبُّ أمومة ، ولا حبُّ بنوَّة . بل كأن لم يبقَ في مواجيد النُّفوس شيء اسمه : حبُّ الوطن ، أو حبُّ الجمال ، أو حبُّ الطَّبيعة .

فافٌّ لهذا الزَّمن !

باب الرَّأي

ليس على من رأى رأياً في علم ، أو أدب ، أو اجتماع ، أو في أيِّ إجادة من إجادات العقل ، أن يكون مبرِّزاً في إخراجه إلى الفعل . وانَّ واضع الألحان ، مثلاً ، لا يُكلَّف أن يكون رخيم الصوت ، ولا يُكلَّف صاحب القول بوحدة القصيدة أن يأتي بالقصائد ، وفيها الوحدة التي يريدها في الشِّعر ، وهكذا جرّاً في هذا الباب .

ولقد نقل الثِّقات انَّ الخليل بن أحمد ، وهو واضع العروض ، كما يعلم القارىء ، ولا ريب ، كان يقول الشِّعر البيتين والثَّلاثة ونحوها ، ولا يستطيع أن يخرج إلى ما هو أكثر .

طبائع مثرين

تقول لصاحبك في التَّحيَّة : « كيف أنتَ ؟ كيف صحَّتك ؟ » . وإنِّي أعرف في المثرين جماعةً لولا أن يخجلوا ، لحيُّوا بقولهم : « كيف مالك ؟ كيف دخْلك » ، أي كيف صحَّتهما !!

أولئك ناسٌ ليس لهم من شأن في الثَّروة ، الاَّ الخوف عليها . . .

الثياب اللاَّئقة

يجب أن تلبس الأفكار ثيابها اللاَّئقة من الكلام . حتَّى انَّ الحقيقة البيِّنة ، وهي التي يطنب النَّاس في مدحها بقولهم : « عارية » ، لا يجوز أن تظهر ، وليس عليها شيء يستر ما يستره الإنسان من بدنه ، أنفةً وحياء !

مسألة القافية

أعداء القافية في الشِّعر العربيّ انَّما هم في ذلك أعداء مجد للعرب طويل عريض ! فانَّ القافية إلى العرب تُنسب ، وبها اختصُّوا في الزَّمن القديم ، دون سائر الأمم . ومن أعجب العجب انَّ اليونان واللَّاتين كانت القافية عندهم من عيوب الشِّعر . . . وأما الأمم الأخرى ، فانَّها لم يجئْها عن القافية خبر ! وهذه كتب العبران الأولى ، وهي لا أثر فيها للقافية . والسُّريان لم يعرفوها الاَّ بعد القرن العاشر ، أخذوها عن العرب . والإفرنج منهم تعلَّموها ، وكان أوَّلهم في ذلك الإيطاليُّون

والإسبانيّون والفرنسويّون ، ثمّ عمّت القافية شعر العالم المتمدّن .

وإذنْ ، فلينظرْ هؤلاء الذين يقولون بترك القافية في الشّعر العربيّ ، أيّ بنيان مجد يريدون أن يتهدّم . . .

سقى الله ايام العيد . . .

تنافس الجرائد اليوميّة في سرعة الظُّهور ، والسّبق بأخبار الحوادث ، جرّ المطابع إلى تنضيد الحروف بالآلة التي لا تكلّ ، والاستغناء عن اليد التي تكلّ ، وتعيا . وهكذا ساق الحظّ إلينا ، هذه الأيام ، في الصّحف ، وفي الكتب ، وقد نُقلت إليها عدوى التّنضيد الجديد (والجديد يُعدي !) ، حروف « اليونوتيب » ، و « الأنترتيب » ، و « المونوتيب » ، إلى آخر ما ينبع في الأسماء من هذا القليب . . .

فيا أيها المعجّلون في الطّبع والنّشر : ارحمونا من رؤية هذه الحروف ! فانّنا لا نعلم في العبرانيّ ، ولا في الكلدانيّ ، والقبطيّ ، أنكر شكلاً منها . . .

غاية لا تدرك

المطر مرحمة تهبط على الحدائق والجنان وبسائط الحقول . ولكنّه ليس من المراحم عند المتسوّل المسكين ، وهو الذي يهرع في الشّارع من قرنة إلى قرنة ، هرباً من الزّمهرير !

فانظرْ ، أيها القارىء ، حتّى مرحمة الله لا تستطيع أن تجمع كلّ الألسنة على الإشادة بفضلها . . .

لذّة الألم

يقولون : في الألم لذّة ، وأنا أقول : كلاّ ! ليس من شيء في هذه

الدُّنيا اسمه لذَّة الألم . فانَّ في آلام الأبدان مضضاً شديداً ، وفي آلام النُّفوس مضضاً شديداً ، أيضاً .

ويا من يدلُّني ، بعد هذا ، أين توجد لذَّة الألم ! أمَّا ألم اللَّذَّة ، فلستُ أنا في حاجة إلى من يدلُّني إليه !

الشُّعراء والعُلماء

القلب يجود ، والعقل يحتضن ، ويشدُّ على ما عنده بكلتا يديه . فلا بأس على من يقول انَّ العلماء أهل شحٍّ ، وانَّ الشُّعراء أجود من الرِّيح المرسلة . . .

« قفا نبكِ . . . »

الدُّور والمنازل والدِّمن في المدن ، وفي القرى ، مواطن للتَّذكار . فعند كلِّ حائط يكاد يستطيع المرء أن يقول : « قفا نبكِ » ! ولكن من النَّاس من لا يقوى على التكلُّم بلغة امرىء القيس . . .

« طَبْطِبوه . . . »

ليس من شيء أثقل على النَّفس ، وقد أخذ المجلس زخرفه ممن حضر ، وطاب الحديث ، كالذي يتكيَّس ويتظرَّف ، وهو لا كيِّس ولا ظريف !

ومن نقول « الرَّاغب » في « المحاضرات » قوله في التَّغافل والتَّكيُّس : « وقيل : من تغافل فعقِّلوه ، ومن تكيَّس فطَبْطِبوه ، أي العبوا به على الطَّبطابة . . . » .

والطَّبطابة هي ما يسمَّى في أيَّامنا « بالمضرب » . شبه إطار من

خشب ، فيه كالشَّبكة ، وله مقبض . يُضرب به الكرة الصَّغيرة في لعبة « التَّنس » المعروفة .

أمثولة عضد الدَّولة

هذه أمثولة يجب أن تطرق مسامع المكلفين إرشاد النَّاس في زماننا إلى طريق الديمقراطيَّة المنجِّي :

كان عضد الدَّولة البويهيُّ ، وهو أحد المتغلِّبين على الملك في عهد الدَّولة العبَّاسيَّة في العراق ، لا يجعل للشَّفاعات سبيلاً عنده . قال ابن الأثير في « الكامل » : شفع مقدَّم جيشه [أسفار] في بعض أبناء العدول ، ليتقدَّم إلى القاضي ، ليسمع تزكيته ، ويعدِّله ، فقال : ليس هذا من أشغالك ، إنَّما الذي يتعلَّق بك الخطاب في زيادة قائد ، ونقل مرتبة جنديّ ، وما يتعلَّق بهم . وأمَّا الشَّهادة وقبولها ، فهي إلى القاضي ، وليس لك ، ولا لنا ، الكلام فيها » ، إلى آخر ما جاء هناك .

أقول : ومن ذا الذي يعجب ، بعد هذا الكلام ، ممَّا وصف به بعضهم عضد الدَّولة ، على ما في « ربيع الأبرار » ، وذلك حيث يقول : « وجهٌ فيه ألف يمن ، وفمٌ فيه ألف لسان ، وصدرٌ فيه ألف قلب » . ثمَّ ما على هذا القائل لو زاد : « ورأسٌ فيه ألف دراية بنظام الحكْم » ، وحقُّه في الزِّيادة على كاتب هذه السُّطور !

في البديهيَّات

هذه البديهيَّات التي لا يختلف فيها اثنان ، نحو قولك : اثنان واثنان حاصلهما أربعة ، انَّما هي مجرَّد أقوال رسخت في أذهان البشر حقائق ثابتة ، ولا كلام فيها .

فيا ليت شعري : هل تجيئنا الأنباء ، بعد الوصول إلى القمر ، انَّ جماعة السكان هناك يقولون انَّ اثنين واثنين حاصلهما ثلاثة ، أو خمسة !!!

هذا إذا صحَّت الأحلام ، وكان في القمر أناس من بني أبينا آدم ، أو من بني أخ أو عمٍّ له . . .

الإنسان الصحيح !

كان ريفارول ، وهو من كتَّاب الجرائد الهزَّالين ، وأهل اللَّواذع في النَّقد ، في القرن الثامن عشر ، في فرنسة ، لا يرضى في الدُّنيا عن شيء ، ولا يكفُّ عن انتقاد ، فقال فيه فولتير : « هذا هو الفرنسويُّ الصَّحيح !!! » .

ويا لله كم كان فولتير مصيباً ، لو انَّه قال في ريفارول : هذا هو الإنسان الصَّحيح . . .

غلط المطابع

كان النَّسخ ، قبل عهد النَّاس بالمطبعة ، من بلايا أصحاب الأقلام ، لما كان يقع فيه من تصحيف وتحريف ، حتَّى لقد قال بعضهم : « النَّاسخ ماسخ ! » ، وقال الشَّاعر :

وكم ناسخ أضحى لمعنىً مغيراً ،
وجاء بشيء لم يرِدْه المصنِّفُ !

وفي أخبار الظُّرفاء والمتماجنين ، انَّ أحد غُلاة الكتب سأل بعض نسَّاخ اليهود أن يكتتب له كتاباً عن « أناشيد سليمان » ، فجاءه اليهوديُّ

بعد أيام ، وقد نسخ « الزَّبور » ، وهو « مزامير داوود » . فقال الرَّجل : « تعالوا انظروا ! أطلب طنابير ، فيجيئني بمزامير . . . » ، يلمع إلى ما في « نشيد الأناشيد » من طرب ورونق ، وما في « المزامير » من بكاء وجزع وندم على الفائت . وقد سارت كلمته مثلاً .

هذا ما كان من أمر النَّسخ قبل العهد بالمطبعة . أمَّا اليوم فانَّه يقع في الطَّبع من الغلط ، وتغيير اللفظ ، حتى ليتغيَّر المراد ، في بعض الأحيان ، من أصله ، أكثر مما كان يقع من ذلك في نسخ كتاب من كتاب . فكأنَّ أصحاب الأقلام لا يكفيهم همُّ تمثيل المعاني بالألفاظ ، حتَّى يبتلوا في الأمس بالنَّسخ ، ويبتلوا اليوم بتمثيل الكلام بالطَّبع !

ألا إنَّ في شقِّ القلم مشقَّات لا تنقضي . . .

الأبيض والأسود . . .

من أعجب العجب انَّ الأرض التي تربتها سوداء هي التي تنبت أجود الصُّنوف من القمح الأبيض ! ولقد فطن النَّاس لهذه الحقيقة « النَّاصعة البياض . . . » ، بعد أن تحرَّكت قارَّة إفريقية حركتها هذه القائمة .

فعسى أن تظلَّ المسألة بين قمح وقمح ، لا أن تخرج إلى أبيض وأسود !

آلة الإقرار !

ضرب المتَّهم للإقرار بجرم اقترفه ، قديم قدم الحكومات والأجرام والمتَّهمين . وقد قال « ابن المطرِّز » ، يشير إلى ما كان يقع في وقته من الاعتراف بالجرائم ، تخلُّصاً من العصا :

ولـم اعتـرفْ أنّـي جنيتُ ، وإنّما
يصانـعُ بالإقـرار من ألـم الضَّربِ .

وليس العجب أن تكون العصا في تلك العصور المتقادمة هي أداة الكشف عمّا وراء الضمائر ، بل العجب أن تظلّ أداته ، أيضاً ، في زمن البسيكولوجيا ، والكريمونولوجيا . . .

الكتاب المعجز

ما قرأتُ في « القرآن » قطُّ ، وتلقّتني تلك الفصاحة من كلّ جهة ، وشهدتُ ذلك الإعجاز الـذي يطبِّـق العقـل ، إلاّ صحـتُ بنفسي : « انجي ، ويحكِ ، فانّني على دين النّصرانيّة . . . » .

الصَّديق الضَّائع !

يا من يدلُّني إلى الصَّديق الذي يُقال في وصفه ، انَّه يجوع لتشبـع أنت ، يا صاحبه ، ويموت لتحيا ، ويعرى لتلبس الحرير والوشي ، أين هو ، وله منِّي نور عينيَّ مكافأةً . . .

وضوح الحقائق

إنَّ الـذي يريد أن يفهـم الحقيقـة ، لا يحتـاج في أمرهـا إلى شرح مطوَّل ، كشرح « ابن عقيل » ، على « الألفيَّة » . . . ولله ما ألطف قول القائل في قريب من هذا الباب : صاحب الباطل ملسان ، وصاحـب الحقّ بطيء اللِّسان !

حقيقة اجتماعيَّة

إنَّ البلاد المكتظَّة بالسُّكَّان هي ، من ناحية الاجتماع والأخلاق ، غير

البلاد التي قليل سكّانها . إذ انّ الذين يعيشون ، مثلاً ، مئات في رقعة من الأرض سعتها عشرة آلاف متر مربّع ، يكدّون في طلب الرّزق أضعاف ما يكدّ الذين يعيشون عشرات في الرُّقعة نفسها . هؤلاء في نعمة مّما يكفي ، ومّما يفضل ، أمّا أولئك فانهّم من الحاجة إلى البلغة لا يوفّرن شرائع ، ولا آداباً ، ولا تقاليد ، ولا عادات . المسألة عندهم مسألة حياة وموت !

فالقول في لغة أهل السّياسة : « مدىً حيويّ » ، إلى ما هنا مردُّه ، ومّما هنا يُفهم معناه .

أخلاق علماء !

من كان لا يعلم كيف يتبادل العلماء الإجلال والأتّضاع والمخاضعة ، على ما في نفوسهم من عزّة ، فانّه واجد في هذا الذي أسوقه الآن من حديث للأمير شكيب ، وحديث للشّيخ محمد سليمان (من الكتّاب ، وقضاة الشّرع ، في مصر) ، ما يشفي غلّته !

قال الأمير شكيب في مقالة له ، في جريدة « الجهاد » المصريّة ، كتبها عند وفاة السيّد رشيد رضا :

« لقد روى الأخ الوفيّ الكاتب البارع السّيد محمد علي الطّاهر ، صاحب « الشّورى » ، أنّه رآني في بور سعيد ، عندما تلاقيت مع السيّد رشيد عانقته وعانقني ، وجرت دموع الإثنين، ثمّ أهويتُ على يده فقبّلتُها .

« نعم ، قبّلتُ يد العلم والفضل ! » إلى أن يقول : « وإنّ من أعظم حسرات قلبي أن أكون بعيداً عن مصر ، وأن أحرم تقبيل تلك اليد قبلة الوداع الأخيرة . . . » .

وقال الشّيخ محمد سليمان في كتابه « من أخلاق العلماء » :

« حدَّثني من رأى الشّيخ عبد الرحمن الشرّبينيّ ، الذي ولي مشيخة الأزهر ، وقد جاء إلى الشّيخ الأشمونيّ ، وهو العالم المشهور ، فرآه مضطجعاً على جنبه . فوضع الشّيخ الشرّبينيّ حذاءَه بعيداً ، ثمَّ أقبل متخضّعاً حتى جثا ، ولثم يد الشّيخ الأشمونيّ . قال محدّثني : [وكان الأشمونيّ ربّما قال له المرّة بعد المرّة : إزّيّكْ ، يا عبد الرحمن ؟ فيكون الشّيخ كأنّما حيّته الملائكة !] » إلى أن يقول :

« وحدّثني أستاذنا الشّيخ عبد المجيد اللّبّان انّ الشّيخ الباجوريّ ، شيخ الجامع الأزهر ، كان يجلس بعد المغرب في صحن المسجد ، فيقبل الطّلبة والعلماء عليه يقبّلون يده . وكان الشّيخ مصطفى المبلّط ، وهو أكبر منه ، ناظره في طلب المشيخة ولم ينلْها . فكان إذا رآهم اندسَّ بينهم ، وقبّل يد الشّيخ . فانتبه الشّيخ الباجوريّ مرّةً ، فعرفه ، فأمسك بيده ، وبكى ، وقال له : [حتّى أنت ، يا شيخ مصطفى ؟ لا ! لا !] ، فقال الشّيخ مصطفى : [نعم ، وأنا ! لقد خصّك الله بفضل وجب أن نقرّه !] » .

هذه أخلاق معرقة في كرم العنصر ، وقد ذهبت بذهاب أهلها ، ولم يبقَ منها الاّ طيب الاحاديث عن أيّامها ، سقى الله أيّامها ! ولعمرك ، انّ التّواضع في المجد أعظم من المجد ، على حدّ ما قال بعضهم للمأمون العبّاسي ، وقد رآه في أبهّة الخلافة يتخاشع للنّاس .

رسائل خصوصيّة

إلى سياسيٍّ غير مجرَّب ـ لو أنت تعلم انَّ الذي هزأ بالآثينيّين ،

وأزرى برجالهم ، ووضع من حقّهم ، قد قتلوه ، وانَّ اسمه كان سقراط !!!

إلى شاعر ناشىء - إياك أن تكلِّف نفسك نظم الشّعر ، إن هو لم يكن في طبعك ، والاَّ غدوتَ كمن يتكلَّف الألحان بلا صوت !

وأمَّا إذا كُتب لك الطَّبع ، ولم يكن عندك أداة الشّعر ، أي البيان ، فإيَّاك والنَّظم ! فانَّ شكسبير لم ينظم « هملت » بلغة الجرائد . . .

إلى كاتب قصصّي - أنا (والكلام هنا في ما بيننا !) لا أعرف قصَّةً لم تذهب فيها إلى المستشفى عاشقة تكرع لذائذ الحبّ دون أن تذوق طعم الدُّموع ، ولم يذهب فيها إلى السِّجن شابٌ بارع الشّكل يجد الدَّراهم بين يديه في سهولة ، ولم يذهب فيها إلى القبر رجل تحبُّه النِّساء ، ويحبُّهنَّ هو حبَّ الحمام في أوكاره وأدواحه !

فاذا كنتَ أنت تكدُّ قلمك الآن في كتابة قصَّة تدور على مصير واحد من هؤلاء الثَّلاثة ، فمن النَّصيحة عندي أن تستريح حيث تتعب في سرد كلام عليه رشاش من ريق ألف قائل . . .

من آفات العصر

الإجهاد ، أي أن يحمِّل الإنسان نفسه فوق طاقتها ، هو من آفات زماننا. وليس السَّرطان بالنِّسبة إليه إلاَّ علَّة خصوص ، وهو علَّة عموم !

لقد كثرت مطاليب العيش ، وكثر الانفعال النَّفسانيُّ من الواردات المتلاحقة على البصر والسَّمع ليل نهار ، وبلغت السُّرعة مبالغها في المواصلة ، والتَّقلُّب ، وفي كلّ معالجة لأشياء الحياة ، فجاء النَّاس « مرض الإجهاد » يمشي على قدمين !

ومن ألطف ما ورد لأصحاب معجمات العربيّة ، أنهم ربطوا المعنى في « أجْهَدَ » بالحيوان ، لا بالإنسان . ففي الأمّهات : « أجْهَدَ الدَّابَّة ، حمّلها فوق طاقتها » . . .

التّقدُّم والتّأخُّر في الزّمن

ليس أوّل من اكتشف النّار ، ودلَّ إلى استعمالها ، بأقلّ قيمة في تاريخ الحضارة ، والإتيان بالخير للبشر ، من الذي اكتشف قضيّة الذَّرَّة في أيّامنا ، ودلَّ إلى ما ينشأ عنها من فوائد لا يكاد يُصدَّق حصولها .

هذا مقام لا حساب فيه للتّقدُّم والتّأخُّر في الزّمن ، وانّما الحساب لما يُساق إلى النّاس من مرافق ينتفعون بها .

كبوة جواد

« موريس بارس » ، الكاتب الفرنسويّ الأشهر ، كان صديقاً لوالدي . عرفته على مائدتنا ، إذ أنا في الثالثة عشرة من العمر ، وسمعته يخطب على المائدة ، ويشيد بأدب والدي ، ممّا فصّله في كتاب له على رحلته إلى الشّرق ، يكاد يعرفه في لبنان كلُّ من يعرف اللُّغة الفرنسويّة . ولقد ملأ « بارس » يومئذ عينيَّ الفتيّتين ، وقلبي الطّريَّ ، وأحببته حبّين : حبَّ الفصاحة ، وحبَّ صداقته لوالدي . ثمَّ انّي لمّا كبرتُ عن الصّبا ، ووقفتُ على ممتعات « بارس » في الأدب والاجتماع وفلسفة الحياة ، لم ينقصْ شيء ممّا كان من أحد حبّيَّ هذين له . بل انّني كنت كلّما ظهر له كتاب ، أو ظهرت عنه كتابة ، أهتف بذكرهما في مجالس الأدب ، وأطيل فيهما ، حتّى لقد قال لي بعضهم ذات مرّة : « تذكر بارس أبداً ! أفهذا ، كلّه ، كرامة لعلاقته بوالدك ؟ . . . » . ولقد فات

صاحبي انَّ المداد الذي كان « ذو العلاقة بوالدي » يغمس فيه قلمه ، هو من أشهى ما أفاضه الفكر والإحساس والخيال فوق الورق !

هذا ، وأنا أذكر « بارس » اليوم لمناسبة مرور مائة سنة على ميلاده ، وقيام الفرنسويِّين للاحتفال بذلك في مجامعهم ومعاهدهم وصحفهم (وما برح الأوروبيُّون قدوةً في إكرام كلّ عظيم !) .

وعلى ذِكر « بارس » حضرتني الآن كلمة له في بعض « دفاتره » ، (وهي مذكِّراته المشهورة ، التي مُثِّلت بالطَّبع بعد وفاته ، والتي قيل انهَّا لباب أدبه ، وخلاصة نظراته إلى الحياة) . قال ما هذا مفاده : أنا أخاف الحياة ، وبلايا الجسم ، وفظاعة الآلام ! ثمَّ انَّه لا مسدَّس عندي ، ولا كلوروفورم ، فأراني بين يدي رداءَة القدر أعزل ، لا سلاح معي . . .

إنَّها ، في ما أحسب ، نفثة من النَّفثات التي يُراد بها التَّخفيف عن الصَّدر ، في بعض ما يضيق عنه في الأحيان من حزن ، أو همّ ، لا كلمة جادٌّ قد قطع في قوله . ولكن خروجها من فم « بارس » هو ، على كلِّ حال ، في منتهى العجب !

أومع هذا العقل الثَّاقب ، وهذا الصَّدر الرَّيَّان من حبّ الجمال والطَّبيعة ، ومن العنى الشَّديد بكلّ خافية من حقائق الأشياء ، يُفكِّر ، ولو عن غير اكتراث وعقد نيَّة ، في إلقاء القدم خارج الطَّريق !!!

أما ، والله ، لقد صدق مثلنا العربُي القديم : لكلِّ جواد كبوة!» .

لذَّة المطالعة

لا تخلق عندي ديباجة هذا الكلام ، الذي قاله بعض الكتَّاب ، وقد

أنسيت من هو : ما أحببتُ طول الحياة في وقت ، مثل الوقت الذي أطالع فيه . هناك يعزُّ الفراق . . .

لله ما أعلم هذا الكاتب بطعم اللَّذائذ !

المرأة بالخيار !

في هذا الزَّمن لا نستطيع ، طبعاً ، أن نقول في النِّساء ما قاله المعرِّيّ :

علِّموهنَّ الغزل ، والنَّسج ، والرَّدن ،
وخلُّوا كتابةً ، وقراءَهْ !

ولا ما قاله « هكطور » عند توديع « أندروماك » ، وقد طلبت منه أن لا يسير إلى الحرب :

فلكِ النَّسج ، وفتل المغزل ،
ولنا أعمال سُمر الذُّبَّلِ !

ولا ما قاله موسى الهادي ، الخليفة العبَّاسي ، لأمِّه (الخيزران) ، يوم استبدَّت بالأمر ، وكثر المختلفون إليها لقضاء الحاجات : « ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ أما لكِ مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكِّرك ، أو بيت يصونك ؟ . . . » .

اللَّهمَّ ، نعم ! ليس لنا اليوم أن نقول شيئاً من هذا كلِّه . فانَّ الدُّنيا تبدَّلت ، وانقلبت المرأة في الاجتماع الإنسانيّ من ناحية الى ناحية أخرى ، ولكنَّ الَّذي نستطيع قوله ، هو انَّنا ، نحن الرِّجال ، لا تعجبنا امرأة يُشمُّ من أناملها رائحة المعاول وسكك الحرث في الحقول ، ولا رائحة آلات الحديد في المصانع ، ورائحة الزُّيوت في السَّيَّارات

والطَّيَّارات . بل تعجبنا المرأة التي يكون على أناملها الـورد ، أو ماء الورد ، أو نسيمه وشميمه !

وبعد هذا ، فلتختر المرأة من الرَّوائح ما تراه أجدى لها . . .

في الفتوح السَّمائيَّة

بعد فتح القمر ، وفتح المرِّيخ (إن شاء الله !) ، يبقى علينا في السَّماوات العلى فتح أفراد من النُّجوم يُقدَّر عددها ، على ما في قول لأحد علماء الرُّوس ، رأيته له من بضعة أيَّام ، بنحو من خمسة ملايين ، وزيادة ! أي انَّه يبقى في الحساب عشرات الألوف من كواكب مستعصياً علينا بلوغها ، ومن ورائها من لا تصل إليه « الصَّواريخ » ، ولا « المركبات الفضآئيَّة » ، ولا « الأقمار المصطنعة » ! وهو ، هو الذي لا تتلاقى الشِّفاه على التَّلفُّظ باسمه حتَّى يُقال على الفور : سبحانه ، وتعالى . . .

دفع المحال بالمحال

يوم عادت مسألة شكسبير إلى صحف الأدب في أوروبة ، وذلك من بضعة عشر عاماً ، وعادت النَّغمة القديمة في نكران وجوده ، وفي كون رواياته وأشعاره هي من وضع جماعة عزوها إليه ، أي كما قيل في شعر هوميروس ، وشعر موليار ، يومئذ كتبت إحدى المجلاَّت الفرنسويَّة في ذلك فصلاً لطيفاً قالت فيه ما معناه : ما لهم لا يطوون بساط هذه المسألة ، فيقول واحدهم ، مثلاً : انَّ شكسبير لم يولدْ في الدُّنيا ، وانَّ هذا الشِّعر الَّذي نُسب إليه ، وأطرب النَّاس ، إنَّما هو لرجل آخر اسمه ، أيضاً ، شكسبير !!!

وما أشبه كلام المجلّة الفرنسويّة ، هنا ، بقول الشّاعر العربيّ القديم (وهو من أبيات الشّواهد على الاكتفاء) :

أقول المحالَ لدفع المحال ،
ومن صاح في الواد يلقَ الصدّى !

كلمة ابن قيّم الجوزيّة

كنتُ أراجع يوم أمس ، في بعض كتب « التّفسير » ، كلاماً على « من خلاف » في الآية « لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم مِنْ خِلاف » ، فهالني ما هناك في التّرهيب من وصف الحزّ والفصل ، وحلت في عيني كلمة لابن قيّم الجوزيّة ، قالها على الاسترسال في المعاصي : « عجباً لعزمات ما ثناها [لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف] » !

الحائط المتصدّع . . .

في الحياة الزّوجيّة حائط النّفس ، وكتمات الصّدر ، وخصائص الذّوق ، وللغرائز والملكات الخاصّة ، يشارف من فوقه ، في بعض الأيّام ، كلّ منهما الآخر بالتّراوح : هو مرّة ، وهي مرّة .

وإنّ هذا الحائط متصدّع ، متهادم ، من غير أن يسقط . فاذا هما صعدا عليه في كلّ يوم ، لترديد النّظر ، ضعف عن مواصلة التّحمّل ، وسقط ، وانفخت الدّفّ ، وتفرّق العشّاق . . .

وأد « بنات الأفكار » . . .

وأد البنات أقبح ما جاء للعرب في جاهليّتهم ! ولكن وأد « بنات الأفكار » في المسوّدة ، أي طرح الرّديء ، والإبقاء على الجيّد ، هو من النّعم الجليلة على أصحاب الأقلام !

فأمّا عند هذا الطَّرح وهذا الإبقاء ، فانَّ العضَّ على الحجر أيسر من معرفة الوجه الأصوب من الوجه الصَّواب . . .

وأنا معترف هنا انَّني في ذلك موجع الأسنان أبداً !

قاعدة السِّياسة

القاعدة في السِّياسة أن ليس في السِّياسة قرار ! ومن هنا جاء قولهم « طير السِّياسة قواطع » . يريدون انَّ الرِّجال السِّياسيِّين كقواطع الطَّير ، وهي التي لا تقيم بمكان واحد وتدوم فيه .

أما المهمُّ في كلِّ عمل سياسيّ فهو النَّتائج ، أي مقدار ما يُصاب من الغنيمة !

« ولا تنفِّروا » . . . .

يسمع المريض في الأحيان ، مثلاً ، كلمة « سالمٌ أنت ! » ، فيتوجَّه له أنَّه يبرأ ، كما سمع . ومن علماء الطِّبّ الحديث من يشير في بعض المداواة إلى الموسيقى ، ولطائف الأحاديث ، وسوق البشائر .

فأنا أسأل : أيُّ ضير يكون عليك ، إن أنت عملت في النَّاس بالكلمة « الحديثيَّة » المعروفة : « بشِّروا ولا تنفِّروا ؟ . . . . »

الأثرة

من نعم الله على الإنسان انَّه يخرج من أحشاء أمِّه ، وهو على حبٍّ للنَّفس مفرط . . . إنهَّا الأثَرة ، تلطف جدّاً ، ولا ريب ، بطبع النَّفس على حبّ الناس ، وبرِّهم ، والإحسان اليهم ، لكنَّها لا تبرح عالقةً بالغريزة ، تمدُّ عنقها في كلِّ حزَّةٍ . فانمَّا هي التي توحي الحرص على

الحياة ، وتحرّك الهمم في طلب الأمور العالية ، وفي حبّ التّقدّم على الأقران !

تكرُه !

أفّ للبنانيّة لا تحبُّ من الموسيقى الاَّ « الجازّ » ، موسيقى العبيد السُّود ، وما فيه من صخب واستهتار ، ولا من الكتب الاَّ قصص « فرانسواز ساغان » ، وما فيها من قباحات وشقاحات في الهوى المنحرف . . .

القصص « البوليسيّة »

لا أعرف كيف يغتفر الأدب لهيغو ، بعد أن فتح باب الكلام على المجرمين والجرائم والعقوبات ! فانّه منذ اليوم الذي أخرج فيه « كلود » ، و « آخر يوم من أيام المحكوم عليه بالقتل » ، و« البؤساء » ، وأدار قلمه في مسألة المجرم والعقوبة ، في تلك الخواطر الضّافية على الملكات والغرائز ، ما برح ضعفة الكتّاب ، في كلّ أرض ، يفتلون بين الذُّروة والغارب في هذا الذي يقال له : « القصص البوليسيّة » .

و « القصص البوليسيّة » ، كما يرى القارىء في زماننا ، هي التي تستوي على العروش فوق رفوف المكاتب ، والتي تجرُّ الذّيل في ستارة السّينما ، وزجاجة التلفيزيون .

فرحم الله فيكتور هيغو ، ولا آخذه بهذه الجريرة !

في قلب « القارىء » . . .

يا من يطلعني على القاعدة التي إليها استند جلّة من « القرّاء » في

قراءَة « عليهم » و« إليهم » و« لديهم » بكسر الهاء ! فأنا من خمسين سنة أتعلَّم ما أقيم به لساني في العربيَّة ، وأنا من خمسين سنة (وناهيك بها على النَّحو والصرّف طول مدَّة . . .) ما وقفتُ على قاعدة لهذا الكسر تشفي الغليل !

كان يُقال في المعاني الشّعريّة التي لا يظهر لها وجه : « المعنى في قلب الشّاعر ! » ، فهل من حرج إن أنا قلت بازاء الكسر الملتبس في هذه الهاء : « القاعدة في قلب القارىء » ؟!

ثمَّ فليهوّن عليه أديب في دمشق ، كتب إليَّ من أيَّام يقول ، انَّه لا يفهم معنى « اللَّتيَّا والَّتي» في قولهم ، مثلاً ، « بعد اللَّتيا والَّتي صار كذا » ، وانَّه لم يقنعه ما قيل : انهَّما من أسماء الدَّاهية ، ولا ما قيل : انَّ المراد ، بعد صغير المكروه وكبيره !

واحدة من ألوف !

شجاني ما رواه صديقي الرَّحَّالة العربيُّ الشابُّ عدنان تلُّو من قصَّة نازحة لبنانيَّة ، اسمها مرغريت ، من « حمَّانا » ، في بلاد الجبل . تزوَّجها جنديٌّ ألمانيٌّ ، على كره من أهلها ، وذلك في إبَّان الحرب العموميَّة الأولى ، وسافرت معه إلى وطنه ، تاركةً من أجله وطنها . ثمَّ مضت الأيام ، فمات زوجها ، وقُتل في الحرب العموميَّة الثَّانية أولادٌ لها ، وهم في زهرة العمر ، ولم يبقَ لها من الولد إلاَّ طفلٌ ، وبنت غضَّةُ الحداثة .

قال الرَّحَّالة تلُّو ، إنَّه بينما هو في ألمانية ، وكان قد مضت عليه مدَّة لم يسمع فيها كلمةً عربيَّة ، حدَّثه بعض إخوانه الألمانيِّين حديث

مرغريت ، وأنّها تقيم بقرية من قرى « شتوتغارت » ، فقصد إليها ، واجتمع بها ، وهي قد علت سنُّها ، وطوت مراحل الصِّبا . قال : إنّها كلّمته بالعربيّة ، وقد انسيت بعض ألفاظها ، وانّها بكت بدموع الفرح لرؤ يتها زائراً يتكلّم بلغة بني قومها . ثمّ ذكر أنّها في أثناء الزِّيارة غمزت زرّ « الرّاديو » نحو إذاعة تونس ، فاذا صوت عبد الوهّاب يرجُّ في ذلك البيت الألمانّي بالأنشودة المعروفة « يا حبيبي إنّما الحبُّ دموع وجراح » ، ويملأوه حنيناً وشجواً . . . وهنا يتعالى من زاوية البيت صوت ذو غصص ودموع وحسرات ، هو صوت مرغريت التي أخذت تردِّد في إيقاع حزين هذه الأغنية من اغانيِّنا العاميَّة ، وهي لا تزال تتطاير في بلاد الجبل اللبنانيّ من هضبة إلى هضبة :

يا رايحين عا حلبْ حبّي معاكم راحْ
يا محمّلين العنبْ فوق العنب تفّاحْ . . .

إلى آخر ما ذكره صديقنا الرّحّالة من خبر تلك اللُّبنانيَّة الذي تتوجَّع له القلوب رقّةً ورحمة .

لم تنسَ مرغريت ، وهي في قرية من مقاطعة « شتوتغارت » ، برغم تطاول الزّمن ، وانقطاع اللّقاء ، « حمّانا » وشعابها الغارقة في الأعناب والتُّفّاح ، على أنّها هي تكاد تنسى الألفاظ العربيّة التي تؤدّي بها أشواقها ، وحنينها ، ومواجيد نفسها !

أما والله : ليس ما هنا مقام حبر وورق ، وانّما هو مقام شجوٍ ، وتحرُّك مدامع ، وإمعان نظر في حال عشرات الألوف من بني قومنا ، أمثال مرغريت ، منطرحين على جنبات الدُّنيا ، وقد أوشكوا أن ينسوا لغة اهلهم ، ولكنّهم في الفترات يهزُّ أكبادهم الشّوق إلى الأرض التي

يُحمل منها التُّفّاح فوق العنب . . . ويكاد ينطق لسان حالهم بما قاله العكليُّ :

إذا قلتُ : مات الشّوق منّي ، تنسّمت
به أريحيّات الهوى ، فتنسّما !

هذا ، ولله ما أصدق ما قاله والدي في « كتاب المنفى » : « اللُّبنانيُّ كبعض أنواع الشّجر ، من ذلك الّذي لا تطيب له الحياة إلاّ في تربته . فاذا هو نُقل إلى غيرها ، لوى عنقه من همّ الفصال ، أو مات فوق جذعه ! وأنا أدري كيف يموت مغتربونا من الشّوق مرّتين في النّهار القصير . . . » .

كيس العقل

مكاسب القلب من مشاعر ، وعواطف ، وأحاسيس ، لا يسقطها العقل من حسابه ، بل هو يروزها ، وينتقدها ، وينفي منها ، على حدّ قول الشّاعر القديم : « نفي الدّراهيم تنقاد الصّيارفِ » ، ثمّ يضع الصّحيح منها في الكيس !

أيام الصّديق

شرُّ أيام الصّداقة يومٌ تحتاج فيه إلى صديقك ! يومئذ تقطع الصّداقة رجلها عنك .

فإيّاك أن تصدّق قول القائل : « الصّديق أخوك في الضّيق » ، بل أنت تجد صديقك ، وطيب مواصلته ، في أهنإ أيّامك بالسّعادة ، والرّخاء ، والبركة عليك . . .

ولا يلتقيان . . .

« الشرّق شرق ، والغرب غرب ، ولا يلتقيان ! » ، كلمة إذا أريد بها اختلاف الأذواق ، والطّبائع ، والعادات ، بين خافقي الأرض ، كانت عندئذ صواباً لا يُؤتى من جهة !

ولقد ظهر من صوابها في الموسيقى العربيّة ، في هذه الحقبة الأخيرة ، شيء لا يخفى على من عنده مسكة من الذّوق . فانَّ الأستاذ عبد الوهّاب، نابغة موسيقى العرب في زماننا ، بعد أن بلغ مبالغه في ما هو ملذّة بني قومه ، وألفة أذواقهم ، وهوى أكبادهم ، أراد التّقريب في النّغم بين عربيّ وفرنجيّ ، فجاء بألحان ليست عربيّةً فيسترسل إليها العربيّ ، ولا فرنجيّة فيسترسل إليها الفرنجيّ . ألحان « خلّيطى » ، كما كانوا يقولون في العربيّ القديم ! وأين الطّرب ؟ أين الشّجو ؟ أين ما تنقاد له القلوب ؟ . . . طار هذا ، كلّه ، عن موسيقى نابغتنا . فاذا سمع واحدنا هذا الجديد منها ، خرج على وجهه وهو يقول : يا من يأتيني بخبر عن قديم عبد الوهّاب ! ! !

فعل الكلمة وبقاؤها

ليس شيء في الدّنيا يفعل فعل الكلمة ، ويبقى بقاءَها ! فانّما بالإنجيل قُوّضت دعائم البطش في ممالك « رومة » ، وبالقرآن زُحزح النّاس في « الجزيرة » عن عبادة الأصنام . أمّا من جهة بقائها على الدّهر ، فانظرْ أيّ شيء كانت بنت « سعد » ، تلك البدويّة السّاذجة التي لا تعرف قراءَة ولا كتابة ، والتي جُنَّ بها « ابن الملوّح » ، وقال فيها هذا الغزل الشّهيّ ، حتّى تهتف باسمها الكتب العربيّة ، والأغاني العربيّة ، منذ مئات السّنين ، فيقال « ليلى » ، ويقال « يا ليل » ، ما

دارت الشّمس . . . في حين انَّ ملايين من أهل زمانها قد طُويت أسماؤهم ، وساخوا في جوف الأرض ، فكأنَّهم لم يمرُّوا فوق سطحها ! ! نسي النَّاس تلك الملايين من الخلائق ، ولكنَّهم لم ينسوا :

دعا باسم ليلى غيرها ، فكأنَّما
أطار بليلى طائراً كان في صدري !

فللَّه ! ما أعظم هذا الذي تنبث به الشِّفاه ، أو يحمله الورق . . .

علم الابتسام للأعداء !

لم تستطع السِّياسة أن تعلِّمني كيف أبتسم للأعداء ! واللَّذين حذقوا هذا العلم يقولون بالاستطراد للعدوِّ ، وإبقائه بإظهار الرِّضى عنه ، والمداراة له ، حتَّى تأتي الفرصة ، فيؤخذ على غرَّة . وهؤلاء يقول شاعرهم ابن العلاء الرقِّيّ ، على ما أورده التَّوحيديُّ في « الصَّداقة والصَّديق » :

وأحزمُ النَّاس: من يلقى أعاديه
في جسم حقدٍ، وثوبٍ من مودَّاتِ !

فيا من عنده علم التَّبسُّم في وجوه الأعداء : ناشدتك الله ، علِّمني كيف يكون ذلك ! . . .

شرط المحاكاة

يقول أرسطو : إنَّ المحاكاة هي شأن النَّاس في كثير من حركاتهم وسكناتهم ، ومن خافٍ وبادٍ في آرائهم . ثمَّ يقول : وأيُّ بأس بهذه المحاكاة !

ويظهر لي انَّ أرسطو لا ينعى على النَّاس في هذا الكلام تقليد بعضهم لبعض ، وإنَّما هو يشترط من طرف خفيّ أن يكون التَّقليد من نتائج الاستحسان ، حتَّى لا يجيء الأمر محاكاة قرود . . .

والاستحسان معناه : حبُّ الأشياء الحسنة وتفضيلها . ولا يقال في باب الأخلاق ، ولا في باب اللُّغة : استحسن فلان عمل الشَّرّ .

علامات الشَّيخوخة

الشَّباب لا يلاحظ صاحبه ريعانه ، ولا قوَّته . فاذا أنت لاحظت في بعض الأيَّام أنَّك على صحَّة جيِّدة ، وأنَّك ملآن نشاطاً ، فاعلم ، يا رعاك الله ، أنَّك قد دخلت في الشَّيخوخة . . .

غنم بغرم

لم تعرفْ قارَّة من الأرض قارَّةً أخرى ، ولا خالط قوم قوماً آخرين ، إلاَّ بالتَّدرُّج والنَّقلات المتوالية . كان الأمر اوَّلاً بنفخ الرِّيح في أجنحة الشِّراع ، ثمَّ جاء الميكانيك بحركة العجل في المراكب والقُطُر الحديد ، فنُقلت الأخبار والأفكار بفضل الشِّراع والباخرة والقطار من أرض إلى أرض ، ونُقلت البضائع والتِّجارات ، ومازج ناس من أقصى المعمور ناساً هم من أدناه . وكما نشأ يومئذ تفاهم انسانيٌّ واسع المدى ، نشأ ، أيضاً ، تخالف طباع وعادات وأذواق وهوى نفوس .

أمَّا اليوم ، بعد هذا العهد بكلِّ مستحدَث يخطف خطفاً عجيباً في النَّقلة والصَّوت والصُّورة ، وقد كادت الشُّعوب تتلاقى على أشياء الحياة ، ويبيت بعضها من بعض بمكان القوم الواحد ، تحت الكوكب الواحد ، فليس من العجب أن يزداد تفاهم الناس ، وأن يزداد ، أيضاً تخالفهم .

سنَّة الحياة في الإتيان بالشَّيء ونقيضه ، وليس من تبديل لسنَّة الحياة !

عجز المال

يوفِّر المال للنَّاس غذاءً ورداءً ، وصحبة عشراء ، ومجالس سماع وطرب ودوران كؤوس . . . ولكن أين شهوة الأكل ، وإقبال العافية ، ومتانة الصَّداقة ، وطيب أيَّام السَّعادة ؟!

فكأنَّ المال يوفِّر للنَّاس قشور الأشياء ، ويعجز عن توفير لبابها .

القوَّة والحقّ

قول « القوَّة تخلق الحقّ » ما قام البرهان على صوابه في يوم قيامه في هذه الأيَّام ، أيَّام الانقلابات العسكريَّة !

ويا ربَّ رجل من رجال الانقلابات ، بينا أنت تراه خارجاً على القانون ، إذا هو صاحب القوانين ، وواضعها ، والذي جعلها سيوفاً مصلتة فوق رقاب النّاس . . . ولو انَّ صاحبنا قد أُسقط في يده ، وصين الأمر القائم من ضربة سيفه ، لطاح به القانون ، وأطار رأسه عن بدنه فوق دكَّة ، أو في قرنة سجن ، وقيل : هذا الذي خرج على القانون !

فنُّ الخطابة

أيسر صناعات الكلام : الخطابة ، فانَّما الخطيب المصقع هو الذي يواجه الجمهور بكلام ينتظر الجمهور سماعه . . . فأمَّا الخطيب الذي يريد أن يفاجىء الجمهور بما يكره من الرَّأي ، فانَّ له عندي من النَّصيحة أن يجرِّب فخَّارة رأسه في غير هذا النِّطاح !!

وإذا قيل انّ خطبة « مارك أنطوان » ، في شكسبيريّة « يوليوس قيصر » ، قد أقامت وأقعدت ، فالجواب : انّ ذلك كلّه ليس من حقائق التّاريخ ، وإنّما هو من براعات شكسبير . . .

في الحيلة

إذا رُفع الحظُّ جاءَت الحيلة ، فانّها عند تعذّره ، أعظم الأسباب في الفوز بالبغية .

ولله ما ألطف ما قيل في مثل هذه الشّعبة من الكلام ، انّ اللّبلابة لّما عشقت الشّجر ، تعلّقت ، طلباً للعناق ، فقيل لها : مع الكثافة لا يمكن ، فجاءَت بالنّحول . . .

« أولاد الآلة » !

وجدتُ في بعض مجلاّت العلم الأوروبيّة أنّ الحمل الصّناعيّ لم يبقَ سرّاً مطويّاً في صدور العلماء ، ولا في مختبرات أهل الكشف الطّبّيّ .

قالت المجلّة ما هنا مؤدّاه : أصبحت هذه الطّريقة منتشرة في أميركة ، وفي غربيّ أوروبة ، انتشاراً عظيماً ، حتى لقد أعلن أهل التّقاويم والإحصاآت ، منذ مدّة ، انّ عدد الأطفال الذين جاؤوا إلى الدّنيا بفضل الآلة هو نصف مليون ، وزيادة !

وقالت : انّ الولادات الصّناعيّة تبلغ في الولايات المتّحدة الأميركيّة عشرة آلاف واحدة في السّنة ، وانّ في أماكن كثيرة من انكلترة وأميركة عيادات خاصّة ، يُرجع إليها في مراقبة الحمل الصّناعيّ ، وانّ أحد أطبّاء باريس صرّح في هذه الأيّام الأخيرة بكون فريق من رصفائه

الفرنسويِّين يجرون في باريس وليون وبوردو عمل الحمل الصِّناعيّ ، وهم في أمان الله ، لا يكدِّرهم مكدِّر !

وهكذا أخذ يرسل العلم إصبعه في أدقّ أسرار الحياة ، وأخذ « أولاد الآلة » يسرحون ويمرحون بين عيني الدُّنيا ، دون حاجة لهم ، في هذا الواقع الجديد ، إلى أن يمتُّوا بصلة الفخر إلى أصلاب وبطون ، أو أن يُتمثَّل في حال واحدهم بما قاله شاعرنا القديم :

بنى له في بيوت المجد والدُهُ ،

وليس من ليس يبنيها كبانيها !

فما قول علماء « البيولوجية » ، بل ما قول علماء الدِّين والاجتماع والقانون في هذه الحزَّة الجديدة ؟ . . .

الكاتب العظيم

لو رحتَ تسأل كاتباً من عظماء الكتّاب : « لمَ تكتب ، يا هذا ، وتعنِّي نفسك بهموم الكلام ؟ » ، لقال لك من فوره : « أُعنِّي نفسي ؟؟؟ إنَّما أنا أطرح عنها بالكتابة ثقلاً من خواطري ! » .

فكأنَّ الكاتب العظيم لا يجد في ما يبثُّ به بثَّه إلاَّ الكتابة . فهو لذلك تراه لا يمنُّ على النَّاس بما يكتبه لهم ، ولا يعدِّد ما يفعله معهم من الخير في حمل إجاداته إليهم .

أمَّا المتخلِّفون من الكتّاب ، فإنِّي لا أعلم لمَ يكتب واحدهم ، ولمَ يغوص في الحبر إلى أذنيه ، ما دام لا يحمل من أثقال الخواطر فوق نفسه مثقال بعوضة . . .

في الطَّبيعة النّسويَّة

لذَّة الرَّجل في الحبّ : السَّيطرة على المرأة ، ولذَّتها هي فيه : القعود تحت حكم الرَّجل . فمن ظنَّ من الرِّجال الخلاف ، لم يكنْ في معرفة الطَّبيعة النِّسويَّة في وردٍ ولا صدر !

عيوب الفصاحة والبلاغة

الفصاحة المفرطة فيض عن المقدار المطلوب . وأمَّا البلاغة ، فانَّه لا يسوغ فيها تجاوز الحدّ في الاختصار ، وإلاَّ نقصت من جانب التَّمام ، حيث زادت الفصاحة المفرطة عنه !

إنسانيَّة . . .

قرأتُ في كتب الأدب والفلسفة والتَّراجم عن لؤم السَّريرة الإنسانيَّة شيئاً كثيراً ! ولقيتُ من شرّ النَّاس في العداوة ، وفي الصَّداقة ، شيئاً كثيراً ! إلاَّ انَّني لم أستطعْ ، برغم ذلك ، أن أمقتهم ، ولا أن أزدريهم . فإنَّني من النَّاس ، من ماء هذا البحر ، من زواخر هذا الوادي ! . . .

فمن كان قلبه يقسى على النَّاس ، أو يطوي أحناء صدره على كراهتهم ، فانَّما قلبي يرقُّ لهم ، وجوانحي تفيض بحبِّهم !

أنا ، أيُّها النَّاس ، لا أستطيع غير هذا !

مشكلة المشكلات !

لا هبوط الفصحى إلى العوامّ هيِّن ، ولا هيِّن صعود العوامّ إلى الفصحى . فأنا لا أدري كيف يكون من حال هذه العربيَّة في مصاير الأيَّام !

أمّا الأخذ بالعاميّة ، فانمّا هو ، والعياذ بالله ، قاصمة الظهر ، يأتي على البنيان من الآساس !

فيا فصاحة « القرآن » : في هذه الغمّآء تلوذ بكِ الفصحى . . .

« خزائن الأفلام » .

سوف يتنحّى الكتاب عن مكانه ، في مستقبل الزّمن ، « للفيلم النّاطق » . وسوف يكون لمن يجيء بعدنا « خزائن أفلام » ، كما لنا نحن اليوم خزائن كتب . فيسمعون صوت الكاتب ، ويرون وجهه ، في آن معاً .

فانظرْ ما أشقى ما يكون غداً ، في زمن الأفلام النّاطقة ، حال جماعة من رجال القلم ، من الذين تقذى النّواظر بدمامة وجوههم ، أو من الذين تستكُّ الآذان لقبح أصواتهم !

وعندي من النّصيحة لهؤلاء : أن لا يقربوا اليوم بلوحة وجه ، ولا برنّة صوت ، فيلماً ناطقاً . . .

وفي الحقيقة : انَّ أستاذنا الجاحظ ، وهو الذي كان مشوَّه الخلقة ، كما يعلم القارىء ، حتّى لقد قيل في الأمثال السّائرة : « أقبح من الجاحظ » ، حظُّه يفلق الصّخر ! فانَّ الأفلام النّاطقة لم تأت في زمانه . . .

حكمة الشُيوخ

معنى القول « الحكمة عند الشُيوخ ! » : انهّم يقضون أخريات أيّامهم في التّخلُّص من ضلالات شبابهم وعمايته وغروره وفساد آرائه ، ومن ركوب الرّأس فيه من غير معرفة ، ومباشرة الأمور على غير بيان ،

وبإزاء ذلك ترى الشُّيوخ تتقطَّع نفوسهم حسرات على هذا الذي تقضَّت عليه أيَّام شبابهم . فكأنَّ لسان حالهم يهتف بقول الشَّاعر : « ويلي عليكَ وويلي منكَ ، يا رجلُ ! » . . .

دِحِنْدِح . . . .

يتوافق النَّاس في أحاديثهم على استعمال عبارات لا أصل لها ، ولا معنى لألفاظها ، ويكون فيها ، على الغالب ، منافرة حروف ، أو جفاء لفظ . وهم يعتريهم من البهجة بها ما لا يعرفون أسبابه .

ومن ذلك ما ذكره المحبِّيّ في ما يعوِّل عليه ، قال : « أهون من دِحِنْدِح . قال حمزة : [انَّ العرب تقول ذلك ، فاذا سُئلوا : ما هو ؟ قالوا : لا شيء !] » .

هذا عبث مُجَّان ، وهو يوجد في كلِّ عصر ، وفي كلِّ قوم ، وربما تناقله خلف عن سلف . وأهمُّ ما يعنينا منه انَّه لا يدخل ، ولله الحمد ، في معاجم اللُّغة !

حول « إن شاء الله »

من التَّأديب الكتابيّ في الأعصر العربيَّة المتأخِّرة ،وقد مضى بمضيِّ أهله ، وبتنا لا نعرف عنه شيئاً إلاَّ في الكتب ، نعيهم على من يختم كتابه بالأدعية ، متَّصلة بقوله « إن شاء الله » . قالوا : التَّعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية .

وقد جاء في كلمة حديثيَّة : « لا يقلْ أحدكم : اللَّهمَّ ، ارحمني إن شئتَ ، أو : اللَّهمَّ ، ارزقني إن شئتَ ، ليعزم مسألته . فانَّه ، سبحانه ، يفعل ما يشاء ، لا مكره له ! » .

أخذ النُّقّاد في الأدب الفرنسويّ على « غوستاف درو » قوله ، في كتابه « السَّيِّد والسَّيِّدة - يريد الزَّوج والزَّوجة - وطفلهما » : « فأحسستُ بدمعة تصعَّد في حنجرتي » . قالوا : « جسارة لا قبلها ولا بعدها ! فانّه جعل المآقي في غير موضعها . . . » . وقد قالت العرب ممّا يجري في هذه الشُّعبة : « خنقته العبرة » ، و « غصَّ بالبكاء » ، و « أخذت الدُّموع بمخنَّقه » إلى آخر ما هناك ، وما نظروا إلى مآقٍ ، ومواضع دمع !

وأخذ أولئك النُّقّاد أيضاً ، على « شارل ميروفيل » قوله في قصَّة « جنّي فيّال » (وما هنا ، هو اسما علم) : « لها خصر قد نحل ودقَّ ، حتّى لو أراد أحدهم أن يأخذه بين أصابعه لاستطاع ذلك ! » . قالوا : « لله ما أحرى هذه المرأة التي لا خصر لها أن يُخرج بها للنَّظّارة في معرض عجائب المخلوقات ، إلى جنب المرأة ذات اللِّحية ، والعجْل الذي برأسين . . . » . أمّا عندنا فانَّ ذلك من التَّعابير التي لا يحصرها عدٌّ في الشِّعر ، وفي الكتابة . بل انّه من التَّزايين المستظرفة في الكلام . وقد قال كاتب هذه السُّطور ، ذات مرَّة ، في شعر له :

كان أولى لو كنتُ آخذُ بالخصر ،
ولكن يكاد بالكفِّ يُعْقَدْ !

وفي زمن « ألفونس دوديه » ، قامت قيامة النُّقّاد ، عندهم ، لورود هذا الحساب في قوله : « كان أربعة آلاف من العرب يركضون حفاةً ، ويضحكون ، ويلتمع لهم في شمس النَّهار ستُّ مائة ألف سنّ بيضاء » . وهو من كتابه المشهور : « ترتارين التّاراسكونيّ » . وقد

علَّق بعض النُّقَّاد يومئذ على كلام دوديه قوله : « حاصل هذا الحساب ، بالضبط : أن قد كان في فم كلِّ عربيّ من هؤلاء مائة وخمسون سنّاً . في حين أنَّ جماعة علم المواليد يقولون : في كلِّ فمٍ اثنتان وثلاثون سنّاً ، أو ثمان وعشرون . فمن أين جاء دوديه بهذا العدد العجيب من الأسنان ! . . . » . ونحن في العربيِّ نقول ، مثلاً ، ولا نخاف مغالاةً ، ولا غلطاً في الحساب . . . : « عندي من ذلك ألف همّ » ، ونقول : عندي على ذلك ألف شاهد » . وقد قال الشَّاعر :

بيَ من جرحكَ ألفٌ مثله .
لا خلعتُ السُّقم حتَّى يدَعَكْ !

إلى ألفٍ من نحوها في الشِّعر والنَّثر (وتراني أنا نفسي هنا قد ذكرتُ هذا العقد من العدد ، وما خشيتُ حساباً ، ولا غلطاً . . .) .

وهكذا تجد انَّ كثيراً مَّما يُهجَّن في أدب قوم ، ويُعدُّ من العثرات ، هو ما يكون في أدب قوم آخرين من الأسلوب المستحَبِّ ، والذي لا غبار عليه فى صواب ورونق . فانَّ لكلِّ قوم ، كما قلنا مرَّات قبل هذه المرَّة ، ذوقاً خاصّاً بهم ، ولكلِّ لغة خصائص ، وطرائق في الخيال والتَّعبير ، بها .

خيال إنكليزيّ !

كنتُ لا أرى كلاماً في وصف الكتاب يوازن كلام الجاحظ في وصفه ، وذلك حيث يقول ، في بعض رسائله الطَّائرة من شفة إلى شفة : « وعاء مُلِىء علماً ، وظرف حُشي ظرفاً . . . وبستان يُحمل في ردن ، وروضة تُنقل في حجر » إلى آخر ما هناك ، حتَّى وقفتُ على ما

هذا معناه ، من كلام للكاتب الإنكليزيّ القديم ريتشارد ستيل في الإشادة بالكتب : « أساتذة يعلِّمون بغير عصا [كانت العصا تُهزُّ يومئذ في المدارس !] ، ويعلمون من غير أجر . لا يطلبون دراهم ، ولا يتقبّلون هدايا . تدنو منهم فلا ينأون عنك ، وتسألهم فلا يضنُّون عليك بالجواب ، وتجفوهم فلا يشتكون منك ، وتكون جاهلاً فلا يسخرون بك » .

لله هؤلاء الإنكليز ! إنَّ مدار الأمور عندهم هو على المحسوس الذي لا يُكابر فيه ، حتَّى في مقام الخيال !

العجائب والدِّيانات

حدَّثني بعضهم أحاديث طافحة بعجائب جماعة من القديسين والأولياء وأهل الانقطاع إلى الله ، فقلتُ له :

ـ يظهر انَّ الدِّيانات سيعود بها هذا الزَّمن إلى عهدها بالطُّفولة ، أي يوم كانت العجائب هي التي تغذيها في مهدها !

ثمَّ قلتُ له :

ـ ويامحدِّثي بالعجائب : أين أنت مَّما في الدِّيانات من رشاد وهدىً ومرحمة ، ومن دساتير تتناول الأخلاق والاجتماع ، ومعالجة ما يعرض في الألفة والتَّقلب والمعاش ، وفي كلِّ حركة ونأمة للبشر فوق هذه الأرض ؟ أفذلك كلُّه لا يكفي وحْده كيما تقوم الدِّيانات اليوم على قدميها ! . . .

شأوٌ يقصُر عنه الحيوان !

أثبت علماء المواليد انَّ في الطَّبقة السُّفلى ، في الحيوان ، كلَّ النَّقائص الَّتي في الإنسان ، من طمع وخداع وغدر وحسد وحقد وبخل

وأثرة وشراهة ودعارة وكفران صنيعة ، إلى آخر ما في هذا السِّياق الطَّويل ! ولقد ذكروا من الأمثال على ذلك انَّ النَّملة ، على شهرتها بالحكمة والدِّراية ، تشرب بكلِّ صنف من صنوف المسكرات ، إن هو عرض لها في طريقها ، وتظلُّ تعبُّ هناك حتَّى تتعتعها الخمر . . . إلاَّ انَّهم لم يذكروا انَّ الحيوان في طبقتيه السُّفلى والعليا يعرف اللعب في القمار !

أدوية عجيبة !

لا فُضَّ فوك ، يا دكتور « روبير سوپولت » ! فلقد جاء لهذا العالم الفرنسويِّ في محاضرة ألقاها ، منذ مدَّة قريبة ، في جمع من العلماء ، في باريس ، انَّه أصبح يخاف على البشريَّة ، ممَّا تفرضه عليها هذه المدنيَّة القائمة من تكاليف تأخذ بالأعناق ، ومصاير تؤذن بأمراض لم يكن للنَّاس بها عهد قبل اليوم .

ولقد أذكرني كلام هذا الطَّبيب الفرنسويِّ المعاصر كلاماً لطبيب إنكليزيّ ، معاصر أيضاً ، ساقه على نصائح صحيَّة يقول من جملتها : كرِّرْ من تعهُّدك لموضع ميلادك ، ومن تناولك لما كنتَ تألفه في أيَّام طفولتك من مأكل ومشرب ، ومن الاجتماع بلداتك الذين سرحتَ معهم ومرحتَ في حداثة سنِّك . وانقطعْ شهراً في السَّنة عن ارتياد مجالس النَّاس ، ومجتمعاتهم . واخرجْ في الأسبوع مرَّات إلى حيث تقع عينك على خضرة ونضرة وماء ومنفسح من الأرض . وخذْ من الادوية (عند اضطِّرارك إلى الدَّواء !) ما كان للشرُّب ، أو للشَّمِّ ، وتجنَّب ما كان منها حَبّاً ، أو حقنةً ، أو إبرةً تدخل من عرق ، أو جلد ، إلى آخر ما جاء لهذا الإنكليزيّ من وصايا ، ونصائح .

فالقارىء يرى انَّ من علماء عصرنا من قد أصبح يخاف على البشر من مصاير حضارتهم ، ومنهم من يرى الرُّجوع إلى أحضان الطَّبيعة والسُّهولة والبسطة ، حتَّى من أعجب الطُّرق !

وهذا ، كلُّه ، معناه : انَّ النَّاس قد أعناهم ما آلت إليه الحضارة القائمة من ممارسة صعبة ، وخطط شديدة .

أين منصور النَّمريُّ ؟؟؟

وقع في يدي قصيدة أعطي لها في إحدى الجرائد عزُّ الصَّدارة ! وهي من هذا الشِّعر « العصريِّ » ، الذي يرد فيه من اللَّغو ما لا يُصدَّق انَّه يسنح بين قلم ودواة ، نحو قولهم : « النُّجوم السُّود » ، و « القمر ذو الكرسيِّ من ظهر حمار أخضر » ، و « اللَّيل اللَّابس بنطلونه على العري » ، و « الحبيبة التي هي كوتشوك الهوى ، ونيلون الجمال ، والتي هي السَّندويش الشَّهيُّ ، من لحم خنزير ذي فنطيسة ، تصليُّ ، مثلاً ، على ألبير كامي وتسلِّم . . . » إلى آخر ما يجيء لهم من معانٍ مخدَّرة ، يدقُّ على أهل العقول فهمها ! فتذكَّرتُ بهذه « العصريَّة » ما ساقه الزُّجاجيُّ في كتابه « مجالس العلماء » ، من مجلس العتابيِّ مع منصور النَّمريِّ . فقد جاء هناك انَّ العتابيَّ أنشد قوله :

يا ليلةً لي « بحُوَّارينَ » ساهرةً ،
حتَّى تكلَّم في الصُّبح العصافيرُ !

فقال له منصور النَّمريُّ : « العصافير تتكلَّم ؟ » ، فقال العتابيُّ : « نعم ، تتكلَّم ، وتنطق ! ويُقال ذلك لما أعرب عن نفسه بحالٍ تُرى فيه . فيقال : أخبرتِ الدَّارُ بكذا ، وتكلَّمتْ بكذا ، فكيف ما له نطقٌ ! » إلى آخر ما ذكره العتابيُّ في كلامه .

ولقد قلتُ في نفسي ، وأنا أقرأ تلك القصيدة « العصريَّة » : أين صاحبنا النَّمريُّ ، وهو الذي لا يقوم عنده تكلُّم العصافير ، كما يرى « سواد النُّجوم ، وأقمار الحمير الخضر ، وبنطلون الليالي ، وكوتشوك الهوى ، ونيلونه ، وسندويشه من لحم الخنزير ذي الفنطيسة الشَّهيَّة » . . . أم أنَّنا نحن الذين كُتب لنا ، وحْدنا ، أن نشهد زمن المتعات هذا في الشِّعر والأدب !!!

بين البيان والأخلاق

تقول العرب : « لا تبرِّدْ عن فلان » ، أي إن هو ظلمك ، فلا تشتمه ، فتنقص اثمه . جعلوا اثم السَّبِّ في مقابل انتقاص الحقّ . فكأنَّهم قالوا : انَّ انتقاص الحقِّ لا يحلّ ، وشتم منتقص الحقِّ لا يحلّ ، أيضاً . وهذا ، كما ترى ، من أعلى أساليب البيان في العربيَّة ، ثمَّ انَّه من أعلى تعاليم الأخلاق في الصَّفح ، والإعراض عن الذَّنب .

قضيَّة الطَّبقات

« ما ابيضَّ لون رغيفهم ، حتَّى اسودَّ لون ضعيفهم ! » ، كلام قاله ابن قيِّم الجوزيَّة في « البدائع » .

فيا عجباً ! أفي زمان ابن قيِّم الجوزيَّة كانوا ينظرون إلى قضيَّة الطَّبقات !؟ . . .

لكم الله ، جماعة الفقهاء ، فانَّكم لم تتركوا شيئاً ، حتَّى هذه التي نظنُّ انَّ زماننا هو أبو عذرتها . . .

غبن المعاني بالمباني

في « تحقيق ما للهند من مقولة » ، لأبي الرَّيحان البيرونيّ ، ما هذا حرفه :

« وقال المسيح ، عليه السَّلام ، في الإنجيل ، ما هذا معناه : لا تبالوا صولة الملوك في الإفصاح بالحقّ بين أيديهم ، فليسوا يملكون منكم غير البدن ، وأمَّا النَّفس فليس لهم عليها يد » .

وهو تعبير ريَّان من القوَّة والبلاغة العربيَّة لما جاء معناه في هذه التَّرجمة الإنجيليَّة الضَّعيفة ، التي في يدنا : « ويقودونكم إلى الولاة والملوك من أجلي ، شهادة لهم وللأمم » إلى أن يقول المعرِّب : « لا تخافوا ممن يقتل الجسد ، ولا يستطيع أن يقتل النَّفس » .

فيا لله ، أين هذه من تلك ! أين هذه الطُّمطمانيَّة من تلك العربيَّة ! على أنَّ المعنى يكاد يكون واحداً في الاثنتين .

ثمَّ فلينظر القارىء كيف تُغبن المعاني ، في بعض مقامات الكلام ، بالمباني . . .

مسألة التَّشبُّه بالآباء

ترى النَّاس ، في الغالب ، لا يتشبَّهون بآبائهم ، كما يقوم في الأذهان من عكس ذلك ، بل هم يتشبَّهون بأبناء زمانهم .

سنَّة التَّقدُّم ، وإلاَّ كان المشي إلى وراء . . .

شرط في الجنَّة . . .

يقال في المثل : « جنَّة الرَّجل دارُه » ، و « نعم جنَّة الرَّجل بيتُه » ، و « الجنَّة في دارك ، وأنت تطلبها عند جارك » . وهذا ، كلُّه ، صحيح ، شرط أن لا تجرَّ حوَّاء إلى آدم في هذه الجنَّة مشكلة من مشكلات التُّفَّاح . . .

زمن الدِّيمقراطيَّة . . .

العسكريَّة في زماننا هي التي في يدها المقاليد في فرنسة ، والرُّوسيَّة ، واسبانية ، ويوغوسلاڤية ، والصِّين ، والباكستان ، وفي سورية ، ومصر ، والعراق ، والجزائر ، واليمن ، إلى غير هذه وتلك من بقاع الدُّنيا .

وبعد هذا يقال لك : انَّ الزَّمن زمن الدِّيمقراطيَّة !

ولو انهَّم فطنوا ، لقالوا : عسكريَّة ؟ نعم ! ولكنَّها عسكريَّة ديمقراطيَّة . . . نسوا انَّ الدِّيمقراطيَّة بابها واسع !

مسألة المسائل

ممَّا أفادتني تجارب الزَّمان ، انَّ أهنأ النَّاس بالعيش أصحاب الإيمان بالله ! فهم إن أصابوا خيراً شكروا ، لعلمهم بمن أعطى ، وإن أصابوا شرّاً صبروا ، لعلمهم بمن ابتلى . . .

ذلك والعقول ، كما تعلم ، عاجزة عن نطح مسألة المسائل (أي مسألة واجب الوجود) ، فسلِّم تَسْلَمْ !

تحديد عدد النَّسل

يظهر انَّ قضيَّة « تحديد عدد النَّسل » ، مخافة أن تضيق الأرض بسكَّانها ، أصبح الكلام فيها على عينك يا تاجر . . . كما نقول في مثلنا العامِّيّ ! فقد صرَّح أحد المتكلِّمين عن الڤاتيكان في مؤتمر « لجمعيَّة الأمم المتَّحدة » ، عُقد منذ مدَّة في رومة انَّه في الأساس لا ترى الكنيسة الكاثوليكيَّة في وضع الحدِّ لعدد الكائنات البشريَّة ، حتَّى لا يفضي

الازدياد إلى محنة عظيمة ، شيئاً ينكره الدِّين ، ولكنَّها تعارض هذه الأساليب الطِّبيَّة في توقِّي الازدياد .

فيا أيُّها السَّادة : صبراً علينا ! فقد يرزقنا الله في موسكو ، أو في واشنطن ، واحداً من عيار أدولف هتلر ، مثلاً ، فيريحكم من همِّ الزِّيادة ، ويريحنا . . .

بئس الجار !

لا أرى مدحاً لشعر شاعر في الغزل أعلى من قول عبد الملك بن مروان يوماً لعمر ابن أبي ربيعة ، وقد سمع شعره : « بئس جار الغيور أنت . . . » .

حيث تقصُر الحكومات

في الدِّين يدور البحث طويلاً حول الفضيلة والرَّذيلة . أمَّا الحكومات فانَّها تنظر إلى هذا الموضوع من بعيد . وهيهات أن يأتي يوم يكون فيه للرَّذائل ، التي يندِّد الدِّين بأهلها ، باب خاصٌّ بها في قوانين العقوبات .

فمن قال أن لا بدَّ لهذا المجتمع البشريِّ من الدِّين ، فانه ، لعمرك ، لم يخطئْ كثيراً !

وأين القطار ؟ . . .

يوم جاء البخار بالقطار الحديد في أوائل هذا القرن ، قال بعض الشُّعراء :

يا من له هوسٌ في كلِّ ذي قِدَمٍ :
هذا القطار ، فأين البغلُ والجملُ ؟!

نزل من عينه بازاء القطار الحديد كلُّ ركوبة . وإذا دامت الحال على هذا المجرى في المخترعات ، والمكتشفات العلميَّة ، يصبح النَّاس في حاجة إلى شعراء يقولون في كلِّ يوم : أين ، وأين ، وأين ؟ . . .

أصحاب الشِّعر العربيّ

كتب الأستاذ محمود سالم ، من أدباء المصريِّين ، يسألني رأيي في أصحاب الشِّعر العربيّ من جاهليِّين ومخضرمين وإسلاميِّين ومولَّدين (وقد أعفاني ، حفظه الله ، من الكلام على شعر المعاصرين . . .) . وانِّي لكاتب له الآن ، على الاختصار ، ما يسنح لي في ذلك :

الشِّعر الجاهليّ مزيَّته الفحولة والجزالة ، مع قرب من الطَّبيعة .

وشعر المخضرمين ، وقد عاش أصحابه شطراً من حياتهم في الجاهليَّة وشطراً في الإسلام ، لغته لغة الجاهليَّة ، ولكن فيه نفحات دينيَّة جاءَته من القرآن .

وشعر الإسلاميِّين ، وأصحابه وُلدوا في صدر الإسلام ، هو أقرب إلى المدنيَّة من شعر الجاهليِّين ، وفيه فحولة هؤلاء .

وشعر المولَّدين عليه مسحة الحضارة ، وفيه رقَّة ، ودقَّة معانٍ ، وتهذيب ألفاظ ، ممَّا لم يكن به عهد في الشِّعر العربيّ . ولكن فيه صنعة ، وتكلُّف كثير .

كتابة التمثيليَّات

التَّمثيليَّات لا تُكتب كيما يطالعها القارىء في كتاب ، بل لكي يسمعها المستمع فوق مسرح . فاذا جاءت القطعة التَّمثيليَّة في المطالعة

خيراً منها في التَّمثيل ، كانت في الرَّاجح الأكثريِّ تمثيليَّة ليست بجيِّدة . . .

عود الرَّبيع

الفصل ربيع ، فكأنَّ جوانب الدُّنيا ترشُّ بين الأرض والسَّماء ورقاً ، وزهراً ، وألواناً زاهية . . . مقام الشِّعر هذا ، وإذا هو لم يكن للكلام الرَّقيق ، والقوافي المطربة ، فليس بعد ذلك مقام للشِّعر !

هذه أعجوبة التَّجديد في الطَّبيعة . فمن كان لا يصدِّق عينيه ، فليلمسْ بيده على مكامن الحياة بين صدره وخاطره ، فهي هناك في موسم البهجات ، بعد ان دقَّت هذه البشائر . . .

ويا ليت شعري ، أين الشِّتاء ، وقطوبه ، وودقه، وجلجلة رياحه في كهوف الجبال ، وعند كثبان الرَّمل في الشُّطوط ؟

لقد ذهب الشِّتاء يوم أمس ، فانظرْ ، يا رعاك الله ، هل هو عاد اليوم يتطلَّع إليك من خلف الورقة الخضراء ، وخلف قطرة الماء الصَّافية ، وعند مسحة النَّسيم على الجذع المتشبِّث بالثَّرى !

فيا فصل الرَّبيع : لله ما أعجب الحياة ، وما أعجب دورانها في الحلقة المفرغة ! وسلاماً عليك في نيسانك اليوم ، وفي كلِّ نيسان . . .

الأصدقاء

أصدقاؤك ثلاثة : واحد لا يبغضك ، وواحد لا يهمُّه أمرك في شيء ، وواحد يمقتك في قرارة نفسه . . .

فانظرْ ، أيّ واحد من هؤلاء الثَّلاثة تختصُّه بإعزازك !

مرض العصر

مرض العصر الحاضر ، عند الكثرة الغالبة من شبابنا ، هو هذا الذي تراه في المصاب به من خجل بآبائه ، وكره لمعلّميه ، وإشاحة وجه عن بني قومه ، ومن حبٍّ للظُّهور بلسان إفرنجيّ ، وملبس إفرنجيّ ، ومأكل إفرنجيّ ، وعيش على الطَّرائق الإفرنجيَّة . ولو استطاع ، ولا مبالغة ، لأدخل النَّفس إلى رئته إفرنجيّاً ، وردَّه منها إفرنجيّاً . . .

ذلك ، والإفرنج هم أشدُّ النَّاس ازراءً بالمصابين منَّا بهذا المرض الاجتماعيِّ الوبيل - لو يعلم شبَّاننا !

مطارحات إخوانيَّة

ثلاثة أقلام كريمة ، لبنانيّ وسوريّ ومصريّ ، جاءت تختصُّني في هذه الأيَّام الأخيرة ببرِّها ، تفضُّلاً من غير مكافأة !

فلقد ألقى الدكتور جبرائيل جبُّور ، في « الإذاعة اللُّبنانيَّة » ، محاضرة أدارها على شعري ونثري ، وورد له في قوله عنّي : « وكان يمكن أن يكون موصليَّ هذا العصر ، ونديم مأمونه ، لو كان في هذا العصر مأمون ! » ، يعقّب بذلك على قوله في المحاضرة ، عند ذكره لخصوصيَّاتي : « فهو أنيق في حياته ، محدِّث لبق في مجالسه . . . » إلى آخر ما هناك من لطفٍ بي كثير .

فأقول للدكتور جبرائيل : تمنَّيتها لأخيك هذا عند مأمون علوم وآداب ، فما لك لا تتمنَّاها له عند مأمون نفط ومغاوص لؤلؤ ، والعصر ، كما لا يخفى عليك ، عصر مادَّة ، لا عصر منادمة ورقرقة أحاديث !!! ولك عليّ ، يا دكتور ، يومئذ ، أن لا ينسى « موصليُّك » هذا إخوانه . . .

ونشر الأستاذ عبد الله الشُّيتي ، في مجلّة « المعرفة » ، فصلاً ضافياً ، تناول فيه الكلام على الطَّبعة الرَّابعة من كتابي « المفكِّرة الرِّيفيَّة » ، وممَّا قاله : « أغلب الظَّنّ أنَّ أمين نخلة ، في كلِّ ما أعطاه من نثر ومن شعر متنافسين متكافئين ، يصلح لكلِّ عصر ، بل لكلِّ زمان ومكان . . » .

وهي بشرى غالية يسوقها إليَّ الأستاذ الشُّيتي ! فإنَّه ليس بالشيء القليل ، كما يعلم القارىء ، أن يحدِّث المرء ببقاء تذكاره حتَّى آخر الأدهار ! ولكن هذه البشرى ينغِّصها عندي قول الأستاذ « أغلب الظَّنّ » ، فتبيت تراوح بين ظنٍّ ويقين ، تيامن حيناً ، وتياسر حيناً . . . فما قوله لو قنعت وإيَّاه بالتَّمنِّي لهذا الشِّعر ، وهذا النَّثر ، اللذين يحبُّهما ، أن يجيئا على هوى زماننا ، وليكن ، بعد ذلك ، من هوى الأزمان ما يكون ؟!

وكتب الأستاذ صالح جودت في مجلة « المصوَّر » ، بعنوان « شوقي وحافظ اللُّبنانيان» ، فصلاً يشير فيه من طرف خفيّ إلى قيام منافسة في الشِّعر بيني وبين الأستاذ « الأخطل الصَّغير » ، تشطر اللُّبنانيِّين نصفين : واحد إليَّ ، والآخر إلى الأخ « الأخطل » . أي كما كان الأمر في مصر أيَّام شوقي وحافظ !

على أنَّ الأستاذ صالح يعلم أنَّني ، بحمد الله ، رجل أعرف قدري ، فلا أتزيَّد في ما عندي . وما « الأخطل الصَّغير » إلاَّ طبقة من الطَّبقات العلى ، وأين أنا منها ؟! أين أنا من جلالة قدره ، وجلالة عمره ؟! - أطال الله لنا عمره .

فأمَّا وقد ساقتنا السَّجعة إلى مسألة السِّنّ التي جاءت هنا (وكم جرَّ السَّجع إلى فجْع ، كما قد قيل !) ، والتي لا يقبل فيها أخونا

« الأخطل » كلام جادّ ، ولا كلام مازح ، فليهنأ الأخ صالح ، إذنْ ، بوقوعنا في الورطة ، وليقعد هو يتلذّذ بها في مصر ، من بعيد . . .

نجاوى قصيرة

التّناهي في الفنون الجميلة ـ « خير الأمور أوساطها » ، أصدق قول ، إلاّ في مقام الشّعر ، وسائر الفنون الجميلة !

في الشّباب والمشيب ـ يقولون : « أعذار الشّباب » ، و« ذنوب المشيب » . ولا ، والله ، ما أخطأوا في الأولى ، ولا أخطأوا في الثّانية !

خصال الخير ـ كلمة الزّمخشريّ في وصف خصال الخير أحبُّها لاثنتين : البلاغة، وذكر لبنان . قال أبو القاسم : « إنّ خصال الخير كتفّاح لبنان ، كيفما قلّبتها دعتك إلى نفسها » .

الزّواج ـ هو فرض بشريّ عند فقراء النّاس ، وواجب أسرويّ عند أوساطهم ، واتّحاد ماديّ عند أغنيائهم .

ـ ما جاء لي في العمر صديق من رجل له ألف صديق .
ـ لله ما أوفى ذمّة ابن الدّنيّ! فانّه أدّى أمانة أبيه سالمةً . . .
ـ من أعظم رغائبي في الكتابة أن أرى في ما أكتبه صورة وجهي .

العقل والقلب ـ من حسن حظّ الشعراء ، انّ العقل والقلب في العربيّة بمعنىً . . .

أحلام اليقظان ـ الآراء التي لا تخرج إلى الفعل ، خير ما يقال فيها انّها أحلام يقظان !

لو يعلم المهموم ! ـ أشدُّ ساعات اللَّيل ظلمةً ، وإطباق حنادس ، هي التي بتنفَّس عنها الصُّبح . . .

النُّصح وآفته ـ النُّصح أثقل كلام يدخل الأذن ، وسواءً فيه قول الملاين وقول المخاشن ! أمَّا آفة النُّصح فالجدل ، ولله ما أصدق ما قاله الشَّاعر في هذه الشُّعبة من المعنى : « آفة النُّصح أن يكون جدالاً ! » .

حقٌّ لا يُبيَّن ـ لا أعلم في الدُّنيا ، بعد جميل صنعه المرء إلى النَّاس ، حقّاً يجب أن يُجمجم به في الصَّدر !

طرفا الحبل ـ ليس المرائي الذي يلبس ثياب الزُّهَّاد ، ليُظنَّ زاهداً ، وليس بذلك ، أكره في عيني من زاهد يلبس ثياب الخلعاء والمتهتِّكين ، ليظهر حلاوةً وعجباً !

أعداء الدِّيمقراطيَّة ـ الدِّيمقراطيَّة أعداؤها فئتان : الذين لا يمارسونها ، والذين يمارسونها . . .

موضع العلَّة ـ لو رُكِّب رأس الرَّجل بين كتفي المرأة ، أي في محلِّ رأسها ، لما غيَّر ذلك شيئاً من طبعها . فانَّما العلَّة ليست فوق ، ولكنَّها في موضع آخر . . .

ـ بالكلام يتفاهم الأعادي ، أمَّا الأحبَّة فانَّ نظرة عين تكفي عندهم في محو أعظم الذُّنوب .

ـ أقول للرَّجل المقتصد في النَّفقة : أحسنتَ ! فانَّ الغيث هو مجموع من النُّقط .

ـ عند رؤيتك للمقابر ، أو عند جوسك خلالها ، تحبُّ الحياة ،

وتستسيغ القناعة في العيش . فانظرْ كيف يخاف الإنسان من هزِّ العصا . . .

ـ البخيل سلمتْ يده ! فانمّا هو للورثة خازن أمين اليد .

النُّكتة البارعة والشَّائعة الكاذبة ـ لا شيء أسير في مجالس النَّاس ، وأحاديثهم ، من النُّكتة البارعة إلاَّ الشَّائعة الكاذبة !

يحبُّون هذه وتلك لأنَّهما تتعلَّقان بالآخرين ، لا بهم هم . . .

في هلع القلوب ـ القلب في هلعه يتعلَّق بأضعف أمل ، فانمَّا الغريق يتعلق بأضعف خشبة !

من أنواع الكبرياء ـ تواضع العظيم أبرع أنواع الكبرياء ! فهو يعجب النَّاس ، ويسرُّهم . . .

كلمة بخيل ـ حُدِّثت عن بعض مشهوري البخلاء انَّه كان يقول : ما أعطيتُ صديقاً لي قرضاً ، إلاَّ خسرتُ شيئين : مالي وصديقي !

وهو كلام فيه من العلم بالطَّبائع ما فيه من البخل بالمال . . .

إصغاء في محلِّه ـ يا أيُّها المتحدِّث عن نفسه : عندما تفرغ أنت من الكلام ، أنصت أنا . . .

رضى النَّاس ! ـ إذا كان الرَّجل محدِّثاً ، طلق اللِّسان ، قيل : ثرثار ، وإذا كان قليل الكلام ، وقوراً ، قيل : بليد . فاخترْ لنفسك من تشتهي أن تكونه من هذين . . .

ملحق

سقط عن المؤلفُ ، عند التّمثيل بالطّبع للفصل الأوّل (التّذكارات) ، كلمة « حديث العجوز » . وسقط ، أيضاً ، عنه ، عند التّمثيل بالطّبع للفصل الثّاني (النّجاوى) ، كلمة « النّاس مع الواقف » . فألحقَت الكلمتان الآن بالكتاب .

« حديث العجوز »

ما تذكّرتُ مرّةً « حديث العجوز » إلاّ أحسستُ من رقّة القلب ، وخشوع الضّمير ، ما لا يقدر القلم على بيانه ! فانّه جاء في سياق هذا « الحديث » : فقال لها النّبيُّ : كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت : بخير ، بأبي أنت وأمّي . فلمّا خرجتْ ، قلتُ : يا رسول الله ، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! قال : انّها كانت تأتينا ايّام خديجة ، وإنَّ حسن العهد من الإيمان . . . » .

وقد كنتُ أراجع منذ أيّام شيئاً في كتاب البلويّ (ألف باء) ، فاذا أنا أقع على هذا « الحديث » ، وقد نقّط عليه والدي ، رحمه الله . فشجاني ما رأيتُ من وضع والدي لعلامة الاختيار شجواً هو فوق ما كنت أشعر به من حركة النّفس ، كلّما جرى في خاطري « كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟» . . .

النّاس مع الواقف . . .

غلا كتّاب أوروبة ، وأميركة ، بالقدح في « هتلر » ، في هذه الأيّام

المتأخرة ، وقالوا فيه طالعاً ونازلاً ! فلا يكاد يمرُّ بالنَّاس يوم حتى يُذكر الرَّجل لهم بقبيح . فهو آناً زير نساء ، وآناً رجل معوَّه ، في أعضائه فساد تركيب ، فهو مبتلى بانتكاس الشَّهوة ، أو انَّه مجرم بالفطرة ، أو مصاب بعقله ، يعاوده الجنون في الفترات ، إلى آخر ما يجيء في هذه القرحة . . .

فيا أيُّها القارىء : أرني برأيك كيف يكون قول النَّاس ، في كلِّ أرض ، في هذا ، « سيِّد الرِّيخ » ، لو قد كُتب له أن ينجلي الغبار عن نصر أعلامه ! أما والله ، لقد صدق الذي قال :

والنَّاس ، مَن يلقَ خيراً ، قائلون له
ما يشتهي ، ولأُمِّ المخطىء الهَبَلُ . . .

ويا أيُّها القارىء : إني أخبرك الآن عن حالي بازاء التأريخ ، والمؤرِّخين . فلقد بات يحكُّ في صدري ممَّا في مطاوي التأريخ شيء كثير ، حتى صار عندي قول القائل في هذا المقام :

نظرنا لقول الحاضرين ، فرابنا ،
فكيف لقول الغابرين نصدِّقُ ؟!!

كلاماً من أعلى الصَّواب !

إيضاح

يوم نُشر في الصُّحف جانب من فصول هذا الكتاب ، سألنا أحد القرّاء أن نوضح له السَّبب في رسمنا للمدَّة على الألف الممدودة في هذه الفصول ، فأجبناه بما يأتي :

تُرسم المدَّة على الألف الممدودة لأنَّها تُمدُّ باللَّفظ أيضاً ، بمعنى انَّ ألف « السَّماء » تكون أطول من ألف « السَّماع » ، مثلاً . وقد اختلفوا في تقديرها بين طول ألفين إلى ستِّ ألفات (انظر [البيان] للإمام اليازجيّ ، و [الإتقان] للإمام السُّيوطيّ) .

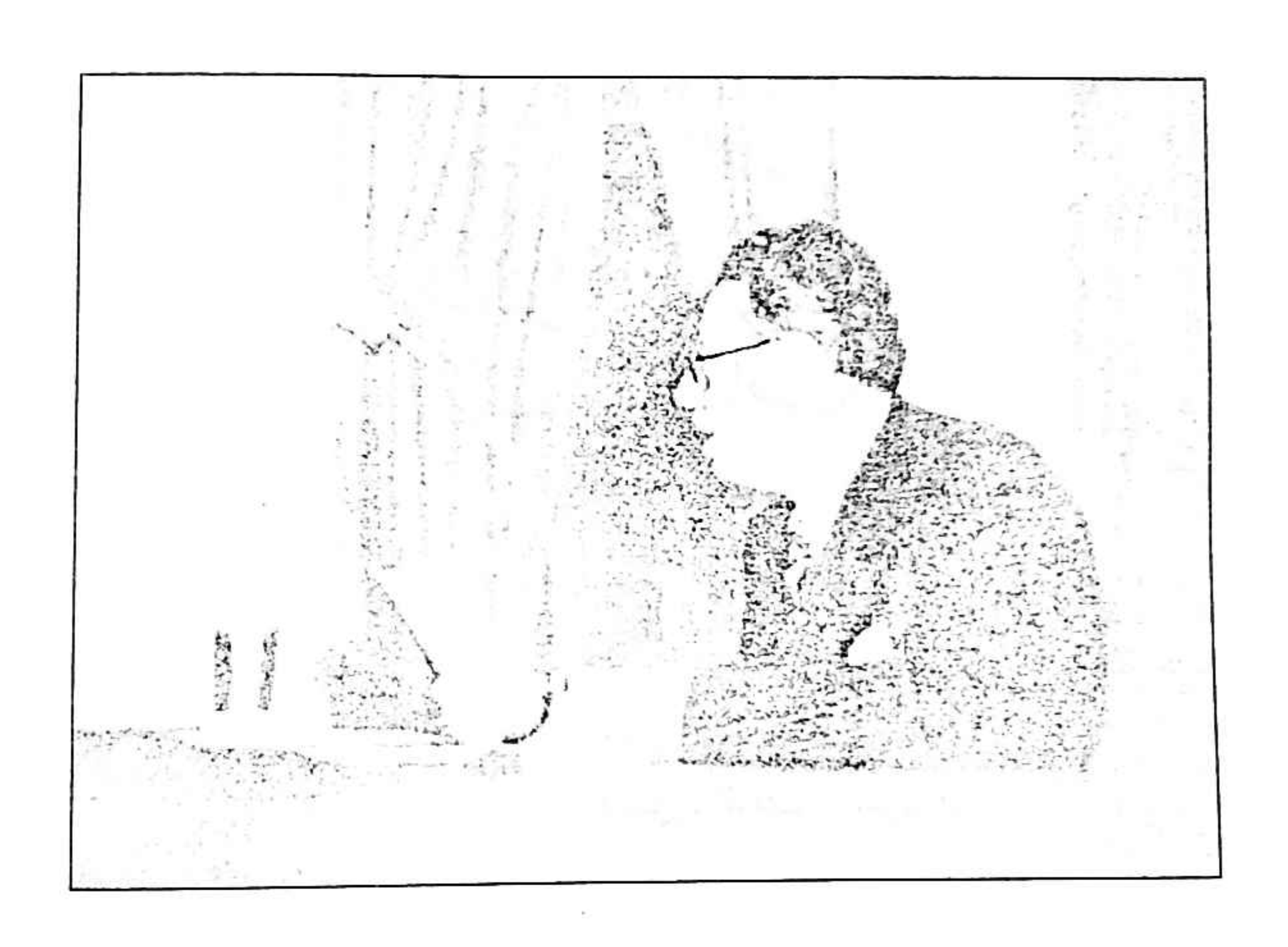
ذلك ، وإن قيل في الرَّدِّ على ما هنا ، انَّ علامة المدِّ من فوق الألف ، في مثل كلمة السماء ، تُحذف في الرَّسم ، لأنَّ المدَّ على الألف تعويض عن همزة مفتوحة قد حُذفت ، وأصل كتابتها هكذا « أا » ، مثل مآرب ، فلا يجوز وضعها على مثل « الرَّجاء » و « السَّماء » ، لأنهما لا تُلفظان « الرَّجأا » و « السَّمأا » .

ولقد أخذ الإمام اليازجيّ في هذه الكتابة بالرَّأي الأوَّل ، وجرى عليه في « الجنان » ، و « الطَّبيب » ، و « البيان » ، و «الضِّياء» ، وفي كلِّ كتاب وضعه ، أو وقف على طبعه . ونحن نحبُّ أن نأخذ إخذه ، رحمه الله ، في كلِّ نكتة لغويَّة .

الحَركة اللغَويّة في لبنان

في الصدر الأول من القرن العشرين

معها ملحق (عصر الطاء)،
وصورة المؤلّف (بالفوتوغرافية)



الصورة لنشرة « محاضرات الندوة » .

الأستاذ نخلة ، وهو يلقي « الحركة اللغوية في لبنان »
في « الندوة اللبنانية » ، في قاعة « الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة » ، سنة ١٩٤٧ .

مُقَدِّمَة

في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني سنة 1947 افتتح أديب العرب أستاذنا أمين بك نخلة بهذا المبحث اللغويّ التاريخيّ الدّقيق في « الحركة اللغويَّة في لبنان ، في الصَّدر الأوَّل من القرن العشرين » « محاضرات السلسلة الأدبيَّة » في « الندوة اللبنانيَّة » ، في بيروت . وقد نشرت « الندوة اللبنانيَّة » هذا المبحث في الجزء الأوَّل من مجلَّد السنة الأولى من نشرتها « محاضرات الندوة » .

ولمَّا كان المجلَّد المذكور من « محاضرات الندوة » قد قلَّ في المكاتب ، حتى أنَّه يكاد لا يُوجَد ، وكان بحث أستاذنا في هذا الموضوع ممَّا لا يجلّي فيه سواه ، ولا يبلغ أحد مداه ، ولا ينتهي منتهاه ، وقد تاق عشَّاق اللُّغة والأدب ، من الَّذين لم تحتوِ خزائنهم بعدُ هذا الكنز النَّخليّ النفيس ، إلى الوقوف عليه ، والاستفادة منه ، لذلك أخرجناه في هذه الطبعة الثانية في أجمل حلّة من طبع وورق ، خدمةً للُّغة وآدابها ، والعلوم العربيَّة وأربابها .

ثمَّ انَّنا وجدنا في « ذات العماد » ، وهو الكتاب الفريد الَّذي أخرجه أديب العرب في العام الماضي ، في « منشورات مطبعة دار الكتب » ، في بيروت ، فصلاً يتعلَّق بموضوع هذا الكتاب تعلُّقاً شديداً ، فجعلناه ملحقاً به .

وبحسب مجلّة « الورود » من الفخر في سوق الأدب ، أن تكون دلاّلاً لبضاعة صاحبها أمين نخلة أديب العرب ، وأفصح من نظم وكتب ، وحدّث وخطب !!!

مجلة « الورود »
بيروت

الفصل الأول

« تمهيد »

القول في اللُّغة ، في لبنان ، في الصَّدر الأوَّل من المئة العشرين ، لا بدَّ معه من القول في شعابٍ ثلاث :

إحداها : انَّ مصر كانت ، يومئذٍ ، من أندلسات اللبنانيِّين . غدا اليها فريقٌ من أهل العربيَّة فيهم ، من الَّذين آثروا الانزعاج من وطنهم فراراً من أذى العهد « الحميديِّ » ، فوطنوا بها ، وأمنوا ، وسَلُسَت قرائحهم ، وخصب وادي النيل بغدقهم . فلمَّا تأذَّن الله ، بعد ذلك ، بزوال الشدَّة عن العثمانيِّين ، وجاءت أيام « الدستور » ، وانطلقت الخواطر ، وخرجت الأقلام ، أخذ بحبل العربيَّة من فصَلَ من علماء اللبنانيِّين إلى مصر ، ومن لم يفصُل منهم ، وتجاذبوا في البلدين طرفيه . فالكلام على ما كان من أمر اللُّغة في لبنان ، في الصَّدر الأوَّل من هذه المئة الجارية ، لا يجوز أن يُقصر على اللبنانيِّين الَّذين صنعوا في العربيَّة تحت سمائهم . فانَّما المسألة بينهم وبين إخوانهم ، الَّذين صنعوا تحت السماء المصريَّة ، مسألة مناصفة ، تُردُّ جملتها في تأريخ اللُّغة إلى الحصَّة اللبنانيَّة .

الشعبة الثانية : إنَّنا نحن الآن في الكلام على ما كان في اللُّغة عندنا ، في ذلك الوقت ، أي قبل أن تجتمع هذه الأطراف اللبنانيَّة الجديدة إلى الرقعة اللبنانيَّة القديمة ، ويغمرها اسم لبنان . فلا يصحُّ هنا

تعدية الكلام إليها ، اللَّهمَّ الاَّ ما كان من حركة اللبنانيِّين في بيروت ، وهي الَّتي كانت عاصمتهم الرُّوحيَّة ، قبل أن تصبح عاصمتهم السياسيَّة ، أو هي الَّتي كانت (كما يقال بلغة عشَّاق السَّجع) عكاظ اللبنانيِّين ، ونعم المنتدى ، ووادي عقيقهم ،ونعم النَّدى ! فمن قال في تأريخ الآداب : بيروت : فكأنَّما هو قد قال : لبنان ، ومن ذكر هذه المدينة ، فكأنَّما ذكر أباها « الجبل » !

الثالثة : إنه ما كاد يطلع القرن العشرون ، حتى صيح في لبنان بيقظة سبق بأمرها الظنُّ . فقد كان « الدستور العثمانيُّ » يهمُّ أن ينبثق ، وكانت الخواطر والالسنة والأقلام تتردد في الحريَّة . فلما جاء يوم « الدستور » من عام 1908 ، رأى بنو قومنا ما أومأت إليه المقدمَّات ، ونعموا بنهضة أدبيَّة سعيدة ، دُقَّت بشائرها ، أوَّل ما دُقَّت ، في اللُّغة . فانَّ العلوم الدَّخيلة ، نحو الطبيعيَّات ، والطبِّ ، والرياضيَّات ، ونحو علم الفلك ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والحقوق ، كانت قد انتشرت ، أضفْ ما انتشر ، أيضاً ، من لغات الافرنج ، وآدابهم . وكان اللبنانيُّون ، في مهاجرتهم بين مشرق ومغرب ، قد خالطوا الشعوب ، وتقلَّبوا في مختلف الحضارات . وكانت المطابع قد كثرت ، وكثرت الجرائد ، وجاءت مخترعات ، وأدوات ، ومصطلحات علميَّة ، وبدا في الألفة والمجتمع والمعاش أحوال لا عهد لجماعتنا بها . فكان من ذلك أن مسَّت الحاجة إلى اسماء جديدة تقع على المسمَّيات الجديدة ، وإلى مبانٍ عربيَّة تأنس بها المعاني الغربيَّة . بل قد مسَّت الحاجة إلى تقريب اللُّغة من أشياء العصر في الجمل والفرائد جميعاً . فزيد من العناية باللُّغة على قدر ما زيد من الاستعانة بها .

الفصل الثاني

« تأليف المعاجم العامة ، والمعاجم الخاصة »

وهكذا تجد أنَّ علماء اللبنانيِّين قد تأتَّى لهم ، يومئذٍ ، ما تأتَّى لأوَّلهم في تسهيل معاجم اللُّغة ، وكتب الأوضاع . إذ لا يخفى أنَّه في أوَّل النصف الثاني من القرن الغابر جمع المعلم بطرس البستانيّ من كتاب الفيروزأباديٍّ جزئي « محيط المحيط » ، وأضاف زيادات ، وذكر مواضعات المولّدين ، واصطلاحات العلوم ، وأورد ألفاظاً عاميَّة فسَّرها بألفاظ فصيحة ، وأوضح طائفة من أصول الألفاظ الأعجميَّة ، وقرَّب النبش بالتصنيف على الحرف الأوَّل من الثلاثيّ المجرَّد ، ثمَّ اختصر كتابه في جزئي « قطر المحيط » ، وانَّ الشيخ سعيد الشرتونيّ جمع ، بعد ذلك ، « أقرب الموارد إلى فصح العربيَّة والشَّوارد » في جزئين ، معتمداً فيه طريقة « محيط المحيط » ، ثمَّ ألحق به ذيلاً استدرك فيه أموراً ، وأوعب جانباً من الكلمات الَّتي شردت من المتون .

ففي سنة 1907 أخرج المعلم جرجس همَّام « معجم الطالب » في المأنوس من متن اللُّغة ، والاصطلاحات العلميَّة والعصريَّة . وفي سنة 1908 أخرج الأب لويس المعلوف « المنجد » ، وهو أوَّل معجم عربيٍّ مصوَّر . وفيه ، أيضاً ، الكلمات المحدثة ، ومصطلحات العصريِّين . والكتابان مختصران ، مدرسيَّان ، جُري فيهما على نسق « محيط »

البستاني ، أي كما جُري في « أقرب الموارد » من قبل ـ فكأن لا عطر بعد عروس !

قال الشيخ ابراهيم اليازجيّ يردُّ على ما أورد فانديك في كتابه « اكتفاء القنوع » من المقابلة بين « محيط المحيط » و « أقرب الموارد » (البيان : 184) : « وانمّا الأوّل ـ يريد أقرب الموارد ـ نسخة عن محيط المحيط » . وقال صاحب « معجم الطالب » ، في مقدّمة كتابه (ص : ج) : « وجعلتُ محيط المحيط أمامي لحسن تنسيقه » . وقال الأب انستاس الكرمليّ (مجلّة المجمع العلميِّ العربيِّ 11 : 227) : « والّذي ثابتناه انَّ هذا المعجم ـ يريد البستان ـ نسخة ثالثة من محيط المحيط ، والثانية هي أقرب الموارد كما قلنا مراراً » . وقال في موضع آخر ، من كلام له على « البستان » أيضاً ، (مجلّة المجمع العلميِّ العربيِّ 14 : 132) : « ومن الأوهام الشائعة بين محيط المحيط ، وأولاده ، وشركائهم . . . » إلى أن يقول : « وكذلك وردت ـ يريد إحدى الكلمات ـ في أبناء محيط المحيط ، كأقرب الموارد ، والمنجد ، إلى غيرهما » .

وكان الشيخ ابراهيم اليازجيّ في تلك الحقبة يعنى بتأليف « الفرائد الحسان من قلائد اللّسان » ، إلاّ أنَّ الوفاة عاجلته قبل أن يبلغ الى آخره . قال الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف (تأريخ اليازجيِّين وأصهارهم 1: 94) : « وهو ـ يريد الفرائد الحسان ـ يشتمل على المأنوس من كلام قدماء العرب ، بأسلوب علميٍّ تطرّق فيه إلى موضوعات المولّدين والمحدثين ، معرضاً عن المولّد والمحدث في الاصطلاح ، معتنياً بإيراد الألفاظ الفصحى الّتي نطق بها العرب . وقد

رأيتُ هذا الكتاب مع ابن شقيقه الشيخ حبيب في بيروت . وباقيه هو تعاليق على حواشي الكتب ، ومذكّرات في أوراق متفرّقة ، واستدراكات مشتّتة يصعب جمعها على غيره ، أعجله الموت عن إنجازه » . وقال الأستاذ جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر 135:2) : « وكنّا نحسب موادّه ـ يريد موادّ الفرائد الحسان ـ مجموعة كلّها ، أو بعضها ، فاذا هي تعاليق على حواشي الكتب ، وبعض المذكّرات ، في أوراق متفرّقة لا يستطيع جمعها أو تاليفها سواه . فذهب الأمل بظهور ذلك الكتاب الفريد » . وقال الأستاذ جبران النحّاس (معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة : ج 1930) : «وقد فلَّ له امهّات اللُّغة حرفاً حرفاً ، ونقّب عن ما تضمّنته تفاسيرها ، وخلت منه متونها . وقرأ عليه الجيّد من أسفار الأدب كالأغاني ، ويتيمة الدهر ، وما في طبقتها » .

هذا ما كان من أمر علمائنا في المعاجم العامّة ، أي الّتي في اللُّغة على وجه العموم . أمّا في المعاجم الخاصّة ، وهي الّتي يكون الواحد منها في نوع خاصّ ، أو في أنواع خاصّة من الكلم ، فانّه في سنة 1904 أخرج الشيخ ابرهيم اليازجيّ الجزء الأوّل من « نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد » ، وفي سنة 1905 أخرج شطراً من الجزء الثاني . قال الأُستاذ جبران النحّاس (معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة : ج 1930) : «ومن مؤلّفاته الباقية خطّاً ـ يريد مؤلّفات الشيخ اليازجيّ ـ الجزء الثالث من نجعة الرائد وبقية الجزء الثاني » . وقد جمع الشيخ اليازجيّ في « نجعة الرائد » من مترادف ألفاظ اللُّغة ، وتراكيبها ، ما يسدّد لتصوير طائفة من الخواطر المتعلّقة بالإنسان ، وأحواله ، وضروب

مواصلته ، على الأُسلوب الصحيح ، مرتَّباً ذلك على المعاني ، دون الأَلفاظ .

وفي سنة 1905 ، أَيضاً ، أَخرج الشيخ سعيد الشرتونيّ الجزء الأَوَّل من « نجدة اليراع » . وقد جمع فيه جانباً من الأَلفاظ التي تُعوز في أَغراض شتَّى ، كوصف الأَمكنة ، والأَزمنة ، والحصون ، والدُّور ، والشباب ، والمشيب ، والأَثنية ، والمادح ، وما في نحوها . ورتَّبه على أبواب المعاني ، وجعل في آخره معجماً لما فيه من الغريب . ثمّ انَّه انقطع عن إخراج بقيَّة الأجزاء . قال في المقدِّمة (ص 3) : « وقد قسمته إلى ثلاثة أجزاء : الأَوَّل يحتوي فقراً للبلغاء في أكثر أَبواب الكتابة . ومعظمها مّما جمعه القيروانيّ » . يريد : أَبا عبيد الله محمداً بن شرف . ويريد « بما جمعه » : « أَعلام الكلام » الذي نُشر في « المقتبس » (6: 359-371 و450-459 و525 -530) ، وفي « رسائل البلغاء » (241 -286 ، من الطبعة الثانية) تحت اسم : «رسائل الانتقاد» . وإنَّ في « نجدة اليراع » التفاتاً إلى سجعات الزمخشريّ في « الأساس » ، ولكنَّه لا ينظر إلى « أساليب العرب في صناعة الانشاء » ، كما قال بعضهم . فانَّ « نجدة اليراع » في وادٍ ، و « أَساليب العرب » الذي أَخرج المعلم شاكر شقير الجزء الأوَّل منه في سنة 1894 ، وكفَّ بعده ، هو في وادٍ آخر . وإنَّما قال ذلك القول من كان لا يمرأ له طعام قبل أَن يمزق من فروة الشيخ الشرتونيّ . . .

الفصل الثالث

« تأليف كتب القواعد »

وقد كان لا بدَّ لعلمائنا ، بعد أن جهدوا في تسهيل كتب المتن ، وجعل المفردات والتراكيب مجاريةً للعصر ، من أن يجهدوا في تسهيل كتب القواعد ، وجعلها كالَّذي جاءهم من كتب الافرنج ، هيِّنة المتناول . لم يقنعهم ، في تلك اليقظة ، ما وضعه في علمي النَّحو والتَّصريف على طرائق القدماء جماعة من سلفهم ، نحو « الباب في أصول الإعراب » ، و « فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب » ، و « جوف الفرا » ، و « نار القرى في شرح جوف الفرا » ، و « طوق الحمامة » ، و « الجوهر الفرد » ، و « الخزانة » ، و « الجمانة في شرح الخزانة » للشيخ ناصيف اليازجيّ ، ونحو « مفتاح المصباح » الَّذي اختصر فيه المعلم بطرس البستانيّ « بحث المطالب في علم العربيَّة » للمطران جرمانوس فرحات (وقد سمَّى البستانيّ كتابه مفتاح المصباح هكذا بعد أن كان قد علَّق على بحث المطالب ، ونشره بالطبع معنوناً باسم : مصباح الطالب في بحث المطالب) ، ونحو « غنية الطالب ومنية الراغب » للشيخ أحمد فارس الشدياق ، و « مدخل الطلاَّب إلى فردوس لغة الأعراب » لسليم بك تقلا ، و « الأجوبة الجليَّة في الأصول الصرفيَّة » لمحمد بك تلحوق . بل لم يقنعهم ما وضعه فريق منهم على

الطريقة القديمة ، قبل أن يتحرَّك فجر النهضة ، نحو « مختصر نار القرى في شرح جوف الفرا » ، و « مطالع السَّعد لمطالع الجوهر الفرد » ، و « مختصر الجمانة في شرح الخزانة » للشيخ ابرهيم اليازجيّ ، و « الأمالي التمهيديَّة في مبادىء اللُّغة العربيَّة » للشيخ ظاهر خير الله ، و « الفرائد السنيَّة في إيضاح الآجروميَّة » لجرجس بك صفا ، و « القواعد الجليَّة في علم العربيَّة » للأب جبرائيل إدَّه ، و « تمرين الطلاَّب في التصريف والإعراب » للمعلم رشيد الشرتونيّ ، و « طيب العرف في فنٍّ الصرف » لسعيد باشا شقير ، ويوسف بك افتيموس ، و « عقود الدُّرر في شرح شواهد المختصر » ، أي « مختصر نار القرى » المشار اليه ، و « عقود الدُّرر » للمعلم شاهين عطية ، وهو الَّذي فيه ملحق بتحقيق رواية الأبيات من قلم الشيخ ابرهيم اليازجيّ . فأقبل جماعة منهم على التأليف في الضبط اللُّغويّ ، منهم الشيخ عبد الله البستانيّ ، والخوري نعمة الله باخوس ، اللَّذان أشرفا في سنة 1900 على طبع « بحث المطالب » . فأضاف الأوَّل على باب النحو ، في الكتاب ، زيادات كثيرة ، وأضاف الثاني على باب الصرف إيضاحات مستفيضة . ومنهم المعلم رشيد الشرتونيّ ، وقد ظهر له في سنة 1906 « مبادىء العربيَّة » ، وهو على أسلوب المحاورة . فأسعفوا عصرهم ببعض الحاجة ، إذ أنَّهم خرجوا بذلك عمَّا ذكره الأستاذ جرجي زيدان ، من كلام له على التأليف في اللُّغة ، في الأيام السابقة لأيامهم ، قال (تأريخ آداب اللُّغة العربيَّة 4: 255) : « أكثر ما ظهر من علوم اللُّغة في العصر الأوَّل من هذه النهضة ـ يريد النُّصف الأوَّل من القرن الثامن عشر ـ لا يخرج عما كُتب قبله . وأكثره تلخيص ، أو تعليق على كتب القدماء » إلى أن يقول : « وكانت المدارس على اختلاف أديانها تعلِّم اللُّغة في الكتب القديمة

كالأجرومية ، وابن عقيل ، والأشموني ، والصبَّان ، والحريريّ » .

إلاَّ أنَّ الأمر في تسهيل معاجم اللُّغة ، وكتب القواعد ، لم يصبح في يومهم ، ولا هو أصبح في يومنا هذا ، على طرف الثمام ! وما برح الرأي الجزل في معالجته هو الرأي الَّذي أشار به الشيخ ابرهيم اليازجيّ ، قال ما نصُّه ، بعد كلام (الضياء 4: 325) : « ولذلك فأوَّل ما ينبغي الاهتمام به تأليف لجنة من ذوي البصائر السليمة ، والعلم الصحيح ، تتولىَّ كتب النحو بمثل ما فعل مؤلِّفو مجلَّة الأحكام العدليَّة في الكتب الشرعيَّة ، فيختارون من كلِّ قاعدة أصحَّ الأقوال وأمثلها لتكون مرجعاً لطلاَّب هذه الصناعة ، وتُنبذ بقيَّة الأقوال الساقطة ، والمذاهب المرجوحة ، ويكون في ضمن ذلك إهمال كلِّ ما يتعلَّق بالقراءات المختلفة ، واللُّغات الشاذَّة ، والضرورات الشعريَّة ، ممَّا يُترك الكلام عليه للتصانيف المختصَّة به ، بحيث يتخلَّص النَّحو في الوجوه الَّتي عليها الاستعمال ، ويكون ذلك ذريعةً تتوحَّد بها قواعد اللُّغة ، كما توحَّدت اللُّغة بالقرآن . ومثل ذلك يُفعل بكتب متن اللُّغة ، فتُنبَذ منها اللُّغات المتروكة ، والألفاظ الوحشيَّة ، من كلِّ ما لا يُرى في الكتب المتداولة لهذا العهد ، وما لا يجوز للفصيح استعماله على ما نصَّ عليه علماء البيان . لأنَّ هذه كلَّها ممَّا يقتضي الإطالة في الشرح إلى حدِّ الملل ، ويكثر التخليط على الطالب من غير فائدة . ثمَّ يُنظر في التعاريف المبهمة ، أو المهملة ، ولا سيماً تعاريف أسماء الحجارة ، والجواهر ، وأنواع النبات ، والحيوان ، على قدر ما يمكن التوصُّل اليه ، ولو بالأدلَّة الوضعيَّة ، والمناسبات الاشتقاقيَّة . وتُرتَّب الألفاظ على وجه سهل المراجعة ، لا يكلِّف عناءً ، ولا بحثاً طويلاً ، بحيث تكون كتب اللُّغة عندنا على مثل ما هي عليه في اللُّغات الأوربيَّة » .

الفصل الرابع

« التأليف في علوم اللغة »

أمَّا التأليف في اللُّغة ، فانَّ علماء اللبنانيِّين ، في النُّصف الثاني من القرن الماضي ، سبقوا فيه الى الغاية . فقد غاصوا على الدقائق ، ونقّبوا عن النوادر ، وجمعوا الأشتات ، وأحاطوا بأُصول ، وفروع . وبحسب الشيخ أحمد فارس الشّدياق أن يكون له « السَّاق على السَّاق في ما هو الفارياق » الذي لا يُلَزُّ به نظير في المترادف والمتجانس في المآكل ، والمشرب ، والمفرش ، والملبس ، وفي الحلي ، والمصوغ ، والطِّيب ، وفي أوصاف الرجال والنساء ، على نمط لم تجعل فيه الألفاظ مقتضبةً على العلائق ، وأن يكون له « الجاسوس على القاموس » ، وقد استطال فيه على الفيروزأباديُّ في أربعة وعشرين موضعاً ، وذلك بين تقويم عبارة ، وإصلاح ترتيب ، وضبط لفظ ، وردٌّ اشتقاق إلى الصحَّة ، وأن يكون له « سرّ اللّيال في القلب والإبدال » ، وقد سرد فيه الأفعال والأسماء الَّتي هي أكثر تداولاً ، ونسقها على التلفُّظ بها لإيضاح تناسبها ، وإبداء تجانسها ، وكشف الأصل من مدلولها ، وأورد الألفاظ المقلوبة والمبدلة ، واستدرك ما فات صاحب « القاموس » من لفظ ، أو مثل ، أو إيضاح عبارة ، أو نسق مادَّة . وبحسب الأستاذ جرجي زيدان أن يكون له « الفلسفة اللغويَّة » ، وقد أداره على أوَّليَّة اللُّغة ، وما

كان من النشوء في الأفعال والأسماء والحروف ، وفي صيغ الاشتقاق وأساليب التعبير ، وما في سبيل ذلك . وبحسب الشيخ ظاهر خير الله أن يكون له « المنهاج السَّويّ في التَّخريج اللغويّ » ، وهو الَّذي لم يكتب لصاحبه أن يمثِّله بالطبع ، فنشر الشيخ أمين خير الله في سنة 1928 هذا كتاب والده . وقد جاء « المنهاج السويّ » بتخطيط أسلوب في تخريج الحروف يكسب تفهُّمها ، واستطلاع صيغها . وفيه ، أيضاً ، طائفة من قواعد علم المباني لم يذكرها واحد من أهل العربيَّة في قديم ، ولا حديث . وبحسب الشيخ ابرهيم اليازجيّ ان يكون له رسالة « أصل اللُّغات الساميَّة » ، و« أمالي لغويَّة » ، و« اللُّغة والعصر » ، و« لغة الجرائد » ، الَّتي نُشرت الأولى منها في « المقتطف » ، والثانية في « الطبيب » ، والثالثة في « البيان » ، والرابعة في « الضياء » ، والَّتي لا تزال بضوئها يُستصبح إلى زماننا .

فلمَّا جاء القرن العشرون عاد علماؤنا إلى ما هنالك . فنشر الشيخ ابرهيم اليازجيّ في « الضياء » ، بين سنة 1900 و 1906 ، رسالة « أغلاط العرب القدماء » ، و« اللُّغة العاميَّة واللُّغة الفصحى » ، و« نقد لسان العرب » ، و« أغلاط المولَّدين » ، و« المجاز » ، و« النبر » ، وفيها من سنيّ المباحث ما تتقطَّع عليه الأعناق !

ونشر الشيخ سعيد الشرتونيّ في « المقتطف » سنة 1900 جانباً من رسالته « دقائق عربيَّة » ، ثمَّ نشر بقيَّتها في « المقتبس » سنة 1911 . وهي في ما عثر عليه من الشَّوارد في كتب الشُّروح ، والكلام القديم ، ولخصه ، وكشف عن أسراره .

ونشر الشيخ ضاهر خير الله في سنة 1903 « رسالة المفعلة » ، ومعها

مبحث ضافٍ في انقسام جموع التكسير إلى ما يشترك بين ذي الحياة وغيره ، وما يختصُّ بذي الحياة ، و «رسالة جيِّد » ، ومعها مطلب الفَعَلان (بفتح الفاء والعين) ، والفُعْلان ، والفِعْلان ، والفَعْلان (بسكون العين ، وضمّ الفاء ، وكسرها ، وفتحها) . ثمّ نشر في سنة 1907 «اللّمع النّواجم في اللّغة والمعاجم » ، وقد جعله صدراً « لمعجم الطالب » . ومن إجاداته فيه كلامه على اللّغة من حيث نوعها ، وتعريفها ، وتصريفها ، وحصولها ، وتدوينها ، وعلى القبائل الّتي أُخذ عنها ، وعلى النّقط والشّكل في الخطّ ، وعلى جمع اللّغة في المعاجم ، وعلى جعل متن اللّغة علماً قياسيّاً ، كعلم النّحو .

ونشر الأستاذ جرجي زيدان في سنة 1904 « تاريخ اللّغة العربيّة » . عرض فيه لما طرأ على اللّغة في ألفاظها وتراكيبها من دثور وتجدُّد ، وأورد أشياء ممّا دثر ، ونشأ ، وممّا جاء اللّغة بعد مخالطة الشعوب .

الفصل الخامس

« نشر المخطوطات اللغوية »

وأمَّا المخطوطات اللغويَّة القديمة فقد اهتمَّ علماء اللبنانيِّين بشأنها ، يومئذٍ ، اهتمام من تقدَّمهم من علماء بني قومهم به في القرن الماضي ، وعاد قديمهم في ذلك على حديثهم . فانَّه ما كاد يمسح الشيخ سعيد الشرتونيّ قلمه في سنة 1894 من تصحيح « النَّوادر في اللُّغة ، وكتاب مسائيَهْ » لأبي زيد الأنصاريّ ، والتَّعليق عليه ، بل ما كاد يفرغ الشيخ ابرهيم اليازجيّ ، بعد ذلك بأعوام ثلاثة ، من تحشية « تحفة المودود في المقصور والممدود » للإمام ابن مالك ، وتصحيح روايته ، حتى أخرج الشيخ عبد الله البستانيّ في سنة 1901 « الاقتضاب في شرح أدب الكتَّاب » لابن السيِّد البطليوسيّ ، بعد أن صحَّح ما وجد في الأصل من تحريف ، وتصحيف ، وأغلاط نسخيَّة . و « الاقتضاب » هو أجلُّ ما نُشر في ذلك الوقت ، على أيدي اللبنانيِّين ، من المخطوطات اللغويَّة القديمة . وقد انتشر به الصوت ، في الآفاق العربيَّة ، يومذاك ، لما كان من الحاجة إلى كتاب يوضح كتاب ابن قتيبة ، الَّذي ما برح حجَّة الناس ، منذ ألف سنة ! لم يكن قد ظهر « شرح أدب الكاتب » للجواليقيّ بعد ، ولا بُرِّدت به أكباد كثيرة . فظلَّ « الاقتضاب » هو السابل المسلوك ، في كلِّ رجعة إلى « أدب الكاتب » ، زماناً ليس

بقليل ، وعليه كان الاعتماد في طبعة « أدب الكاتب » الّتي في الأيدي . إلاّ أنّ أستاذنا البستانيّ شغلته ، من سوء الحظّ ، يوم « الاقتضاب » ، شواغل كثيرة . فلم يقدّم له بتعريف بالمؤلّف ، ولا بالكتاب ، ولا بالنسخة الّتي طبع عنها ، ولا ذكر زمن كتابتها ، ولا اسم كاتبها . ولم يذكر المواضع الّتي التبست في الأصل ، واتجهت عنده ، ولم يلحق بالكتاب فهرس أسماء ، ولا فهرس موادّ ، كما هي عادة أهل التّنقيب ، ممّن هم من طبقة الشيخ البستانيّ ، في إخراج هذه النفائس . لم يستطع أستاذنا أن يخدم الكتاب بشيء من كلّ ذلك ، واكتفى أن حرّره أحسن ما يُستطاع التحرير .

أمّا ما قاله ناشر شرح الجواليقيّ في الكلمة الّتي بها ختم نسخته ، من أنّ « الاقتضاب لا يأتي على أخطائه حساب » ! فليس هنا محلّ الكلام عليه . . . هذا ، وسقى الله زماناً كان المذهب فيه ما ذكره صاحب « الوشاح » وهو أنهّم كانوا يقولون : هذه اللّفظة (مثلاً) أثبتها فلان ، وأنكرها فلان ، أو : لم يعرفها فلان ، أو : خلافاً لفلان ، وما أشبهه ، تحاشياً عن أن يقولوا : أخطأ فلان !

الفصل السادس

« وضع الألفاظ »

وحاجة أخرى أمضاها علماؤنا في ذلك الصدّر من المئة الجارية . فلقد ألجأهم ما هجم عليهم من فنون الحضارة والعمران إلى وضع ألفاظ تؤدّى بها المعاني الّتي خلت عنها ألفاظ العربيّة في الأدوات ، والمخترعات الحديثة ، وفي المصطلحات العلميّة والصناعيّة الدّخيلة . قال الشيخ ابرهيم اليازجيّ ، يصف ما كان من حال الناس بلغتهم ، يومئذٍ ، ومن لك ، في هذا الشأن ، بمثل الشيخ اليازجيّ ، فينقل عن معايشة ، ومعاينة (الضياء 2 : 450) : « أصبح الكاتب مضطراً إلى وضع مئات بل آلاف من الأسماء الّتي لا يجد لها رديفاً في لسانه ، ولا في وسعه نقل تلك الألفاظ بصورتها الى لغته لشدّة التباين بين طبيعة هذه اللغات ولغات أولئك الأقوام. لأنّ الألفاظ فيها محصورة الأوضاع ، محدودة الصيّغ ، لا تقبل الزيادة عليها إلاّ منها ، ولا يمكن أن تدسّ اللّفظة الأجنبيّة بينها إلاّ بعد أن تجانسها ، وتؤاخيها » .

وكان قد سبق الشيخ أحمد فارس الشّدياق في « الجوائب » إلى وضع ألفاظ ، شفى بها شيئاً من غلّة زمانه . قال الأستاذ محمد كرد علي في سنة 1911 ، من كلام له على الألفاظ الدّخيلة (المقتبس 6: 198) : « منذ زهاء 100 سنة شعر الكتّاب والمترجمون بالحاجة إلى ترجمة بعض الألفاظ

إلى العربيّة فبدأ بذلك الشيخ أحمد فارس الشدياق ، صاحب الجوائب ، ووضع بعض الألفاظ العربيّة لمدلولات افرنجيّة شاعت اليوم حتى عُدّت كأنها من متن اللّغة الأصليّ ، ثمّ تبعه من جاء بعده » .

ومن ألطف مايُذكر في هذا المقام أبيات للشيخ الشّدياق فصّل فيها ما كان يكلّفه التّعريب من خطّة شديدة قال (كنز الرّغائب 3 : 23-24) :

إذا كان ربُّ البيت أدرى بما به
فإنّيَ أدرى بالّذي أنا كاتبُ
ومن فاته التّعريب، لم يدرِ ما العنا
ولم يصلَ نار الحرب إلاّ المحاربُ
أرى ألف معنى ماله من مجانسٍ
لدينا ، وألفاً ما له ما يناسبُ
وألفاً من الألفاظ دون مرادفٍ
وفصلاً مكان الوصل، والوصل واجبُ
وأسلوب إيجاز ، إذِ الحال تقتضي
أساليب إطنابٍ ، لتوعى المطالبُ
وعكس الّذي قد مرّ أكثر ، فانْشُدْ
ألا أيُّهاذا اللاّئمي ، والمعاتبُ
فيا ليت قومي يعلمون بأنّني
على نكد التّعريب جدّيَ ذاهبُ

ومن الكلمات الشّدياقيّة المتناقلة : الجريدة ، والمؤتمر ، والحافلة ، والمنطاد ، والمطعم (لدكّان الأكل) ، والسلك البرقيُّ (للتّلغراف) .

وله ، أيضاً : الموحي ، والموصل البرقيُّ (للتِّلغـراف) ، والبازركانـيُّ (للسوقيِّ ، أيِ تاجر النسيج ، وهي من الفارسيَّة) ، والبـرزيق (لما نستعمل له الرَّصيف ، والحيد) .

ثمَّ وضع الشيخ خليل اليازجيّ بعيد ذلك ألفاظاً ، منها : الجواز ، والرَّدهة ، والقفَّاز ، والنَّوط ، والصبحة (لطعام الصباح ، خاصةً) ، والجديل (لسير اللِّجام ، إذا كان حبلاً مجدولاً) . ووضع الشيخ نجيب الحدَّاد : الصِّحافة ، والمعلم شاكر شقير : المنظـرة ، والدكتـور خليل سعادة : آداب السُّلوك ، والدكتور بشارة زلزل : الآح (للـزُّلال) ، والأمـرط (لما ليس له ريش ، ولا زغـب من الطـير) ، والانسـلاخ (لتحوُّل الهوامّ من حالة إلى حالـة) ، والأشرع (للطـويل الأنف من القرود) ، والبطريق (للسَّمين من الطير) .

فلمَّا أقبل القرن العشرون ، واستفاضت النهضة ، أخذت تدور في لغة الكتابة ألفاظ لبنانيَّة كثيرة ، منها ما وضعه الشيخ عبد الله البستانيّ ، كالآنسة والعقيلة ، والنَّديّ (للتلفون) ، والمصَّاص (للـورق الكثير المصِّ) ، والشَّاري (لقضيب الصَّاعقة) والدَّاهية ، والباقعة (لما نقول له ، أيضـاً : العبقـريّ) ، والفرصـاد (لشجـر التـوت ، وثمـره ، وأحمـره) ، ومنهـا ما وضعـه الدكتـور يعقـوب صرُّوف ، كالمصـحّ والتلفزة ، والنشوء والارتقاء ، والصَّلب (للفولاذ) ، وما وضعه الشيخ سعيد الشرتونيّ ، كالعاديَّات (لـلأشياء القديمـة) والقطـار (للسكَّة الحـديد) ، والقاطـرة (للآلـة البخـاريَّة ، أو الكهربـائيَّة الَّتـي تجـرُّ المركبات) ، وما وضعه الأستاذ سليمان البستانيّ ، كالملحمة (للطـوال من القصائد القصصيَّة) ، وما وضعه الدكتور أمـين باشـا المعلـوف ،

كالنِّفط (للبترول) ، والغُول (للغوريلاً ، وهو القرد الشبيه بالإنسان) ، والسُّعن (للدَّلو من الجلد) وما وضعه المعلم جرجس همّام ، كتدبير المال (للعلم المعروف) ، والطلاَّسة (لممسحة اللَّوح الأسود في المدارس) ، والتلفيعة (للشَّال حول العنق في البرد) ، والنَّابع (للقلم الَّذي حبرُه فيه) . أمَّا الشيخ ابراهيم اليازجيّ ، وهو الَّذي لا يُلحق في هذا الباب غباره ، فلهُ من الألفاظ الخفيفة ، الَّتي تتهالك عليها الأقلام ، شيء كثير . منه : المجلَّة ، والبيئة ، والأربة ، والحساء ، والدرَّاجة ، والحاكي ، واللَّولب ، والشُّعار ، والحَسَر ، والمقصلة ، والمقصف ، والحوذيّ ، والشُّحنة ، والطارئة (وهي الجماعة تطرأ من أرضها إلى أرضٍ أخرى) ، والطلاء ، والبائنة ، والشَّعريَّة ، والمدَّاد (للقلم المحبَّر ، وهذه أكثر دوراناً من النَّابع الَّتي للمعلم جرجس همّام) والمأساة ، والمثابة (لدار البورصة) ، والمنضحة ، ودار النِّفاس ، والتَّبليد ، واستكراه النَّبات (أي معالجته بالطُّرق الصناعيَّة حتى يخرج زهره ، أو ثمره ، في غير أوانه) إلى غيرها مما يطول عدُّه .

الفصل السابع

« التلفظ بالأعلام ، والكلمات الأجنبية »

ومّما تنبّه له الشيخ اليازجيّ، وهو يتبع هذا الّذي نحن فيه الآن، مسألة التلفّظ بالأعلام، والكلمات الاجنبيّة، الّتي كثر، يومئذٍ، ورودها، وزاد الاضطرار إلى نقلها، على كون ما يدور فيها من المقاطع لا وجود له في العربيّ. وهي مسألة قديمة، تكلّم عليها ابن خلدون في «المقدّمة» (ص 25 و 26 من طبعة البهيّة). وزبدة رأيه فيها أن تُحكى الأعلام والكلمات الأعجميّة على أصل مخارجها. وذلك أن يُوضع الحرف منها بما يدلّ على الحرفين اللّذين يكتنفانه، ليتوسّط القارىء بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين (راجع الصفحة 25 من المقدّمة). وقد وضع الشيخ اليازجيّ حركاتٍ خاصّة، لضبط ما يكون من الأسماء الأعجميّة بضمّة ممالة إلى الفتح، أو بضمّة ممالة إلى الكسر، أو بكسرة ممالة إلى الفتح، أو بحركة تجمع بين الحركات الثلاث. قال ما ملخّصه (الضياء: 2 : 516) : «والطريقة الّتي جرينا عليها تقرب من الوجه الّذي ذكره ابن خلدون، أي أن يُعبَّر عن اللفظ المتوسّط بين حرفين برسم الحرفين مقترنين، حتى يكون اللفظ ممتزجاً منهما. فجعلنا علامة الحركة الّتي بين الضمّ والفتح من كسرة وفتحة، والّتي بين

الضمّ والكسر من ضمّة وكسرة، والجامعة للحركات الثلاث بمقارنة الحركات الثلاث» - (وراجعْ، أيضاً، الصفحة 6 من المجلّد 4، والصفحة 533 من المجلّد 7 من الضياء). وأمّا الجيم التي تُلفظ بين الجيم والكاف فقد جعلها الشيخ اليازجيّ في الرسم مركّبة من الحرفين المذكورين (راجع الهامش في الصفحة 578 من المجلّد 4 من الضياء).

وممّا يُؤسف له انّ مطابعنا، لم تُهيّأ فيها، إلى الآن، كلُّ هذه الحركات اليازجيّة، التي تمكّن من ضبط الكلمات الأعجميّة في كتبنا، ومجلّاتنا، وجرائدنا.

الفصل الثامن

« الكتابة في النقد اللغوي »

بقي أن نقول في النّقد اللغويّ، الّذي تصدّى له في تلك الحقبة نفر من علمائنا. وذلك انّه بعد أن زهر سراج الحريّة، وازدحمت الأقلام على الكتـابة، وتعـدّدت مقامـات القول، بتعـدُّد الأخذ بأسباب الحضارة الطّالعة، إلى آخر ما نجم من أحوال تقدَّم الكلام عليها، لم يكن بدٌّ من وقوع ما ذكره الأب لويس شيخو، من كلام له على حركة الأقلام، وانتشار المطبوعات، يومذاك. قال، وكلامه هنا، كما لا يخفى، بيان عن عيانٍ (المشرق 23: 225-266): «ومن مساوىء ذاك الانتشار البعيد ما أصاب اللُّغة من الفساد، وذلك بتوفُّر الألفاظ الأجنبيَّة والأساليب الغربيَّة. وربَّما وضع الصحافيُّون والمعرِّبون في نقلهم عن اللغات الأوروبيَّة مفردات مختلفة لمسمًّى واحد، ولاسيَّما للمخترعات الجديدة. فاضطربت بخلافهم أفكار القرَّاء. وأسوأ من ذلك أغلاط وسقطات لغويَّة شاعت في الجرائد والتآليف المستحدثة». يريد انَّ الأمر، يومئذٍ، انقلب إلى ضدِّه. أي انَّ حالة اللُّغة، في الكتابة، كانت بين فئة تتعهَّد كلامها، وفئة ترسل الكلام كما يجيء، لا تكلِّف نفسها تنقيحاً، ولا مراجعة. تلك تشدُّ بالنواجذ على النصاب العربيِّ ؛ وهذه تريد أن تتفلَّت منه

بعد أن أفاضت إلى منفسح عريض من تصورات دخيلة ، وتعابير دخيلة ، دون ان توفّق بين ذوق لبنانيين ، وذوق أوروبيين ، ويصحّ معها قول البحتريّ :

إذا تقاربت الآداب، والتأمت
دنت مسافةُ بين العجم والعربِ

وكان أن انقبض أولئك عن الحلاوات الأجنبيّة في أسلوب الكتابة، وبالغ هؤلاء فيها فقنع نفر بقيام المعنى، دون الالتفات إلى قيام المبنى، وقنع النفر الآخر بركوب السّجع في كلّ مقام، وسوق المترادف بلا وجه، التذاذاً منهم بما أَلِفوه، وفراراً إلى القوالب المجهّزة، والألفاظ المجمّعة، خوف الزّلل في الاختراع . فتفشّى الغلط، وفسدت السلائق، وراجت البضاعة الخفيفة. وهكذا ضاع البيان على أيدي الأوّلين، وضاعت اللّغة، وسلمت اللّغة على أيدي الآخرين وضاع البيان. ولولا الفئة النّاجية، وهي الّتي رُزقت الإجادة، وسلامة الأداء في آنٍ معاً، لما جاءنا عن زمانهم هذه الحسنات الكثيرة!

ولذلك ما جمع الشيخ ابراهيم اليازجيّ في سنة 1901 مقالات «لغة الجرائد» في كتاب مستقلّ، وكان قد نشرها في «الضياء» تباعاً، كما سبقت الاشارة. وهي الفصول المستطيرة الشهرة، الّتي ذكر فيها ألفاظاً وتراكيب، أزالها عن عمود اللّغة فريق من الكتّاب، مع الإتيان بوجه الصحّة فيها. وانّ «لغة الجرائد» هو، بعد «لسان غصن لبنان» الّذي أخرجه في سنة 1891 المعلم شاكر شقير، وقد جعله على التّعريب، والخطأ في القواعد، وعلى

استعمال بعض الألفاظ في غير معناها، وإنزالها في غير منازلها، ثاني كتب اللبنانيِّين في نقد العربيَّة العصريَّة. وناهيك بكتاب اليازجيّ من كتاب يكاد لا يوجد في الَّذين كتبوا في التَّخطئة والتصويب في زماننا من لم ينظر اليه، حتى ليُذكر به ما قاله القاضي الفاضل في كتب الجاحظ: «ما منّا، معاشر الكتّاب، إلَّا من دخل من كتب الجاحظ الحارة، وشنَّ عليها الغارة، وخرج، وعلى كتفيه منها كارة!».

ومن النَّقد اللُّغويِّ، الَّذي سال من أجله، يومئذٍ، حبر كثير، تفقُّد الشيخ اليازجيّ «لمجاني الأدب»، و«علم الأدب»، و«شرح مجاني الأدب»، و«شعراء النصرانيَّة» للأب شيخو (انظر الضياء: 2 و5 و6)، و«أقرب الموارد» للشيخ الشرتونيّ (انظر الضياء: 3 و4 و5 و6 و7)، و«آخر بني سراج» للأمير شكيب أرسلان (انظر الضياء: 7)، وما ردَّ به الأمير شكيب والأب شيخو والمعلم رشيد الشرتونيّ على الشيخ اليازجيّ في مسائل أنكرها عليهم، وعلى جماعة من قدماء الأئمة وحدثائهم (انظر المشرق: 2 و3 و5). وقد نشر الأمير شكيب في سنة 1905 «الضياء وابن سراج»، ساق فيه ما عنده من الجواب على انتقاد الشيخ اليازجيّ «لآخر بني سراج»، وخلص إلى القول انَّ العربيَّة يقع فيها النَّقل لأدنى ملابسة. وهي نكتة الكلام في الكتاب.

أمَّا هذا الذي شجر بين الشيخ اليازجيّ والأمير شكيب بسبب «آخر بني سراج»، فان فيه صدىً ممَّا كان بينهما من مناظرات لغويَّة، طال فيها النَّفس حتى تصرَّم المئة الماضية، ولا يزال الحديث، في حلقات أهل العربيَّة، يفضي إلى ذكرها، في الأحايين، ويدور على طُرفها،

وطلاواتها . وذلك انَّ الشيخ اليازجيّ انتقد مواضع من « الدرَّة اليتيمة » تأليف ابن المقفَّع ، وقد صحَّحه ، ونشره بالطَّبع ، الأمير شكيب . فردَّ الأمير على الشيخ ، لما رأى من تبعة يطالب هو بها ، عند الاعتراض على كلام طبع تحت ملاحظته ، وجاوبه الشيخ (انظر البيان) . ثمَّ انتقد « عذراء الهند » لشوقي (انظر البيان) ، فقابله الأمير بردٍ عن صاحبه (انظرْ شوقي أو صداقة أربعين سنة) ، ثمَّ ردَّ الشيخ (انظر البيان) ، ثمَّ ردَّ الأمير (انظرْ شوقي أو صداقة أربعين سنة) .

وممَّا تجب ملاحظته انه في كلِّ هذه المناظرات اليازجيَّة ، والأرسلانيَّة ، والشرتونيَّة ، لم يخرج الأمر إلى صدمات القول . فلم يشحذ واحدهم لسانه على صاحبه ، ولا أطلقه بالوقيعة فيه ـ اللهمَّ إلاَّ فلتات قليلة ، يجيئها العذر من حدَّة تُبعث في المناظرة ، أو قلب يُستطار . وهي تكاد لا تُذكر بازاء ما كان يقع في الكثير من مناظرات علمائنا في أثناء القرن الماضي ، ممَّا قد أصبحنا معه ، ونحن لا نعرف كيف يسحُ الغمام الواحد ، من أعلى جوٍّ في البيان ، بالرقيق الصافي ، والكثيف الكدر !!

ويا بُعد ما بين هذه الجملة ، مثلاً ، وهي من كلام للشيخ الشِّدياق في بعض ردوده على الشيخ ابراهيم اليازجيّ في « مناظرة الفطحل » الشهيرة ، ننقلها بلفظها من « سلوان الشجيّ في الردِّ على ابراهيم اليازجيّ » ، المنسوب إلى « مخايل أفندي عبد السيِّد المصري معلم اللُّغة الإنكليزية بمدرسة الأميركان بالقاهرة » ، قال (ص 5) : « أمَّا ترجمة ابراهيم اليازجي فهو صاحب السفاهة الكبرى ، والقذف والافترا . لم تكد عبارة له تخلو من التعقيد ، والتطاول والتشديد .

وقد بلغني ممَّن يوثق بكلامه انَّه من أهل الأسواق ، وأولاد الزُّقاق . وانَّه حاول أن يدخل أحد المكاتب ليتعلَّم فيه بعض العلوم الابتدائيَّة . وحيث كان خامل القدر ، منسيَّ الذكر ، أراد أن يحصل على شهرة بتخطئة صاحب الجوائب فحصَّل ما اراد ، وان كان على طريق الفساد . لأنَّنا قبل وقاحته هذه لم يكن لنا علم بوجوده بين الأحياء » ، نقول : يا بُعد ما بين هذا وما قاله الشيخ اليازجيّ في ردّ له على الأمير شكيب في مناظرة « الدرَّة اليتيمة » ، وهو ما حرفه (البيان : 227) : « قلنا انَّا ليعزّ علينا أن نرى ما نشرناه من النَّقد على هذه الرِّسالة قد ساء أكرم صديق علينا ، وأعظمهم حرمةً عندنا » إلى أن يقول (ص 227 و 228) : « وفي مأمولنا أن لا يتمثَّل له قولنا صادراً من جانب القلب ، ولا يبرز له في غير لونه من الإخلاص . ومعاذ الله أن يكون مثل هذا ممَّا يصل إلى مكان الذمَّة فيفسدها ، بل الذي نتيقَّنه انَّا وإيَّاه أعوان في نصرة الحقيقة حيث كانت ، شركاء في الذود عن حياض العلم ، ولو بالأخذ له من أنفسنا » إلى أن يقول (ص 235) : « وهنا نمسك عن استتمام الجواب على بقيَّة ما جاء من كلامه في هذا الموضع ، مخافة أن تندر من القلم رشاشة يقع سوادها في بياض ما بيننا من الذمَّة » .

بل ما أبعد كلام الشيخ الشّدياق ممَّا قاله الأمير شكيب في ردّ له على الشيخ اليازجيّ في مناظرة « عذراء الهند » ، وهذا حرفه (شوقي أو صداقة أربعين سنة : 58) : « أُجلُّ العلماء عن أن يقال : ليس لهم صداقة ، وانَّما يقال : ليس لهم صداقة على العلم ، ولا مشايعة على الحكمة ، ولا تسامح في الحقائق ، وانَّهم لا يرعون في الحقّ خليلاً ، ولا يرضون من أمانة العلم بدلاً قليلاً » إلى أن يقول : « ولذلك لا ينبغي أن يُحمل انتقاد البيان رواية عذراء الهند ، للشاعر المفلق أحمد

بك شوقي ، إلاّ محمل البحث الأدبي الصّرف ، وأن لا يُحسب إلاّ من قبيل توفية النّقد حقّه ، والقيام بواجب الخدمة العلميّة . ونعم الغرض هذا ، وحبّذا القصد » إلى أن يقول (58 و 59) : « فان كنتُ أصبتُ المرمى في بعض ما رأيتُ ، فقد تُصاب الرّمايا ، ولو لم تستدّ السّواعد ، وإن كنتُ واقعاً في الوهم ، وظهر الحقّ في جانب سواي ، فليس بثقيل الإقرار لمثل شوقي بك ، وليس بمغلوب من غلبه الشيخ » !

بل ما أبعده ممّا قاله المعلم الشرتونيّ في ردّ له على الشيخ اليازجيّ في مناظرة « لغة الجرائد » ، وهذه عبارته (المشرق 2: 609) : « والحقّ يقال انّها ـ يريد الضياء ـ نبّهت في مقالتها التي عنوانها لغة الجرائد إلى كثير من الأغلاط الفاشية ، فحقّ لها الشّكر على هذه الخدمة المقصود بها صيانة الأقلام عن شوائب الخطإ . إلاّ انّنا خطرت لنا بعض ملاحظات ، فوددنا إبداءها لرصيفتنا المشار اليها » ، إلى آخر ما تجده مستفيضاً في مناظرات هذه الطبقة ، أيام خرجوا من زمن ، ودخلوا في آخر .

ويطيب ، هنا ، أن نورد هذين البيتين للأمير شكيب ، من قصيدته في تأبين الشيخ ابراهيم اليازجيّ ، وهما في باب خشوع الضمير ، وارتفاع الحقد في حادث الموت ، من أعلى الكلام . قال مخاطباً مناظره القديم (ديوان الأمير شكيب أرسلان : 60) :

إليك حقّك ، لا ظلم ، ولا سرف
لا يُنكر الشّمس إلاّ فاقد البصرِ

وإنْ يؤاخذك نقَّاد ببادرةٍ
فليس يُرجم إلاَّ مثمر الشَّجر

وقد جرى الأمير شكيب في ذلك على الخصلة الكريمة الَّتي جرى عليها صديقه الشيخ الشرتونيّ من قبل، في تأبينه للشيخ الشّدياق، وإيتائه تمام حقّه من التأبين، على ما كان بينهما من وحشة، وقطيعة. فانَّه لما وضع الشيخ الشرتوني كتابه «السَّهم الصائب في تخطئة غنية الطالب» مبِّهاً فيه على أشياء من «غنية الطالب ومنية الرَّاغب» الَّذي مرَّت الإشارة إليه، قامت قيامة الشّدياق في «الجوائب» على الشرتونيِّ، وسلقه بمقالات طنَّانة، لم يوفِّر له فيها شيئاً. فإنَّ الشّدياق، كما لا يخفى، كان إذا نبذ، نبذ على سواء! ثم ألَّب عليه جماعة من أنصار «الجوائب»، من العلماء، فقالوا فيه، وأغلظوا. ومن ذلك «ردُّ الشهم للسَّهم» للشيخ يوسف الأسير، وقد افتتحه بقوله، بعد التحميدة (ص 2 و 3): «رأيتُ في هذه السنة إعلاناً في جريدة التقدُّم يشتمل على الإعلام بظهور كتاب جليل يرتاح إليه اللَّبيب، ولا يستغني عنه الأديب، يُنسب إلى رجل من شرتون، قرية من لبنان، يُسمَّى سعيداً الخوري. وذلك الكتاب: السَّهم الصائب في تخطئة غنية الطالب، لمحرِّر الجوائب. ولقد أطال فيه التَّنويه، ومن يسمع يخل. فتركت المغالطة، وقلت: ربَّما يكون مؤذِّن فصيح من مالطة! فتاقت نفسي لذلك الكتاب، ولمَّا طالعتُه قضيتُ من ذلك العجب العجاب، ورأيت ما قيل فيه، من أقبح التَّمويه. وانَّ ذلك السَّهم جاء طائشاً، وصاحبه قد هام في تيه الأوهام هياماً فاحشاً. ولم يشعر انَّه جاء من شرتون، فوقع في شرِّ أتُّون» إلى أن يقول: «وافتخاره بالعلوم كافتخار الزُّنوج السود بسبط الشعر وبياض

الخدود . وقد خبط في تلك الخطبة خبط عشواء ، ومزج في ديباجته المدبَّجة بقلَّة الحياء ، وأطال فيها بلا طائل ، وتطاول على من ليس لفضله بنائل » .

ومن ذلك ، أيضاً ، « ردُّ السَّهم عن التصويب وإبعاده عن مرمى الصواب بالتقريب » ، للشيخ ابراهيم الأحدب ، وقد جاء في أوّله (ص 3) : « وقفتُ على إعلان في إحدى الجرائد البيروتيَّة ، نشر به قائله ما يخبث في السَّمع ، وتقبح به الطويَّة . يتضمَّن إحداث كتاب بإسهال الزمان ، ولين طبع من نُسب إليه حيث انقاد إلى التأليف بدون عنان » إلى أن يقول (ص 4) : « وأقرَّ بمعارفه ـ يريد معارف الشيخ الشّدياق ـ أفاضل مصر ، وهم به عارفون ، وإن جحد ذلك نكرةٌ لا تطيب بالتَّعريف لخبث النَّشر من شرتون » إلى أن يقول : « واعترض ـ يريد الشيخ الشرتونيّ ـ بطول كلامه في عرض المسائل ، متجاوزاً رسم الأدب بلا حدّ . مركِّباً لاعتراضاته بالتّلفيق من غير معرفة التجنيس ، فجاء به مقلوباً ، كما يُفعل بالجاني بعد التجريس » . وختم الشيخ الأحدب كتابه بالميميَّة المعروفة (يا ابن شرتون : متى حزت مقاما !) .

فلمّا قضى الشيخ الشّدياق أجله ، لم يكن كلُّ اولئك ليمنع الشيخ الشرتونيّ أن يؤبّنه بقصيدة فضفاضة ، قال فيها (تأريخ الصحافة العربيَّة 1 : 63) :

قد كان يلعب بالعقول بيانه
لعب المدامة بالنزيف الشارب

ليس الجدال بمانعي عن حقّه

وأرى رثاه اليوم ضربة لازبِ

وهذا في أدب النّفس أمد بعيد ، لا يوفّق له إلاّ من كان ، كما قال الزمخشريُّ في « الكشّاف » ، ممّن « رَجَع زماناً ورُجع إليه ، ورَدّ ورُدّ عليه » !

الفصل التاسع

« كلمة الختام »

هذه ذكرى بما كان من الحركة اللُّغويَّة في لبنان ، في الصَّدر الأوَّل من القرن العشرين . وقد قصرنا فيها الكلام على العلماء الذين مضوا لسبيلهم ـ رحمهم الله ، ولم نجاوزه إلى الذين يضاعفون الآن سالف إحسانهم ، وذلك لما يحجز حجاب المعاصرة عن ابداء الرأي في قدماتهم ـ حفظهم الله .

ولقد كان غرضنا فيها غرض المختصر ، فأجملنا أشياء ، وحذفنا أشياء ، وبقي علينا كلام كثير . إلاَّ أنَّها ، على كلِّ حال ، تدلُّ أهل زماننا ، في لبنان ، على ما قدَّمه ، بين أيديهم ، علماء العربيَّة فيه ، يومئذٍ ، من منن على لسان العرب . وعسى أن تبعث الأبناء ، فيجدِّدوا قديم آبائهم ، أو يدعوا بالخير لهم ، سقى الله عهدهم !

ملحق

عصر الطاء

وهو القسم السادس من الفصل الرابع من « ذات العماد » (124-127 ، طبعة [منشورات مطبعة دار الكتب في بيروت] في سنة 1957)(*) .

فيقول ، وقد ذكرتَ في سرِّك « محيط المحيط » ، وتفطَّن هو لوقوع هذين الطَّاءَين في اسم الكتاب : «سقى الله أيَّامكم ، أهل لبنان ، بالطَّاء في الدُّنيا » ! . فتقول: « وما أيَّامنا بالطَّاء ، هذه » ؟ . فيقول: « يوم أدرك الناس طبقة منكم ، كانوا ، هم ، أرباب النُّهايات في كلِّ فنّ . وكأنهم اقتطعوا حرف الطَّاء ، وصار لهم ! فمحيط محيط ، وقطر محيط ، وقمطرة طوامير ، وطرب مسامع ، ومصباح طالب ، وعرف طيِّب ، وطراز معلم ، وشرح طراز ، وطوق حمامة ، ولمحة طرف ، وفصل خطاب ، وقطب صناعة ، ونقطة دائرة ، وواسطة ، وغنية طالب ، وكلٌّ معنى طريف ، ومطالع سعد لمطالع الجوهر الفرد ، ومطالع أضواء ، وغصن رطيب ، وخواطر حسان ، ومدخل طلاَّب ، ومطربات ، وأطوار ، وطبقات أمم ، وتمرين طلاَّب ، وطيب عرف ، وكفاية طالب ، ومعجم طالب ، وطبيب ، ومقتطف ، ومقطَّم ،

(*) راجع الفقرة الثانية من الصفحة الثانية من « المقدمة » (ص 12) .

أيضاً ! ، إلى آخر ما كان لهم من طاءات ، هي نقش المسمَّيات ، وحلية الأسماء . . . »(*) .

(*) « قطر المحيط » (وهو مختصر [محيط المحيط]) للبستاني . و « قمطرة طوامير » (في الجدل والأدب والتأريخ والسياسة) ، و « طرب المسامع في الكلام الجامع » (وهو مختارات حكم لأشهر شعراء العرب) للدحداح . و « مصباح الطالب في بحث المطالب » (وهو شروح على [بحث المطالب] لفرحات) للبستاني الكبير . و « العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب » لليازجيين . و « الطراز المعلم » (أرجوزة في علم البيان) ، و « شرح الطراز المعلم » ، و « طوق الحمامة » (في مبادىء النحو) ، و « لمحة الطرف في أصول الصرف » (أرجوزة مختصرة) ، و « فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب » ، و « قطب الصناعة في أصول المنطق » ، و « نقطة الدائرة » (في علم العروض والقوافي) لليازجي الكبير . و « الواسطة إلى معرفة مالطة » (هذا ما في الطبعة الأولى [سنة 1283 هـ] ، وفي الطبعة الثانية [سنة 1299 هـ] : الواسطة في معرفة أحوال مالطة) ، و « غنية الطالب ومنية الراغب » (في الصرف والنحو وحروف المعاني) ، و « اللفيف في كل معنى طريف » (في الأدب والمترادف والمتوارد) للشدياق . و « مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » لليازجي (وهو شروح على مختصر والده في أصول الصرف والنحو : الجوهر الفرد) . و « مطالع الأضواء في مناهج الكتاب والشعراء » (في الفصاحة) ، و « الغصن الرطيب في فن الخطيب » للشرتوني الكبير . في الخواطر العراب في النحو والإعراب » ، و « الخواطر الحسان في المعاني والبيان » لضومط . و « مدخل الطلاب إلى فردوس لغة الأعراب » (في التصريف والنحو) لتقلا . و « المطربات » (في النوادر الأدبية) ، و « أطوار الانسان في أدوار الزمان » (وهو خواطر أدبية ، بين هزل وجد) لشاكر شقير ، و « طبقات الأمم أو السلائل البشرية » لزيدان . و « تمرين الطلاب في التصريف والإعراب » للشرتوني الصغير . و « طيب العرف في فن الصرف » لسعيد شقير وأفتيموس . و « كفاية الطالب وبغية الراغب » (في النحو) لباخوس . و « معجم الطالب » (وهو معجم لغوي) لهمام . و « الطبيب » هي المجلة التي شارف اليازجي كتابتها من سنة 1884 إلى سنة 1885 .

كتاب المئة

وهي مئة كلمة من كلام سيدنا الإمام علي عليه السلام

اختارها الأديب الكبير الأستاذ أمين بك نخله

الشرح للإمام العلامة الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية رحمه الله

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رغبتُ إلى الأديب الكبير الأستاذ امين بك نخله في ان يختار لي مئة كلمة من كلام سيدنا أمير المؤمنين لموقع كلامه عليه السلام من نفس الأستاذ ولموقع الأستاذ من الأدب ومحله العالي فيه . فلبى حفظه الله الطلب وتلطف بإرسال هذا الكتاب الفريد الذي احلي به الصفحة التالية .

وكان قد سبق للأديب الكبير الاستاذ جبران خليل جبران أن صور سيدنا الإمام صلوات الله عليه في جريدة (السائح) كما تخيله وجاءت الصورة غرة في الفن فصدرت بها الكتاب .

أما شرح الكلمات فلفضيلة العلامة الجليل الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله شارح (نهج البلاغة) وقد تصرف الاستاذ نخله بالشرح على ما يناسب الكلمة المختارة تصرفا يحل الغريب والموجز .

وإني اظن وانا ازف هذا الكتاب للقراء اني قد قمت للغة والأدب والحكمة بخدمة هي جملة جهدي ووسع طوقي فليتقبلها القراء بلطف من عندهم .

توفيق البلاغي

كتاب الاستاذ نخله

حضرة الاديب الشيخ توفيق البلاغي

سألتني أن انتقي مئة كلمة من كلام ابلغ العرب (ابي الحسن) تخرجها في كتاب ، وليس بين يدي الآن من كتب الأدب التي يرجع اليها في مثل هذا الغرض إلا طائفةقليلة، منها انجيل البلاغة (النهج) فرحت اسرح أصبعي فيه . ووالله لا اعرف كيف اصطفي لك المئة من مئات بل الكلمة من كلمات إلا إذا سلخت الياقوتة عن اختها الياقوتة . ولقد فعلت ، ويدي تتقلب على اليواقيت وعيني تغوص في اللمعان فلما حسبتني اخرج من معدن البلاغة بكلمة ، لفرط ما تحيرت في التخير . فخذ هذه المئة وتذكر انها لمحات من نُور وزهرات من نَور ، ففي (نهج البلاغة) من نعم الله على العربية واهلها اكثر بكثير من مئة كلمة !

قال لي مرة الاستاذ العظيم امين الريحاني في حديث لنا عن ترجمة (ابي العلاء) الى الانكليزية :

ـ اما (الإمام) فسيبهر الجماعة (يريد الانكليز) إذا ترجم لهم فقلت : ولكنني اخاف الترجمة ، فستخلع عن معاني صاحبنا هذا الوشي العربي ولا ريب . . . .

فإذا كان ذلك مما يقال في ترجمة كلام الإمام الى لغات الاجنبيين ـ

كتاب الاستاذ نخله

حضرة الاديب الشيخ توفيق البلاغي

سألتني أن انتقي مئة كلمة من كلام ابلغ العرب (ابي الحسن) تخرجها في كتاب ، وليس بين يدي الآن من كتب الأدب التي يرجع اليها في مثل هذا الغرض إلا طائفةقليلة، منها انجيل البلاغة (النهج) فرحت اسرح أصبعي فيه . ووالله لا اعرف كيف اصطفي لك المئة من مئات بل الكلمة من كلمات إلا إذا سلخت الياقوتة عن اختها الياقوتة . ولقد فعلت ، ويدي تتقلب على اليواقيت وعيني تغوص في اللمعان فما حسبتني اخرج من معدن البلاغة بكلمة ، لفرط ما تحيرت في التخير . فخذ هذه المئة وتذكر انها لمحات من نُور وزهرات من نَور ، ففي (نهج البلاغة) من نعم الله على العربية واهلها اكثر بكثير من مئة كلمة !

قال لي مرة الاستاذ العظيم امين الريحاني في حديث لنا عن ترجمة (ابي العلاء) الى الانكليزية :

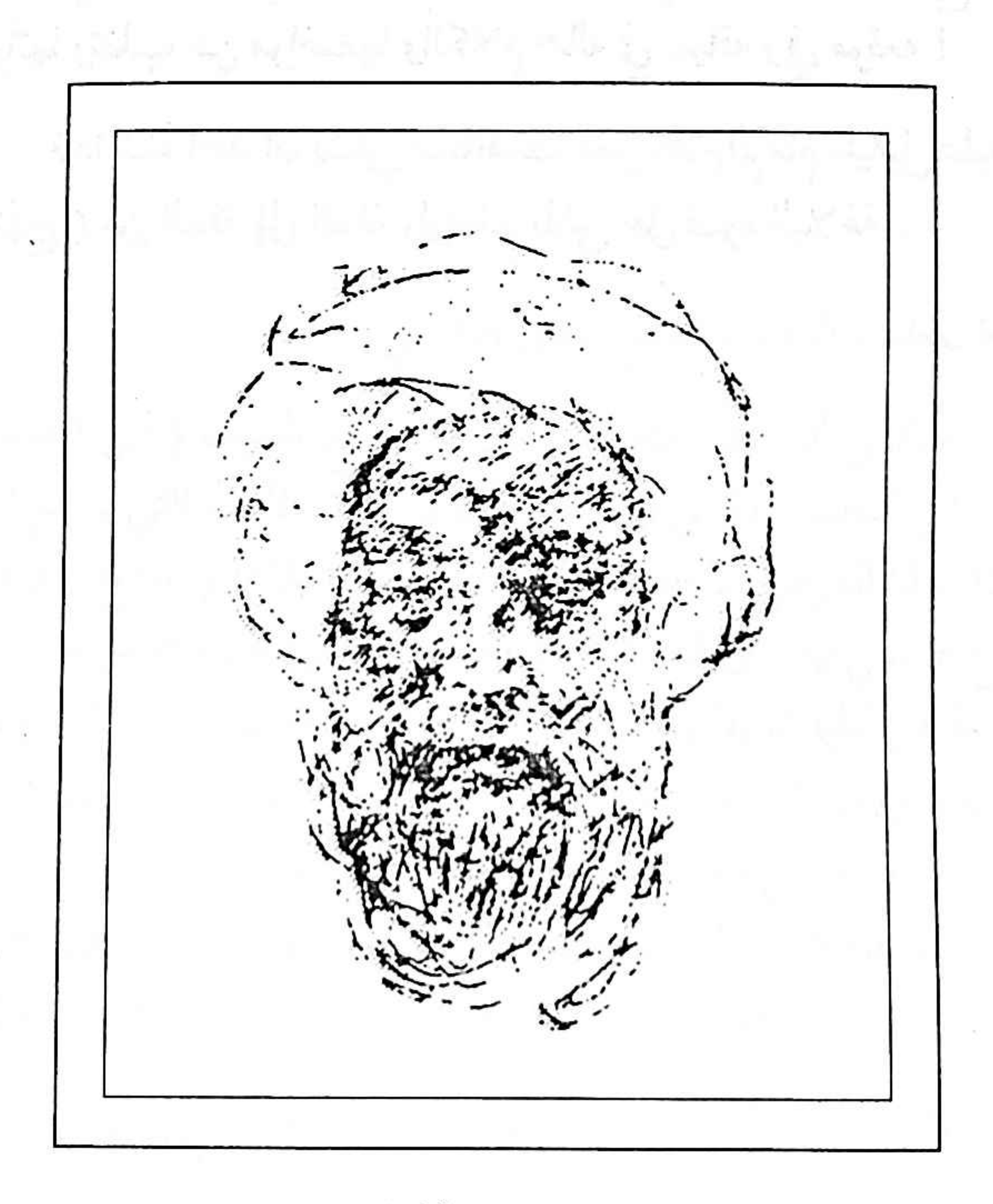
- اما (الإمام) فسيبهر الجماعة (يريد الانكليز) إذا ترجم لهم فقلت : ولكنني اخاف الترجمة ، فستخلع عن معاني صاحبنا هذا الوشي العربي ولا ريب . . . .

فإذا كان ذلك مما يقال في ترجمة كلام الإمام الى لغات الاجنبيين -

والريحاني هو المتصدي للترجمة ـ فكيف يقال في مئة كلمة تنزع عن اخواتها وتقلب عن مواضعها والكلام جماله في سياقه وفي موقعه !

فإذا شاء احد ان يشفي صبابة نفسه من كلام الإمام فليقبل عليه في (النهج) من الدفة إلى الدفة وليتعلم المشي على ضوء البلاغة .

امين نخله



صاحب (نهج البلاغة)
بريشة الاديب الكبير الاستاذ جبران خليل جبران

حاشية الاستاذ جبران على الصورة

... في عقيدتي ان ابن ابي طالب كان اول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها . وهو اول عربي تناولت شفتاه صدى اغانيها فرددها على مسمع قوم لم يسمعوا مثلها من ذي قبل فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم ، فمن اعجب بها كان اعجابه موثوقاً بالفطرة ، ومن خاصمه كان من ابناء الجاهلية .

مات علي بن ابي طالب شهيد عظمته . مات والصلاة بين شفتيه . مات وفي قلبه الشوق الى ربه . ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتى قام من جيرانهم الفرس اناس يدركون الفارق بين الجواهر والحصى .

مات قبل ان يبلغ العالم رسالته كاملة وافية . غير انني اتمثله مبتسماً قبل ان يغمض عينيه عن هذه الارض . مات شأن جميع الانبياء الباصرين الذين يأتون الى بلد ليس ببلدهم والى قوم ليس بقومهم ، في زمن ليس بزمنهم ، ولكن لربك شأناً في ذلك وهو اعلم !

جبران خليل جبران

المئة كلمة

الكلام

الكلام كالشاردة ينقفها هذا ويخطئها هذا
نقفه ضربه - اي يصيبها واحد فيصيدها ويخطئها الآخر فتنفلت منه

القلوب

ان هذه القلوب تمل كما تمل الابدان فابتغوا لها طرائف الحكم
طرائف الحكم غرائبها لتنبسط اليها القلوب كما تنبسط الابدان

بين الباطل والحق

اما انه ليس بين الباطل والحق الا اربع اصابع
قال الشريف الرضي : فسئل عن معنى قوله عليه السلام هذا
فجمع اصابعه ووضع بين اذنه وعينه ثم قال - الباطل
ان تقول سمعت والحق ان تقول رأيت

العلم

قطع العلم عذر المتعللين

ماء الوجه

ماء وجهك جامد يقطره السؤ ال فانظر عند من تقطره

صفة الدنيا

تغر وتضر وتمر

الحلم

الحلم عشيرة
يجمع اليك من معاونة الناس لك ما يجتمع لك بالعشيرة لأنه
يوليك محبة الناس فكأنه عشيرة

المزاح والعقل

ما مزح امرؤ مزحة إلا مج من عقله مجة
المزح وهو المضاحكة بقول او فعل واغلبه لا يخلو من سخرية ، ومج الماء
من فيه رماه . وكأن المازح يرمي بعقله ويقذف به في مطارح الضياع

العدل والجور

ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق
اي ان من عجز عن تدبير امره بالعدل فهو عن التدبير
بالجور اشد عجزا

مخاصمة الحق

من ابدى صفحته للحق **هلك**

اى من كاشف الحق مخاصما له مصارحا له بالعداوة هلك

في المواصلة

من يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه ايد كثيرة

تمام العدل

الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه

الشبهة والحق

وانما سميت الشبهة لأنها تشبه الحق

التوأم

ان الوفاء توأم الصدق

التوأم الذي يولد مع الآخر في حمل واحد فالصدق والوفاء قرينان في المنشأ لا يسبق احدهما الاخر في الوجود ولا في المنزلة

الدنيا

احذركم الدنيا فهي حلوة خضرة

منتهى بصر الاعمى

وإنما الدنيا منتهى بصر الاعمى
يشير الى ان من يقصر نظره على الدنيا فكأنه لم يبصر شيئا
فهو بمنزلة الاعمى

هم البهائم

ان البهائم همها بطونها

قلب المنافق

قلب المنافق من وراء لسانه
يعني اذا قال المنافق شيئا اخطره على قلبه حتى لا ينساه
فيناقضه مرة اخرى فيكون قلبه تابعا للسانه

النار والجلد الرقيق

واعلموا انه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار فارحموا نفوسكم فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا .

البضعة

اللسان بضعة (بفتح الباء) من الإنسان
اي ان اللسان آلة تحركها سلطة النفس

يوما الدهر

الدهر يومان يوم لك ويوم عليك

الرضا

نعم القرين الرضى

قبر العيوب

الاحتمال قبر العيوب

حبالة المودة

البشاشة حبالة المودة

الاقارب والأباعد

من ضيعه الاقرب اتيح له الابعد
اتيح له قدر له وكم من شخص اضاعه اقاربه
فقدر اللّه له من الأباعد من يحفظه

النسب

من ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه

الاحتمال

امش بدائك ما مشى بك
اي ما دام الداء سهل الاحتمال يمكنك معه العمل في شؤ ونك
فاعمل فإن اعياك فاسترح له

الخير والشر

فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه

الروية

قلب الاحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه

قال الشريف الرضي : والمراد به ان العاقل لا يطلق لسانه الا بعد مشاورة الرويّة ومؤآمرة الفكرة

جوع الكريم وشبع اللئيم

احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع

السخاء الحق

السخاء ما كان ابتداء ، فأما ما كان عن مسألة فحياء وتذمم

التذمم الفرار من الذم .

القلوب ايضا

قلوب الرجال وحشية فمن تألفها اقبلت عليه

الصبر

الصبر صبران صبر على ما تكره وصبر عما تحب

اللسان

اللسان سبع ان خلي عنه عقر

الطلب

فوت الحاجة اهون من طلبها الى غير اهلها

صفة الجاهل

لا ترى الجاهل الا مفرطا او مفرِّطاً

قلة الكلام

إذا تم العقل نقص الكلام

اشتباه الأمور

ان الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها بأولها
اي يقاس آخرها على اولها فعلى حسب البدايات تكون النهايات

من أجوبته

قال الشريف الرضي : قال (ع) لرجل افرط في الثناء عليه وكان له متهما
انا دون ما تقول وفوق ما في نفسك

بقية السيف

بقية السيف ابقى عددا واكثر ولدا
بقية السيف هم الذين يبقون بعد الذين قتلوا في حفظ شرفهم ودفع الضيم عنهم وفضلوا الموت على الذل فيكون الباقون شرفاء نجداء فعددهم ابقى وولدهم يكون اكثر بخلاف الاذلاء فإن مصيرهم إلى المحو والفناء

ادعاء العلم

من ترك قول لا ادري أصيبت مقاتله

مواضع قتله لأن من قال ما لا يعلم عرف بالجهل ومن عرفه الناس بالجهل مقتوه فحرم خيره كله فهلك

اوضع العلم

اوضع العلم ما وقف على اللسان
اوضع العلم اي أدناه ما وقف على اللسان ولم يظهر أثره في الاخلاق والاعمال

الازار الخلق

قال الشريف الرضي : رؤي عليه ازار خلق مرقوع فقيل له في ذلك فقال :

يخشع له القلب وتذل به النفس ويقتدي به المؤمنون

الفرص

اضاعة الفرصة غصة

جهاد المرأة

جهاد المرأة حسن التبعل
التبعل اطاعة الزوج

الاقتصاد

ما اعال من اقتصد

من اقتصد اي انفق في غير اسراف فلا يعول على وزن يكرم اي لا يفتقر « وفي نسخة عال بلاهمز ومعناه ما جار عن الحق من اخذ بالاقتصاد »

قلة العيال

قلة العيال احد اليسارين

نصف الهرم

الهم نصف الهرم

اللسان ايضاً

المرء مخبوء تحت لسانه

اوتاد الذمم

اعتصموا بالذمم في اوتادها

تحصنوا بالذمم اي العهود واعقدوها باوتادها اي الرجال اهل النجـدة الذين يوفون بها

المشورة

من شاور الرجال شاركها في عقولها

الإعجاب

الإعجاب يمنع من الازدياد

من اعجب بنفسه وثق بكمالها فلم يطلب لها الزيادة في الكمال فلا يزيد بل ينقص

الإفراط

كم من اكلة منعت اكلات

التعصب للقديم

الناس اعداء ما جهلوا

شدة التوقي

إذا هبت امرا فقع فيه فإن شدة توقيه اعظم مما تخاف منه فإن ألم الخوف منه اشد من مصيبة الوقوع فيه

آلة الرئاسة

آلة الرئاسة سعة الصدر

البادي اظلم

للظالم البادي غدا بكفه عضة

الحق واحد

ما اختلفت دعوتان الا كانت احداهما ضلالة

مكافأة المحسن

ازجر المسيء بثواب المحسن

إذا كافأت المحسن على إحسانه اقلع المسيء عن اساءته طلباً للمكافأة

اللجاجة

اللجاجة تسل الرأي

اللجاجة شدة الخصام تعصباً لا للحق وهي تسل الرأي اي تذهب به

المال الواعظ

لم يذهب من مالك ما وعظك

شفاء الغيظ

متى اشفي غيظي إذا غضبت . احين اعجز عن الانتقام فيقال لي لو صبرت ام حين اقدر عليه فيقال لي لو عفوت

حق في باطل

كلمة حق يراد بها باطل

قال الشريف الرضي : قالها لما سمع قول الخوارج (لا حكم الا لله) فانهم قصدوا بها الاحتجاج على خروجهم من طاعة الخليفة

صفة الغوغاء

هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا

الغوغاء بغينين معجمتين اوباش الناس

عوض الحليم

اول عوض الحليم من حلمه ان الناس انصاره على الجاهل

اللين

من لان عوده كثفت اغصانه

يريد كثرة الآثار التي تصدر عنه كأنها فروعه اويريد بها كثرة الاعوان

أحد حساد العقل

عجب المرء بنفسه احد حساد عقله

فكأن العجب حاسد يحول بين العقل ونعمة الكمال

سقم المودة

حسد الصديق من سقم المودة

اول الصداقة انصراف النظر عن رؤية التفاوت

الظن

ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن

ساد من جاد

من نال استطال

نال اي اعطى يقال نلته على وزن قلته اعطيته

ثوب الحياء

من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه

الحجر الغصيب

الحجر الغصيب في الدار رهنٌ على خرابها

قال الشريف الرضي - ويروى هذا الكلام عن النبي (ص) ولا عجب أن يشتبه الكلامان لأن مستقاهما من قليب ومفرغهما من ذنوب

الغصيب أي ان الاغتصاب قاض بالخراب كما يقتضي الرهن بأداء الدين المرهون عليه

القليب بفتح فكسر البئر والذنوب بفتح فضم الدلو الكبيرة

صفة العاقل

قال الشريف الرضي : قيل له (ع) صف لنا العاقل فقال : هو الذي يضع الشيء مواضعه . فقيل : فصف لنا الجاهل فقال : قد فعلت

تشابه المعاني

إذا ازدحم الجواب خفي الصواب

تصديق الظنون

من ظن بك خيرا فصدق ظنه
بعمل الخير الذي ظنه بك

الحدّة

الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم

في صفة أخ له

كان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه

القدر

طريق مظلم فلا تسلكوه . وبحر عميق فلا تلجوه . وسر اللّه فلا تتكلفوه

لطف الجواب

قال الشريف الرضي : سئل (ع) عن مسافة ما بين المشرق والمغرب فقال :
مسيرة يوم للشمس

الأصدقاء والاعداء

أصدقاؤك ثلاثة واعداؤك ثلاثة . فأصدقاؤك : صديقك وصديق صديقك وعدو عدوك . واعداؤك : عدوك وعدو صديقك وصديق عدوك

الرسول

رسولك ترجمان عقلك

أبناء الدنيا

الناس ابناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب امه

الغيور

ما زنى غيور قط

سلب الاموال

ينام الرجل على الشكل ولا ينام على الحرب (بفتح الراء)

قال الشريف الرضي : ومعنى ذلك انه يصبر على قتل الاولاد ولا يصبر على سلب الاموال

العمل

الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر

العلم المطبوع والعلم المسموع

العلم علمان : مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع مطبوع العلم ما رسخ في النفس وظهر اثره في اعمالها، ومسموعه: منقوله ومحفوظه . والاول هو العلم حقا

زينة الفقر

العفاف زينة الفقر

علامات الظالم

للظالم من الرجال ثلاث علامات : يظلم من فوقه بالمعصية ومن دونه بالغلبة ويظاهر القوم الظلمة

معصية اوامره ونواهيه او خروجه عليه ورفضه لسلطته وذلك ظلم لانه عدوان على الحق والغلبة القهر ويظاهر اي يعاون والظلمة جمع ظالم

الرزق والأجل

قال الشريف الرضي : قيل له (ع) لو سدّ على رجل باب بيته وترك فيه من اين كان يأتيه رزقه

فقال : من حيث يأتيه اجله

الكلام أيضا

الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به فإذا تكلمت به صرت في وثاقه

مصارعة الحق

من صارع الحق صرعه

مصحف البصر

القلب مصحف البصر

أي ما يتناولة البصر يحفظ في القلب كأنه يكتب فيه

تيه الفقراء

ما احسن تواضع الاغنياء للفقراء طلبا لما عند الله واحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله

ظاهر المرء

أُخْبُرْ تَقْلِهْ

قال الشريف الرضي : ومن الناس من يروي هذا للرسول (ص) ومما يقوي انه من كلام امير المؤمنين (ع) ما حكاه ثعلب عن ابن الاعرابي . قال المأمون . لولا ان عليا قال (اخبر تقله) لقلت : (أَقْلُهُ تخبره) ـ بضم الباء ـ انتهى كلام الشريف الرضي

اخبر ـ بضم الباء امر من خبرته اي علمته وتقله مضارع مجزوم بعد الامر وهاؤه للوقف من قلاه يقليه بمعنى ابغضه اي : إذا اعجبك ظاهر الشخص فاختبره فربما وجدت فيه ما لا يسرك فتبغضه .

ووجه ما اختاره المأمون ان المحبة ستر للعيوب فإذا ابغضت شخصا امكنك ان تعلم حاله كما هو

وجوب التوثق

إذا كان في رجل خَلَّةٌ رائقة فانتظروا اخواتها

الخلة بالفتح الخصلة اي إذا اعجبك خلق من شخص فلا تعجل بالركون اليه وانتظر سائر الخلال .

الولاية

الولايات مضامير الرجال

المضامير جمع مضمار وهو المكان الذي تضمر فيه الخيل للسباق والولايات أشبه بالمضامير إذ يتبين فيها الجواد

طالب العلم وطالب الدنيا

منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا
المنهوم المفرط في الشهوة واصله في شهوة الطعام

الغيبة

الغيبة جهد العاجز

الغيبة ـ بالكسر ـ ذكر الآخر بما يكره وهو غائب وهي سلاح العاجز ينتقم به من عدوه وهي جهده اي غاية ما يمكنه

شر الاخوان

شر الاخوان من تكلف له (بضم التاء والكاف)
قال الشريف الرضي : لان التكليف مستلزم للمشقة وهو شر لازم عن الاخ المتكلف له فهو شر الاخوان

بين الرجال والنساء

خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل .
فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها . واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها . وإذا كانت جبانه فرقت من كل شيء يعرض لها فرقت اي فزعت

كتاب الدقائق

مخخة المتون

« قال الإمام الزمخشريّ : الزَّيت مُخُّ
الزيتون ، والحواشي مَخخَة المتون » .

النّسبة الى ذات = لا يُقال في النِّسبة الى ذات : (ذاتيٌّ) ، وانّما يُقال : (ذَوَوِيٌّ) - ذُكر في (سرّ الفصاحة) .

العَرْبانيُّ = إن كان الرجل يتكلّم بالعربيّة ، وهو من العجم ، قلتَ : (عَرْبانِيٌّ) ، عن الفرّاء - ذُكر في (ألف با) . وفي (التّوشيح) : « كان عَرْبانيًّا ، أي عارفاً بلسان العرب » .

المتوفيٍّ والمتوفّى = انتَ في فتح الفاء وكسرها ، في قولك : (فلان المتوفّ) بالخيار . والكسر موجّه بالمستوفى لمدّة حياته ، ويشهد له ما في الآية : (والّذين يتوفون منكم) ، على القراءة (العَلَوِيّة) في فتح الياء ، أي يستوفون آجالهم - ذُكر في (الإعلان بالتّوبيخ)(*) .

الابتداء بقَدْ = ليس من الوجه الابتداء بقَدْ ، الاّ ان تكون جواباً لمتوقّع - ذُكر في (الصاحبيّ) .

ذو وصاحب = اشتُرط في (ذو) أن يكون المضاف أشرف من

(*) مما نشر العلاّمة تيمور من مضامين (الإعلان بالتوبيخ) في « الآثار » : (2 [1912] : 8) .

المضاف اليه ، بخلاف (صاحب) . يقال : (ذو العرش) ، ولا يقال : (صاحب العرش) . ويقال : (صاحب الشيء) ، ولا يقال : (ذو الشيء) - ذُكر في (الكلّيات) .

ذات للتّزيين = (ذات) في نحو قولك : (خرجتُ ذات يوم) زائدة ، للتّزيين - ذُكر في (الكشّاف) .

جمع أسير = الأسير جمعه : (أسْرى) في المشهور ، لأنه يدلّ على بليَّة ، وقلّ أُسارى ، أو (أَسارى) وندر أُسراء - ذُكر في (أساليب العرب) .

كتابة لَدَى = ذكر (نصر) انه رأى في حاشية شيخه الجمزوريّ على (التحفة) تفصيلاً في لدى ، وهو انها تُكتب بالياء ان كانت بمعنى (في) ، وتُكتب بالألف إن كانت بمعنى عند . الى أن يقول : « وقرّره كذلك في درسه ، ولم أجد هذا التفصيل لغيره فيما اطّلعتُ عليه من كتب الفنّ ، مع انهم قالوا انَّ لدى متضمِّنة لمعنى عند » - ذُكر في (المَطالع) .

النِّسبة الى ما كان آخره همزة = ينسبون الى ما كان آخره همزة ، مثل الياء والفاء ، فيقولون ، مثلاً : (القصيدة الياويَّة) و (القصيدة الفاويَّة) - ذُكر في (ألف با) .

فصاحة بارك الله عليك = قولك : (بارك الله عليك) أحسن من قولك : (بارك الله فيك) ، لأنَ العرب غلَّبت استعمال (في) اذا قُصِدَ أن يُردَّ السائل ردًّا لطيفاً - ذُكر في (أساليب العرب) .

المضاف اليه ، بخلاف (صاحب) . يقال : (ذو العرش) ، ولا يقال : (صاحب العرش) . ويقال : (صاحب الشيء) ، ولا يقال : (ذو الشيء) ـ ذُكر في (الكلّيّات) .

ذات للتّزيين = (ذات) في نحو قولك : (خرجتُ ذات يوم) زائدة ، للتّزيين ـ ذُكر في (الكشّاف) .

جمع أسير = الأسير جمعه : (أسْرى) في المشهور ، لأنه يدلّ على بليّة ، وقلّ أُسارى ، أو (أَسارى) وندر أُسراء ـ ذُكر في (أساليب العرب) .

كتابة لَدَى = ذكر (نصر) انه رأى في حاشية شيخه الجمزوريّ على (التحفة) تفصيلاً في لدى ، وهو انها تُكتب بالياء ان كانت بمعنى (في) ، وتُكتب بالألف إن كانت بمعنى عند . الى أن يقول : « وقرّره كذلك في درسه ، ولم أجد هذا التفصيل لغيره فيما اطّلعتُ عليه من كتب الفنّ ، مع انهم قالوا انّ لدى متضمّنة لمعنى عند » ـ ذُكر في (المَطالع) .

النّسبة الى ما كان آخره همزة = ينسبون الى ما كان آخره همزة ، مثل الياء والفاء ، فيقولون ، مثلاً : (القصيدة الياويّة) و (القصيدة الفاويّة) ـ ذُكر في (ألف با) .

فصاحة بارك الله عليك = قولك : (بارك الله عليك) أَحسن من قولك : (بارك الله فيك) ، لأنَ العرب غلّبت استعمال (في) اذا قُصِدَ أن يُردَّ السائل ردًّا لطيفاً ـ ذُكر في (أساليب العرب) .

إدخال الباء على دون = تكون (دون) ظرفاً ، وتكون اسماً ، والإسم يُجَرُّ بالباء . وقد أجاز (الأخفش) ذلك .

جمع تلميذ = التِّلميذ يُجمع على تلاميذ . فانَّ فِعليلاً يُجمع على فعاليل (قناديل وأباريق ومناديل) . وأمّا قولهم في جمعه تلامذة ، فعلى توهُّم انه اسم اعجميّ ، فانّ الهاء في الجمع تكون في أحد ثلاثة مواضع ، احدها الاسم الأعجميُّ المعرَّب . وفي (كتاب النَّبات) لأبي حنيفة الدينوريّ ، بعد ان ساق شعراً للبيد بن ربيعة العامري الصحابيّ ، فيه كلمة تلاميذ : « التَّلاميذ : غلمان الصنّاع » - ذكره البغداديّ ، صاحب (الخزانة) ، في (رسالة في معنى التِّلميذ)[*] .

فضلاً عن كذا (بمعنى زيادة عن كذا) = (فضلاً) مصدر يقع بعد نفي صريح ، أو بعد نفي ضمنيّ . ولكن صاحب (المصباح) يقول : « وأكثرُ استعماله أن يجيء بعد نفي » . وهذا صريح بأنه قد يقع أيضاً بعد إيجاب . تقول ، مثلاً : (فلان مجيد في نظم الشعر فضلاً عن إجادته في الكتابة) .

المعرفة والعلم = المعرفة هي حصول العلم بعد أن لم يكن ، ولهذا لا يقال : (الله عارفٌ) بل (عالمٌ) - ذُكر في (حاشية أبي النَّجاء) .

تقديم الكنْية على الاسم والاسم على اللّقب = المشهور في كلام العرب تقديم الكنية على الاسم والاسم على اللّقب ، فيقال : « أبو حفص عمر الفاروق » - ذُكر في (لسان الغصن) .

قدْ الحرفيّة في القسَم = قدْ الحرفيّة مختصّة بالفعل ، وهي معه

(*) نشرها العلاّمة تيمور في (الآثار) : (2 [1912] : 48 - 51) .

كالجزء ، فلا تُفصل منه بشيء ، اللهمَّ الاَّ بالقسم ، كقوله : « أخالدُ قد والله أوطأْتَ » البيت - ذُكر في (المُغْني) .

وآهاً = ليست اسم فعل للتوجّع ، والتأسّف ، والدَّلالة على الضَّيم ، كآهٍ وآهاً ، بل هي للدلالة على ما يَسرُّ . تقول : (وآهاً ما أَحسنه) - ذُكر في (الأساليب) .

النِّسبة الى أُميَّة = النِّسبة الى أُميَّة : (أُمَوِيٌّ) بضمّ الهمزة على القياس ، وبفتحها على غير القياس - ذُكر في (المصباح) . وفي (الصَّحاح) : « أمويّ ، بالضمّ ، وربمّا فتحوا » .

حَسْبُ (بمعنى فقط) = تقول : (وهذا فَحَسْبُ) (وهذا وحَسْبُ) (وهذا حَسْبُ) ، أي بلا فاء ولا واو ، والأفصح بالفاء - ذُكر في (سرّ الفصاحة) .

الألف واللاَّم في الرَّبّ = قالوا : لا يجوز استعمال رَبّ بالألف واللاَّم للمخلوق ، بمعنى المالك ، لأن اللاَّم للعموم ، والمخلوق لا يملك جميع المخلوقات - ذُكر في (المصباح) .

بعدُ = لا تقع (بعدُ) بين كلامين متَّحدين ، لكونها للانتقال من غرض الى آخر . فلا يقال ، مثلاً : (السلام عليكم ، أمّا بعد فالسلام عليكم) . وانما تقع بين كلامين متغايرين ، بينهما نوع مناسبة . فلا تقع أَوَّل الكلام ولا آخره - ذُكر في (حاشية أبي النَّجاء)[1] .

---

(1) وفي (الحاشية) ، ينقل من شرح الشرقاويّ على (التّحرير) ، انّ الواو في (وبعدُ) نائبة عن أمّا ، وأمّا نائبة عن مهما ، وانّ اصل الكلام : مهما يكن من شيء بعد البسملة والحمدلة الى آخره .

الحِبر (بمعنى العالِم) = هو بالكسر أفصح ، لانه يُجمع على أفعال ، والفَعْل يُجمع على فُعُول ـ ذُكر في (المُزهر) نقلاً من (ديوان الأدب) .

الأَلماس لا الماس = الأَلماس كلمة يونانيّة (أذماس) ، فالألف واللاّم فيها أصليّتان[1] .

جمعُ لسان = مَنْ جَعَلَ اللّسان مذكّراً جمعه على ألسنة ، ومَنْ جعله مؤنّثاً جمعه على ألسن ـ ذُكر في (الكلّيّات) .

إقرأه السلام) = نُقل في (البُستان) انه لا يقال : (اقرأه السلام) الاّ اذا كان السلام مكتوباً . وفي (المصباح) ، عن الأصمعيّ : تعديته بنفسه خطأ ، فلا يقال : اقرأه السلام ، لأنه بمعنى : اتلُ عليه » . وفي (الأساس) : « ولا تقلْ اقرِئه منّي السلام » .

صرف رحمان = اختلفوا في صرف رحمان ومنعه . والصحيح صرفه ، لأننا قد جهلنا النّقل فيه عن العرب ، والأصل في الأسماء الصَّرف ، فوجب العمل به ـ ذُكر في (شرح التّسهيل) .

تأنيث جُمادى = الشهور القمريّة مذكّرة الاّ جُمادى ـ ذُكر في (الكلّيّات) . ونُقل في (الإصلاحات) انّ الألف الأخيرة من جُمادى زيدت عمداً بقصد التأنيث .

السّين وسوف = السّين فرع سوف ، فمن استعمل سوف ، نظَرَ الى الأصل ، ومن استعمل السّين نظَرَ الى الايجاز والاختصار ـ ذُكر في

---

(1) وقد استعملها العلاّمة اليازجيّ في الصفحة 758 من السنة الثالثة من (الضياء) بالألف واللام خمس مرّات .

(الكلّيّات) . وفي سرّ العربيّة) انَّ هذه السِّين لا يقال لها سين سوف .

أُنثي العبد = أنثى العبد ، أي الخادم الرقيق :(أمة) ، ولا يقال عَبْدة ـ ذُكر في (الأساليب) .

ولا بين المشبَّهَيْن = يقال : « فتى ولا كفلان » ، يريدون انَّ فلاناً أفضل من كلّ فتى . وهو مذهب العرب في ذكر ولا بين المشبَّهَيْن ـ ذُكر في (الطِّراز) .

حذفُ أن بعد فعل القَسَم = يحذفون (أنْ) بعد فعل القَسَم ، للتَّخفيف ، فيقولون : « حلف لا يفعل » بدلاً من (حَلَفَ أنْ لا يفعل) . وقد سكت أهل النَّحو في هذه المسألة .

أوفى بالعهد = (أوفى بعهده) أفصح اللُّغات وأكثرها . (فوفى بعهده) يجذبه أصلان مِنْ وفي الشيءُ ، اذا كثر ، ووفى بعهده . لذلك اختاروا أوفى ، اذ كان لا يشكل ، ولا يكون الاَّ للعهد ـ ذُكر في (شرح الدُّريديَّة) .

مُلْك يميني = قال في (المُزهر) ، ينقل من (ديوان الأدب) « يقال : هذا مُلك يميني ، وهو أفصح من الكسر » .

استعمال لَعَمْري = كَره كثير من العلماء ان يقول الانسان : (لَعَمْري) ، لأَنَّ معناه : وحياتي . قال عياض : هو بمعنى : وبقائِك ، وقيل : وعيشِك ، وقيل : وحياتِكِ ـ ذُكر في (أَلف با)[1] .

تعدية أفعال الحواسّ الظاهرة = حقّق السهيليّ انَّ جميع أفعال

---

(1) قال البلويّ : « قال المهدويّ : العُمْر والعَمْر واحد ، الاَّ انه لا يُستعمل في القسَم الاَّ بالفتح . وقال عياض : أصله ضمُّ العين ، ولكنَّها فُتحت لكثرة الاستعمال » .

الحواسّ الظاهرة لا تتعدّى الأ الى مفعول واحد : (سمعتُ الخبر) و (أَبصرتُ الأَثر) و (مسستُ الحجر) و (ذُقت العسل) و (شممت الطِّيب) - ذُكر في (الطِّراز) .

الألف واللّام في الأَنْدُلُس[1] = جرى على الألسن ان تلزم الألف واللّام ، وقد استُعمل حذفهما في شعر يُنسب الى بعض العرب - ذُكر في (معجم البلدان) .

إرْمينية = هي بكسر الألف . تقول : فلان إرْمِنِيٌّ ، بكسر الألف والميم - ذكره ابن قتيبة .

ان في الخطّ = قال بعض اهل اللّغة : لا تظهر ان في الخطّ اذا كانت عاملةً في الفعل ، فتقول : (اريد الأ تقوم) . فاذا لم تكن عاملةً في الفعل ، وهي المخفّفة من الثقيلة ، تقول : (تيقّنتُ أن لا تُظْلَم) ، أي انك لا تُظْلَم - ذُكر في (الطِّراز) .

إعراب فلسطين = قال المبرِّد في (الكامل) : « كلُّ ما كان على بناء الجمع من الواحد ، فاعرابه كاعراب الجمع . ألا ترى ان عشرين ليس لها واحد من لفظها ، وإعرابها كإعراب مسلمين ، واحدهم مسلم . وكذلك جميع الإعراب . وتقول : هذه فلسطون يا فتى ، ورأيت فلسطين يا فتى . هذا القول الأجود » .

التّالي والثّاني = التّالي يأتي اسماً بمعنى العاقبة . تقول : (وبالتّالي - او في التّالي - جرى كذا وكذا) ، أي : وبعد ذلك . وتقول : (في اليوم التّالي ، أي بعد اليوم المذكور ، غير قاصدٍ عدداً . فاذا أُريد العدد ،

---

(1) في ضبطها اختلاف ، وما هنا معوّل فيه على (التّاج) .

قِيل : الثَّاني ، لا التَّالِي ، فلا يقال : (مشينا ثلاثة ايام ، ففي الأول جرى كذا ، وفي التَّالِي كذا) بل : (في الثاني) . ولكن تقول : (كان ذلك اليوم جميلاً ، وأمَا اليوم التالي فعكسه) ، ولا تقول : (الثاني) - ذُكر في (الأَساليب) .

ينبغي (بمعنى يجب) = في (الكلّيّات) : « لفظ ينبغي قد يُستعمل في موضع يجب » . وفي (الأساليب) : « ولا يأتي في الفصيح بمعنى يجب » .

الدَّهـر والزَّمـان = ذُكر في (الف با) انّ الدَّهـر مدَّة الأَشياء الساكنة ، والزّمان مدّة الأَشياء المتحرِّكة .

بدأ يفعل (بمعنى ابتدأ) = لا يقال : (بدأ يفعل) بمعنى ابتدأ ، اذ لم تُسمـع من افعـال الشُّروع ، غـير انّ الـزمخشريّ ذكرهـا في (الكشّاف) .

همزة البَتَّة = الأَكثر في (البتَّة) قطع همزتها ، وهو قول ابن قتيبة ، عوَّل فيه على قول الفرَّاء . وفي (شرح التَّوضيح) : « أل في البتَّة لازمة الذكر ، فلا يجوز تنكيره سماعاً » . وفي (حواشي المَكّيّ) : « يقال : لا افعله بتة والبتّة » . وفي (الكشف) انه جاء في (اللُّباب) : « لم يُسمع في البتة الاّ قطع الهمزة ، والقياس وصلها » . وفي (شرح البخاريّ) ، للكرمانـيّ : « همزتهـا همـزة قطـع ، على خلاف القياس » . قال في (الفَتْح) : « ولم أرَ ما قالـه في كلام أحـد من أهـل اللّغـة » . وفي (الاقتضاب) : « ذكر الفرّاء انهما لغتـان » ، وفيه : « وجـاء ذلك في بعض ما أخرجه مسلم في الصحيح » .

النّسبة الى أمس = النّسبة الى أمس : (إمْسيٌّ) بكسر الهمزة ، وهو على غير القياس ـ ذُكر في (معالم الكتابة) .

تعدية بَحَثَ = بَحَثَ يتعدّى بفي ، وبعن . فأمّا مع في فيُراد به التّدقيق في الطلب ، يقال : (بحثتُ في القضيّة الفلانيّة) . وأما مع عن فيُراد به الطلب بوسائط خارجيَّة ، يقال : (بحثتُ عن خبره) و (عن الأمر الفلانيّ) ، أي : سألتُ عنه بالوسائط ـ ذُكر في (الأساليب) .

واو ولا سيّما = يجوز مجيء الواو قبل (لا سيّما) ، اذا جعلتَه بمعنى المصدر ، وعدم مجيئها . الاّ انّ مجيئها أكثر ـ ذُكر في (الكلّيّات) عن البلبانيّ في (شرح التلخيص) . وفي الصاحبيّ : « سمعتُ أبا الحسن المعروف بابن التركيّة يقول : من قاله بغير اللّفظ الذي قاله امرؤ القيس ، فقد أخطأ » ـ يريد : (ولا سيّما يومٍ بدارة جلجلِ) . وفي (المُغني) : انَّ دخول الواو واجبة . وفيه : « قال ثعلب : من استعمله على خلاف ما جاء في قوله : ولا سيّما يوم بدارة جلجلِ ، فهو مخطىء » الى أن يقول : « وذكر غيره انه قد تُحذف الواو » .

الاستعمال في الاثنين اللّذين لا يكاد أحدهما ينفرد = كلُّ اثنين لا يكاد احدهما ينفرد ، كالعينين واليدين ، فانَّ العرب تقول فيه : (رأيتُ بعينيَّ ، وبعيني و (الدّار في يديَّ ، وفي يدِي) ذُكر في (الكلّيّات) .

دلالة الكاف = قال الأخفش : « قد تكون الكاف دالّة على القرب والبعد ، كما تقول للشيء القريب منك : ذا ، وللشيء البعيد منك : ذاك ـ ذُكر في (سرّ العربيّة) . وفي (القاموس) : « هُنَا وهَهُنا ، اذا

اردتَ القرب » ثمَّ ذكر (هَنَّاكَ) و (ها هَنَّاك) ، أي بكافـين ، في ما يُستعمل للبعد .

إقحام آل = قوله في (الحديث) : « لقد أُعطيَ مزماراً من مزامير آل داود » ، أراد من مزامـير داود ، نفسـه . والآل زائـدة ـ ذُكر في (اللّسان) . وفي (الكشّاف) ، (شرح البيضـاويّ) انَّ آل مقحمـة لتفخيم الشأن .

الآلـة والأداة = الآلـة اعـمّ من الأداة ، التـي تغلـب في الآلات الصغيرة ـ ذُكر في (الأساليب) .

حرف لا = قال في (سرّ الصناعة) : « ولا يقـال ـ لام ألف ـ كما يقول المعلّمون ، لأن الف لا ساكنة ، ارادوا النطق بها ، كما في سائر حروف المعجم ، فدعموها باللّام توصُّلاً للنّطق بها ، وخُصَّت لأنهـم دعموا لام التّعريف بالألف فتعارضـا ، ولا يُراد التـركيب ، لأنّـه لم يُركّب شيء في الهجاء ، والاّ فكان عليهم ان يثبتوا تركيب التاء مع غيرها ونحو ذلك » ـ ذُكر في (الشّفاء) .

الباء لبيان مقدار التفاوت بين الشيئين = من المنقول عن العرب : (ما كَبَرَني فلان الاّ بسنة ، وما صَغَرَني الاّ بسنة ـ ذُكر في (النوادر) لابن الاعرابي .

دخول رُبَّ على المضارع = رُبَّ تدخل على الماضي ، ولكنّها دخلت في سورة الحجر على المضارع : « ربَمّا يودُّ الذين كفروا » الآية .

بكاء حَرٌّ لا مرٌّ = يوصف البكاء بالحَرّ ، يقال : (بكيتُ بكاء حَرًّا)

او (حارًّا) و (أحرُّ البكاء) و (بدموع حارَّة) . وأمَّا قولهم : بكاء مرّ ، بالميم ، فتحريف - ذُكر في (الأساليب) .

الوصف بالعَدَد المثنّى = لا يُوصف بالعَدَد المثنّى : « كان عندي رجلان اثنان) وزرتُ امرأتين اثنتين » . وأمّا الوصف بالواحد فقد جرى على لسان العرب للتأكيد ، مع انه يُستغنى عنه - ذُكر في (لسان الغصن) .

الأمّهات والامّات = الأُمّ ، الوالدة ، جمعها من الانسان : (أُمّهات) ، ومن الحيوان : (أُمَّات) - ذُكر في (الأساليب) .

ثياب وأثواب = في (الطِّراز) : « جمع القلَّة ليس بأصل في الجمع ، لأنه لا يُذكر الاّ حيث يُراد به بيان القلَّة ، ولا يُستعمل لمجرَّد الجمعيَّة والجنسيَّة ، كما يُستعمل له جمع الكثرة » . وفي (شرح الشافيّة) « يقال: فلان حَسَن الثياب ، في معنى حَسَن الثوب ، ولا يحسن : حَسَن الأثواب . وكم عندك من الثوب ، او : من الثياب ، ولا يحسن : من الأثواب . وفي (الأساليب) : « اذا أُريد بالثوب ثوباً خاصًّا ، جُمع على أثواب ، واذا أُطلق على عموم ما يُلبس ، جُمع على ثياب » .

أرادَ مكان كادَ = قال في (سرّ العربية) : « العرب تسمّي التَهيُّؤ للفعل ، والاحتياج اليه : ارادة . قال ابو محمد اليزيديُّ : كنت والكسائيّ عند العبّاس بن الحسن العلَويّ ، فجاء غلام له ، وقال : يا مولاي ، كنتُ عند فلان ، فاذا هو يريد أن يموت ، فضحكنا ، فقال ممَّ ضحكتما ؟ قلنا : من قوله : يريد أن يموت ، وهل يريد الانسان أن

يموت ؟ فقال العبّاس : قد قال الله تعالى : فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقضّ . وإنّما هذا مكان كادَ ، فتنبّهنا » .

تشديد الحرف الثنائيّ = نقل ابو زيد في (الوشاح) عن النوويّ في (تهذيب الاسماء) عن الأزهريّ في (تهذيب اللّغة) ، انَّ الخليل بن أحمد قال : اذا صيرّتَ الحرف الثنائيّ ، مثل : قد ، وهل ، ولو ، اسماً ، أدخلتَ عليه التشديد ، فقلتَ : (هذه لوٌّ مكتوبة) ، و (هذه قدٌّ حسنة الكتْبة) .

كلا وكلتا = في (كتاب الكُتّاب) انّ كلا وكلتا يُكتبان في حالة الاضافة الى المظهر والجرّ ، او النَّصب ، بالياء . تقول : (رأيت كلي الرجلين) و (مررتُ بكلَي الرجلين) . ومراد ابن درستويه ، هنا ، التيسير .

وضعُ عن بعد عدا = عدا اداة استثناء ، وتكون إما حرف جرّ ، أو فعلاً . فلا توضع (عن) بعدها . تقول : (فضلاً عن كذا) ، ولا تقول : (عدا عن كذا) ـ ذُكر في (لسان الغصن) .

الصّلاة والصّلوات = قيل : الصلاة جمعُ كثرة ، بدليل (أقيموا الصلاة) الآية ، والصلوات جمعُ قلّة . فقولك : (خمس صلوات) غلط ، لأن بناء صلوات ليس للقلّة ـ ذُكر في (الكلّيّات) .

اتّصال ما = اذا اردتَ معنى (سلْ عن أيّ شيء شئتَ) ، نقصتَ الألف من ما ، فقلتَ : (سلْ عمَّ شئتَ) ، وان أردتَ (سلْ عن الذي أحببتَ) ، اتممتَ الألف ، فقلت : (ادعُ بما بدا لك) أمّا (بما شئتَ) فالعرب تنقص الألف منها خاصّةً ، فتقول : (ادعُ بمَ شئتَ) في المعنيَين ، جميعاً ـ ذكره ابن قتيبة .

استعمال أثناء ظرفاً = أثناء جمعُ ثِنْي ، ومعناها : غضون . . وهي ما يظهر من التّجعيد في الوجه ، وغيره من مثله ، فلا تُستعمل ظرفاً . أي انك لا تقول : (كنّا اثناء ذلك نفعل كذا) ، بل تقول : (في أثناء ذلك) ، أي في المدّة التي كان ينقضي فيها ذلك الأمر - ذُكر في (لسان الغصن) . وفي (الأساليب) : انَّ اثناء يُراد بها أواسط المدَّة ، وانَّ استعمالها بدون حرف الجرّ (في) سقيم .

حذف الألف من لماذا = من أوجه ماذا ان تكون ما استفهاماً وذا زائدة . أجازه جماعة ، منهم : ابن مالك ، في نحو : (ماذا صنعتَ) وعلى هذا التقدير ينبغي وجوب حذف الألف في نحو : (لمَ ذا جئتَ) - ذكر في (المُغْني) .

أمثَال الانجيل

مُقدّمة

« المَثَل » في الاصطلاح ، على ما عند الإمام المبرِّد : قولٌ سائرٌ ، يُشبَّه به حال الثّاني بالأوَّل ، والأصل فيه التَّشبيه . ولقد جرى معرّبو الإنجيل على استعمال كلمة « مَثَل » هذه في ما نطق به السَّيِّد ، له المجد ، من أقوال جاء فيها التَّشبيه بما يقع في مصاير البشر ، أو في سياق أحوال الطَّبيعة .

ويحسن في هذا المقام إيراد ما قاله القدّيس « الذَّهبيُّ الفم » ، أعاد الله علينا من بركاته ، في مسألة « الأمثال » ، وهو بين شرّاحها في النّصرانيّة ، ولا منازع ، أعلاهم رأياً ، وأجلُّهم وقوفاً على الأغراض . قال ما هذا مفاده : لا يُؤْخذ « المَثَل » كلمةً كلمةً ، بل تُؤخذ جملة المعنى منه .

أمّا الأصل الذي رجعنا إليه في التَّعريب ، فالتَّرجمة المعروفة « باليسوعيّة » ، وهي التّي تولاَّها الشَّيخ ابراهيم اليازجيّ (وقد جاء في مجلَّة [الضِّياء] [1 - 1899 : 471] ، نقلاً من فصل ضاف لجريدة [البشير] على هذه التَّرجمة [العدد الصَّادر بتأريخ 16 حزيران من [سنة 1881] ، ذُكر فيه قيام الشَّيخ اليازجيّ بها ، بما هذا بعضه : أفرغها من بلاغة قلمه في قوالب جاءت بها صُور المعاني ممثَّلةً

تمثيلاً ، وكساها من ديباجة لفظه ، وطراز أسلوبه ، ما زادها حسناً وقبولاً]) ، والتَّرجمة المعروفة « بالاميركيَّة » ، وهي التَّي تولاَّها الشَّيخ أحمد فارس الشّدياق (وقد قال المطران الدِّبس في [تأريخ سورية] [8 : 736] ، وفي [الجامع المفصَّل] [ص : 534] ، من كلام له في الموضعين على هذه التَّرجمة : [أحسن التَّرجمات من حيث اللُّغة العربيَّة]) . ثمَّ إنَّنا لم نترك الرُّجوع ، في بعض المواضع ، إلى التَّرجمة « المارونيَّة » ، أي ترجمة المطران فرحات ، والتَّرجمة « الأرثوذكسيَّة » ، أي ترجمة المعلِّم صرُّوف ، والتَّرجمة « الملكيَّة الكاثوليكيَّة » ، أي ترجمة الشَّمَّاس الزَّاخر . ذلك إلى مراجعات في التَّرجمة الفرنسويَّة ، المعروفة « بترجمة القدْس » .

وأمَّا اللسان الذي أخذت عنه « اليسوعيَّة » ، و « الأميركيَّة » ، و « الأرثوذكسيَّة » ، و « الملكيَّة الكاثوليكيَّة » ، فاليونانيّ . وأخذت « المارونيَّة » عن السُّريانيّ .

ولقد جعل بعضهم « الأمثال » تسعة وعشرين ، أضافوا الكلام على « الحملان والجداء » ، وعلى « الإبنين » (من الفصل الحادي والعشرين من إنجيل متَّى) . ومنهم من جعلها ثلاثين ، أضاف الكلام على « الشَّجرة الجيِّدة الثَّمرات ، والشَّجرة الفاسدتها » ، وعلى « البيت القائم فوق الصَّخر » (من الفصل السادس من إنجيل متَّى) ، وعلى « الرَّاعي الصَّالح » (من الفصل العاشر من إنجيل يوحنَّا) .

وهذا ، كلُّه ، ممَّا لا يجري مجرى « المَثَل » في معناه المعروف . وإنَّما هو عبارات تنظر ، في الجملة ، إلى تشبيه ، أو استعارة ، أو كناية . لذلك أخذنا نحن ، كما يرى القرَّاء ، برأي الذين

يجعلون الأمثال سبعةً وعشرين ، ليس غير . وهو الرَّأي الرَّاجح الأكثريّ .

وإلى القرّاء معرَّب أوَّل « الأمثال » ، على ما جاء في التَّرجمات العربيّة الخمس ، وهو مَثَل « الزَّارع » (من إنجيل لوقا) :

في « اليسوعيّة »

« خرج الزَّارع ليزرع زرعه وفيما هو يزرع سقط البعض على الطَّريق فوُطِىءَ وأكلته طيور السَّماء . والبعض سقط على الصَّخر فلمَّا نبت يبس لأنّه لم تكن له رطوبة . وبعض سقط بين الشَّوك فنبت الشَّوك معه فخنقه . وبعض سقط في الأرض الصَّالحة فلمَّا نبت أثمر مئة ضِعفٍ » .

في « الأميركيّة »

« خرج الزَّارع ليزرع زرعه . وفيما هو يزرع سقط بعض على الطَّريق فانداس وأكلته طيور السَّماء . وسقط آخر على الصَّخر فلمَّا نبت جفَّ لأنّه لم تكن له رطوبة . وسقط آخر في وسط الشَّوك . فنبت معه الشَّوك وخنقه . وسقط آخر في الأرض الصَّالحة فلما نبت صنع ثمراً مئة ضِعفٍ » .

في « المارونيّة »

« خرج الزَّارع يزرع زرعه وفيما هو يزرع ، منه ما وقع على قارعة الطَّريق ، فديس وأكلته الطَّير . وآخر وقع على صخرة وللوقت نبت وإذ ليس له ثرىً يبس . وآخر وقع بين الشَّوك ولمَّا نبت معه الشَّوك

خنقه . وآخر وقع في أرض جيِّدة حسنة فنبت وصنع ثمراً الواحد مائة » .

في « الأرثوذكسيَّة »

« خرج الزَّارع ليزرع زرعه . وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطَّريق فوُطىءَ وأكلته طيور السَّماء . والبعض سقط على الصَّخر فلمَّا نبت يبس لأنَّه لم تكن له رطوبة . وبعضٌ سقط بين الشَّوك فنبت الشَّوك معه فخنقه . وبعضٌ سقط في الأرض الصَّالحة فلمَّا نبت أثمر مئة ضِعفٍ » .

في « الملكيَّة الكاثوليكيَّة »

« خرج الزَّارع ليزرع زرعه . وفيما هو يزرع سقط البعض على الطَّريق . فوُطىءَ وأكلته طيور السَّماء . والبعض سقط على الصَّخر . فلمَّا نبت يبس لأنَّه لم تكن له رطوبة . وبعضٌ سقط بين الشَّوك ، فنبت الشَّوك معه ، فخنقه . وبعضٌ سقط في الأرض الصَّالحة . فلمَّا نبت أثمر مئة ضعفٍ » .

هذا ، والله سبحانه يتقبَّلها منَّا عملاً خالصاً ، ويجعلها نوراً يسعى بين يدينا ، يوم يبيضُّ قول ، ويسودُّ قول .

أمين

الفصل الاول

ملكوت الله

الملكوت في الحياة الدنيا - (1 انشاء الملكوت) : مثل الزارع - (2 - انتشار الملكوت) : مثل شجرة التين - مثل العشاء العظيم - مثل العمال الأردياء - (3 - نجاح الانتشار) : مثل الزُّرعة - مثل الزؤان - مثل حبة الخردل - الملكوت في الحياة الأخرى - مثل شبكة الصيد - مثل عرس ابن الملك - مثل العذارى العشر - مثل عمال الكرم - مثل الوزنات - مثل الأمناء العشرة .

1

الملكوت في الحياة الدُّنيا

« 1 ـ إنشاء الملكوت »

مثل الزَّارع (*)

خرج بعض الزُّرَّاع يطرح الزُّرعة في الأرض . وبينا هو يفعل ، سقط من البذر شيءٌ في قارعة الطَّريق ، فداسته الأقدام ، وتناولته الطَّير ، وسقط شيءٌ فوق الصَّخر ، فلمَّا نشأ نباته ، جفَّ من فقدان النَّداوة ، وسقط شيءٌ في الشَّوك ، فغمَّه الشَّوك ، فخنقه ، وسقط شيءٌ في التُّربة الكريمة ، فلما خرج في الموسم ، أعطى مائةً من أمثاله .

« 2 ـ إنتشار الملكوت »

مثل شجرة التين (1)

كان لبعضهم في كرمه شجرة من التِّين ، فأقبل يقطف ذات يوم من

(*) من إنجيل لوقا (الفصل الثامن) .

(1) من إنجيل لوقا (الفصل الثالث عشر) .

ثمرها ، فلم يجدْ عليها شيئاً . فقال لعامل الكرم : « هذه سنوات ثلاث أجيءُ فيها لأقطف من هذه التِّينة ، ولا أجد شيئاً . فما لك تعطِّل بها الأرض ؟ اقطعها من فورك » . فقال له العامل : « لو أبقيتَ عليها هذه السَّنة ، أيضاً . وأنا أقلب أرضها ، وأعدنها . فاذا هي أعطت في الموسم القابل فبه ، وإلاَّ انتزعْتها ، يومئذ ، من أصلها » .

مثل العشاء العظيم[2]

أقام بعضهم عشاءً عظيماً ، دعا إليه جماعة كثيرين . فلمَّا جاء وقت العشاء ، أرسل الرَّجل غلامه إلى المدعوين يقول لهم : تعالوا ، فانَّ كلَّ شيء في الوليمة قد هُيىء . فأخذوا يستعفون من الحضور ، كأنَّهم في ذلك على اتِّفاق واحد . فقال الأوَّل : « إني اشتريت حقلاً ، وتراني مضطرّاً إلى الخروج ، لأنظر فيه . فأسألك أن تعفيني » . وقال آخر : « وأنا أسألك أن تعفيني ، أيضاً ، فاني اشتريت خمسة أزواج من البقر ، وتراني أخرج لأختبرها في الفلاحة » . وقال آخر : « وأنا تزوَّجت امرأةً ، فلا أستطيع الذَّهاب » . فانقلب الغلام إلى سيِّده ، وأخبره بما سمع من الجماعة . فغضب الرَّجل ، وقال له : « اسرعْ إلى المدينة ، بين الشَّوارع والأزقَّة ، واجمع لي المساكين والجُدع والعُرج والعُمي ، وأدخلهم إلى الوليمة » . فقال الغلام : « إنَّ الذي تأمر به قد حصل . وبرغم ذلك لا تزال مواضع في المائدة خالية » . فقال : « إذن ، اسرع إلى الطُّرق والأفنية ، واحمل على المجيء من تراهم فيها ،

---

(2) من إنجيل لوقا (الفصل الرابع عشر) .

حتَّى يمتلىء بهم بيتي . فانَّه لن يكون لواحد ، من الذين دعوتُهم إلى العشاء ، أن يذوق له طعماً » .

مثل العمال الارادياء(*)

كان في الأيَّام ربٌ بيت قد غرس كرماً ، وسيَّجه ، وحفر فيه معصرةً ، وابتنى برجاً للنَّواطير . ثمَّ ذهب في سفر له ، بعد أن دفع الكرم إلى بعض العمَّال ، يقومون عليه . فلمَّا حان زمن القطاف ، بعث جماعةً من غلمانه ، يحملون إليه حصَّته من العنب . ولمَّا جاءُوا الكرم ، لقيهم أولئك العمَّال ، فجلدوا بعضاً منهم ، ورجموا بعضاً ، وقتلوا بعضاً . ثمَّ إنَّه بعث إليهم جماعةً آخرين من غلمانه ، أكثر عدداً من أصحابهم ، ففعل العمَّال بهؤلاء ما فعلوا بأولئك . فرأى الرَّجل في الآخر أن يبعث إليهم ابنه ، لعلَّ أن يكون له حرمة عندهم . فلمَّا أقبل الإبن عليهم ، قالوا في ما بينهم : « هذا وارث الرَّجل . تعالوا نقتله ، ونستولي على الأرث » . ثمَّ أخذوا به ، وقتلوه خارج الكرم .

فاذا حضر صاحب الكرم ، ما ظنُّكم يفعل بهم ؟ قالوا : « يذيقهم شرَّ ميتة ، ويدفع الكرم إلى عمَّال يؤدُّون إليه الثمر في مواسمه » .

« 3 - نجاح الانتشار »

مثل الزُّرعة(*)

كأنَّ ملكوت الله أشبه شيء برجل ألقى الزُّرعة في الأرض ، فهو

(*) من إنجيل متى (الفصل الحادي والعشرون) .

(*) من إنجيل مرقس (الفصل الرابع) .

بين منامه وقيامه ، على تعاقب الليل والنهار ، يكون البذر قد فعل فعله في الخروج والنُّموّ ، دون أن يدري هو كيف يحصل ذلك . تأتي الأرض من نفسها بالثَّمرة . فتكون الثَّمرة أوَّلاً نباتاً ، ثمَّ تكون سنبلاً ، ثمَّ تكون قمحاً ، ملءَ السَّنابل . فأمَّا إذا هي أدركت ، فانَّ الرَّجل يُعمل منجله في الحصاد الذي أزف زمانه .

مثل الزُّؤان(*)

ملكوت الله يشبه رجلاً زرع في حقله بذراً جيِّداً . وبينما النَّاس في نومهم ، إذ جاء في الخفاءِ عدوٌّ له ، فألقى في حقله بين حبوب الحنطة ، زؤاناً . فلمَّا طلع القمح ، وأخرج ثمره ، طلع الزُّؤان ، أيضاً ، وأثمر . فجاء غلمان الرَّجل يقولون لصاحبهم : « إنَّنا نرى عجباً كثيراً ! فانَّما أنت قد زرعت خير الزَّرع ، فلعمرك ، من أين جاء الزُّؤان ؟! » ، قال : « انَّه عدوٌّ لي فعل ذلك ، ولا ريب ! » ، قالوا : « أفتريد ، إذنْ ، أن نرفع الزُّؤان من الزَّرع ؟ » ، قال : « لا تفعلوا ، مخافة أن تنزعوا الحنطة بنزعكم للزُّؤَان . بل دعوا الاثنين ينموان معاً ، حتَّى تجيء أيَّام الحصاد . يومئذٍ أقول للحاصدين : اجمعوا الزُّؤان حُزَماً للنَّار ، فأمَّا القمح فاجمعوه لأهرائي » .

مثل حبة الخردل(*)

الملكوت يشبه حبَّةً من الخردل ، يزرعها الرَّجل في حقله ، وهي

(*) من إنجيل متى (الفصل الثالث عشر) .

(*) من إنجيل متى (الفصل الثالث عشر) .

أصغر البذر ، جميعاً . فاذا هي نمت ، رأيتَها أعظم البقول ، حتّى لتصبح شجرة ، في أفنانها تتآوى الطّير .

مثل الخمير[1]

الملكوت يشبه خميراً خبأته بعض النّسوة في ثلاثة أكيال من الحنطة ، فاختمر ذلك جميعاً .

2

الملكوت في الحياة الأخرى

مثل شبكة الصيد[2]

الملكوت يشبه شبكةً للصّيد ، أُلقيت في البحر ، وحوت لمختلف أجناس السّمك . فلمّا امتلأت ، خرجوا بها في الشاطىء ، وجلسوا يجعلون جيِّد السّمك في أوعيةٍ لهم . فأمّا الرّديءُ منه ، فانّهم يطرحون به بعيداً .

مثل عرس ابن الملك[*]

الملكوت يشبه حال ملكٍ أَقام عرساً لابنه ، فأرسل غلماناً له في

(1) من إنجيل متى (الفصل الثالث عشر) .

(2) من إنجيل متى (الفصل الثالث عشر) .

(*) من إنجيل متى (الفصل الثاني والعشرون) .

طلب المدعوين ، فأعرض هؤلاء عن المجيء . فأرسل إليهم جماعة آخرين من غلمانه ، وقد قال لهم : « قولوا عنِّي للمدعوِّين : تعالوا ، فهذا طعامي قد هيَّأته ، وقد ذبحتُ ثيراني ، ومسمَّناتي ، وأصبح كلُّ شيء من أشياء العرس مجهَّزاً ، حاضراً » . فلم يأبه المدعوُّون لذلك ، بل انصرف فريق إلى حقله ، وفريق إلى تجارته . وأمسك الآخرون منهم عبيد الملك ، فشتموهم ، وقتلوهم . فلمَّا علم الملك بالخبر ، تولاَّه الغضب ، ووجَّه جنده على أولئك القتلة ، فأذاقوهم الهلاك ، وجعلوا النَّار في مدينتهم . ثمَّ قال لعبيده : « العرس مهيَّأ خير تهيئة ، والمدعوُّن إليه لا يستحقُّون الدَّعوة ، فاذهبوا إلى مفارق الطُّرق ، وادعوا كلَّ من تجدونه فيها » . فخرجوا في الطُّرق يجمعون إليهم كلَّ من صادفوا من أشرار ، أو بررة ، حتَّى ازدحم العرس بالمتَّكئين في موائده . فلمَّا دخل عليهم الملك ، وقعت عينه على رجل فيهم ، لم يكن عليه لباس العرس . فقال له : « يا صاحبي ، كيف تدخل إلى العرس ، وليس عليك لباسه ؟ » . فصمت الرَّجل ، لا يحير جواباً . فقال الملك لخدمه : « وإذن اوثقوه من يديه وقدميه ، ثمَّ خذوه ، وألقوا به خارجاً ، في ظلمة اللَّيل . هناك يكون البكاءُ ، وهناك يكون صريف الأسنان ! ذاك أنَّ المدعوِّين كثار ، والمختارون أقلاء .

مثل العذارى العشر(*)

الملكوتُ يشبه عشر عذارى ، خرجن بالمصابيح في لقاء

(*) من إنجيل متى (الفصل الخامس والعشرون) .

عروس . وكانت خمس منهنَّ أهل رأي ، وخمس أهل جهالة . أمَّا الأوليات فقد جلبن زيتاً لحاجة المصابيح ، وضعنه في قوارير لهنَّ ، وأمَّا الأخريات ، فقد غفلن عن جلب الزِّيادة من الزَّيت . وبينا هنَّ في الانتظار ، وقد أبطأ العروس ، نعسنَ ، ونمنَ جميعاً . فلمَّا انتصف الليل نُودي بهنَّ أن قد أقبل العروس ، فاخرجنَ للقائه . فقالت العذارى ، أهل الجهالة ، لرفيقاتهنَّ : « لقد أخذت مصابيحنا تنطفىءُ ، فأعطيننا من زيتكنَّ » . قالت العذارى الأخر : « قد لا يكفينا ويكفيكنَّ الزَّيت معاً . فلو ذهبتنَّ إلى الباعة تشترين منه » . فذهبن إلى بعض الباعة . ولكنَّ العروس ، في أثناء ذلك ، كان قد حضر ، ودخل قاعة العرس ، ودخلت معه العذارى المستعدَّات للأمر ، وأوصد الباب . وفي النِّهاية ، عادت العذارى الأخر ، فقرعن الباب على العروس ، وقلن له : « رحماك ، يا أيُّها السَّيِّد ، وافتحْ لنا » . فأجابهنَّ بقوله : « ألا إنِّي ، في الحقيقة ، لا أعرفكنَّ ! » .

مثل عمال الكرم(*)

الملكوت يشبه صاحب كرم ، خرج على الصُّبح يستأجر عمَّالاً لكرمه . فاتَّفق وجماعة من العمَّال على دينار في اليوم ، وذهبوا في عملهم . ثمَّ خرج في نحو من السَّاعة الثَّالثة من النَّهار ، فرأى في السُّوق جماعةً آخرين ، متعطِّلين عن العمل ، فقال لهم : اذهبوا أنتم ، أيضاً ، إلى كرمي ، وأنا أنقدكم ما يترتَّب لكم ، فذهبوا . ثمَّ

(*) من إنجيل متى (الفصل العشرون) .

خرج في نحو من السّاعة التّاسعة ، وفعل فعله الأوّل . ثمّ خرج في نحو من السّاعة الحادية عشرة ، فرأى جماعةً من المتعطّلين ، أيضاً ، فقال لهم : وأنتم ، ما لكم متعطّلين ، بطّالين هكذا ، طول النّهار ؟ قالوا : نحن لم يستأجرنا أحد . قال : وأنتم ، أيضاً ، اذهبوا إلى الكرم ، وتُنقدون ما يترتّب لكم .فلمّا جاء المساءُ ، قال صاحب الكرم لوكيله في العمل : « آدعُ اليك العمّال ، وانقدهم أجورهم ، بادئاً بالآخرين منهم » . فجاء جماعة السّاعة الحادية عشرة ، وفُرّقت الأجرة عليهم ، ديناراً ديناراً . فلمّا جاء الدّور إلى الجماعة الأوّلين ، ظنّوا أن لا بدّ من أن يصيبوا أكثر من أصحابهم ، ولكنّهم نُقدوا ، هم أيضاً ، ديناراً ديناراً . فتذمّروا على صاحب الكرم ، وقالوا له : « تساوي بنا هؤلاء الآخرين ، وهم الّذين عملوا ساعةً من النّهار واحدةً ، بينما احتملنا نحن ثقله ، وشدّة حرّه ! » . فأجاب صاحب الكرم واحداً منهم بقوله : « أنا ، يا صاحبي ، لم أظلمك شيئاً ! أفلم يكن اتّفاقك معي على دينار ؟ فخذْ دينارك ، واذهبْ في شأنك . وإنّي أريد أن أنقد الواحد من الآخرين قدر ما نقدتك . أتراني لا يحلّ لي أن أفعل بأموالي ما أشاء أن أفعل ؟ أم أنّ عينك ضيّقة ، لا تطيق أن تراني كريم اليد ، أضع هباتي هنا وهنا ! » .

مثل الوزنات(*)

كأنّ حال الملكوت حال رجل أزمع السّفر ، فدعا بغلمانه ، وسلّم إليهم أمواله . هذا أعطاه خمس وزنات ، وذاك وزنتين ، وذلك وزنة

(*) من إنجيل متى (الفصل الخامس والعشرون) .

واحدة . كلٌّ على قدر طاقته . ثمَّ سافر لوقته . فتاجر صاحب الوزنات الخمس بهنَّ ، وربح خمس وزنات ، كما تاجر صاحب الوزنتين بهما ، وربح اثنتين . فأمَّا صاحب الوزنة الواحدة ، فانَّه حفر لها في الأرض ، وطمرها . فلمَّا مرَّت الأيَّام على ذلك ، وعاد سيِّد الجماعة من سفره ، أخذ يحاسبهم . فقدَّم له صاحب الوزنات الخمس خمساً أُخر ، وقال له : « أنت ، يا سيِّدي ، قد سلَّمتني خمس وزنات ، وهذه خمس ربحتهنَّ فوق الأُول » . فقال له السَّيِّد : « أنت نعم العبد الأمين الصالح ! ولقد كنتَ على القليل قيِّماً أميناً ، فسأجعلك قيِّماً على الكثير . قم ادخلْ إلى مناعم سيِّدك » . ثمَّ قدَّم صاحب الوزنتين وزنتين أخريين ، وقال لسيِّده : « لقد سلَّمتني وزنتين ، فهاتان أخريان ، ربحتُهما فوق الاثنتين » . فقال له السَّيد ، أيضاً ، ما قاله لصاحب الوزنات الخمس . حتى جاء الدَّور لصاحب الوزنة الواحدة ، فقال : « أنا عرفتُك ، أيُّها المولى ، رجلاً قاسياً ، تحصد ما لا تزرع ، وتجمع ما لا تبذُر ، فخفتُ العاقبة معك ، وجعلتُ وزنتك في حفرة ، حفرتُها في الأرض ، ريثما تعود من سفرك ، فأردُّها لك . وهي هذه ! » . فقال له السَّيِّد : « أمَّا وقد عرفتني ، أيُّها العبد الرَّديءُ ، الكسول ، رجلاً يحصد ما لا يزرع ، ويجمع ما لا يبذر ، فانَّه كان عليك أن تجعل فضَّتي عند بعض الصَّيارفة . حتى إذا عدتُ من سفري ، أخذتُ مالي ، وأخذتُ معه ما يحصل من فائدته » . ثمَّ قال : « خذوا من هذا وزنته ، وأعطوا الَّذي أعطي الوزنات العشر هذه الوزنة . فانَّ من يكون له في الرِّبح يُزاد عطاؤه ، ومن لا يكون له فيه يُوخذ ما في يده . ثمَّ اطرحوا خارجاً ، في الظُّلمات ، هذا العبد الَّذي بطل عن العمل . وهناك البكاء له ، وصريف الأسنان » .

مثل الامناء[1] العشرة[2]

أراد أحد الشُّرفاء أن يقصد إلى بلد بعيد ، يستولي فيه على المُلك ، ثمَّ يقفل منه راجعاً . فدعا بعشرة من عبيده ، وأعطى واحدهم عشرة أمْنآء ، وقال لهم : « تاجروا بهذه ريثما أعود من سفري » . وكان أهل مدينته على كره له ، فأنفذوا في إثره من يقول للنَّاس : « نحن لا نريد أن يملك هذا الرَّجل علينا » . فلمَّا عاد من سفره ، وكان قد استولى على المُلك ، أمر بالعبيد الذين سلَّم إليهم فضَّته ، ليرى كيف تصرَّفوا في مكسبها . فجاء أوَّلهم ، يقول له : « مَناك ، يا مولاي ، قد ربح عشرة أمْناء » . فقال له : « نعم العبد الصَّالح أنت ! فأمَّا وقد كنتَ في القليل أميناً ، فانَّي أولِّيك عشر مدائن » . ثمَّ جاء الثَّاني ، وقال : « مَناك ، يا مولاي ، قد ربح خمسة » . فقال له : « وأنت ، أيضاً ، تتولَّى خمس مدائن » . إلى أن جاء واحد منهم ، وقال : « هذا مَناك ، حفظته لك عندي ، في منديل . فانَّني خفت منك على نفسي ! وأنت الرَّجل القاسي ، الذي يأخذ ما لا يُودع ، ويحصد ما لا يزرع ! » . فقال له : « إنِّي بما خرج من فمك ، أيُّها العبد الشِّرِّير ، أحكم عليك ! إنَّك ما دمتَ تعلم انِّي رجلٌ قاس ، آخذ ما لا أودع ، وأحصد ما لا أزرع ، فكيف لم تجعلْ فضَّتي عند الصَّيارفة ، حتى إذا رجعتُ من سفري استوفيتُها ، واستوفيتُ |معها| فوائدها ؟! » .

---

(1) المنا (بالفتح) : كان ضرباً من النقود .

(2) من إنجيل لوقا (الفصل التاسع عشر) .

وقال لمن حضر : « خذوا منه المَنا ، وأعطوا الذي في يده الأمْناء العشرة هذا المَنا » . فقالوا له : « ذاك في يده عشرة ! » . قال : « من يكون له في الرِّبح يُزاد ،ومن لا له فيه يُؤْخذ منه . فأمَّا أعدائي الذين أبوا أن أملك عليهم ، فأتوني بهم هنا ، ثمَّ حزُّوا رقابهم بين يديَّ » .

الفصل الثاني

فضائل أهل الملكوت

(1 ـ الفضائل نحو الله) : مثل الفريسي والعشار ـ مثل حقل الكنز ـ مثل اللؤلؤة الثمينة ـ مثل طالب الحاجة ـ مثل القاضي ـ (2 ـ الفضائل نحو الناس) : مثل السامري الشفيق ـ مثل الغلام القاسي ـ مثل الحمل الضائع ـ مثل الدرهم المفقود ـ مثل الابن الشاطر ـ (3 ـ خيرات الحياة الدنيا) : مثل الغني الغبي ـ مثل لعازر والغني ـ مثل القيم الماكر .

I

« 1 - الفضائل نحو الله »

مثل الفريسيّ والعشار(*)

صعد رجلان ، فرّيسيٌ وعشّار ، إلى الهيكل ، للصّلاة . أمّا الفرّيسيُّ فإنّه وقف يصلّي بقوله : « اللّهمّ : أنّي أحمد لك ! فلست أنا كبقيّة النّاس ، من المختلسين الظّالمين ، أهل الفسق ، ولا كهذا العشّار الواقف بإزائي . بل تراني أصوم في الأسبوع مرّتين ، وأؤدّي العُشر على مقتنياتي جميعاً » . وأمّا العشّار ، فانّه وقف يصلّي بعيداً . لم يجرُؤْ أن يرفع عينيه نحو السّماء . بل أخذ يقرع صدره ، وهو يقول : « اللّهمّ اغفرْ لي ، فانّي أنا الخاطىء ! » .

ألا إنّني أقول لكم : إنّ هذا العشّار انقلب إلى بيته ، وقد برّت صلاته ، دون صاحبه . فانّ من علا بنفسه ، حُطّ منه ، ومن حَطّ منها ، عُليَ به .

(*) من إنجيل لوقا (الفصل الثامن عشر) .

مثل حقل الكنز[1]

الملكوت يشبه كنزاً قد طُمر في بعض الحقول ، فوجده أحدهم ، فأخفاه عن العيون . ومن فرط ما فرح به ، قام لوقته ، وباع كلَّ ما تملك يده ، واشترى بثمنه حقل الكنز .

مثل اللؤلؤة الثمينة[2]

الملكوت يشبه تاجراً يطلب جياد اللآلىء ، فاذا هو وجد اللُّؤلؤة النَّفيسة ، باع لوقته كلَّ ما يملكه ، واشتراها بثمن ذلك .

مثل طالب الحاجة[*]

قد يكون لأحدكم صديق ، يمضي إليه نصف اللَّيل ، يقول له : « يا صاحبي : اقرضني ثلاثة أرغفة . فانَّ صديقاً لي جائني من سفره ، وليس لديَّ من الخبز ما أقدِّمه له » ، ويجيبه صاحبه من داخل البيت بقوله : « أسألك أن لا تزعجني ، فالباب مغلق ، وأولادي إلى جانبي ، في الفراش ، فلن أستطيع النُّهوض ، لأعطيك ما تطلب » .

ألا إنَّ هذا الرجل لن يبادر إلى صاحبه بما يحتاج إليه لصداقته له ، بل لما يكون من اللَّجاجة عليه ! فسلوا تُعطوا ، واطلبوا تُجابوا ،

(1) من إنجيل متى (الفصل الثالث عشر) .

(2) من إنجيل متى (الفصل الثالث عشر) .

(*) من إنجيل لوقا (الفصل الحادي عشر) .

واقرعوا الباب يُفتح لكم . إذ انَّ الذي يَسأل يأخذ ، والذي يَطلب يجد ، والذي يقرع الأبواب يُفتح له .

مثل القاضي(*)

كان في بعض المدائن قاض لا يخاف الله ، ولا يهاب النّاس . وكان في المدينة أرملة ، تأتيه ، تقول له : « انصفني من خصمي » ، وهو لا يفعل . حتّى جاء يوم ، بعد ذلك بكثير ، فقال الرّجل في نفسه : « ينبغي لي أن أنصف هذه الأرملة ، وإن كنتُ أنا لا أخاف الله ، ولا أهاب النّاس ! فإنّما هي تلحف عليَّ ، وتضجرني ، فلا أراها تعود إليَّ بعد ذلك » .

ألا اسمعوا ما قاله القاضي الظّالم ، ثمَّ انظروا : أفلا ينصف الله الذين اختارهم من عباده ، وإن هو كان يتمهَّل في إنصافهم ، إذ يصرخون نحوه ليل نهار ! إنّي أقول لكم : إنَّ الله يتعجَّل عندئذ في إنصافهم .

2

« 2 ـ الفضائل نحو الناس »

مثل السامريِّ الشقيق(*)

كان بعضهم ينحدر من « أورشليم » إلى « أريحا » ، فوقع في أيدي جماعة من اللُّصوص ، أعروه من ثيابه ، وأوسعوه ضرباً

(*) من إنجيل لوقا (الفصل الثامن عشر) .

(*) من إنجيل لوقا (الفصل العاشر) .

وتجريحاً ، ثمَّ غادروه بين حيٍّ وميت . واتَّفق أن مرَّ به أحد الكهنة ، وكان ينحدر في الطَّريق تلقاءَه ، فأبصره ، ولكنَّه لم يأبهْ له ، ولا ألوى عليه . كما اتَّفق أن مرَّ به ، أيضاً ، أحد اللاَّويِّين[1] وأبصره ، ولم يتوقَّف له . ولكنَّ سامريّاً[2] كان على سفر من هناك ، فمرَّ ، فرآه ، فرقَّ له ، وانحنى يضمِّد له جراحه ، ويسكب فوقها الزَّيت والخمر . ثمَّ انَّه استقلَّه ، ورفعه فوق ركوبته ، وذهب به إلى نُزُل ، وعُني به بقيَّة يومه . فلمَّا كان من الغد ، وأزمع السَّامريُّ المضيَّ ، نقد صاحب النُّزُل دينارين ، وقال له : « تُعنى أنت بالرَّجل . وإنَّ الذي تنفقه عليه ، فوق ذلك ، أردُّه إليك في عودتي من السَّفر » .

فلعمركم ، أيُّ الثَّلاثة هؤلاء كان القريب الشَّفيق لهذا الرَّجل الذي وقع في أيدي اللُّصوص !

---

(1) قال يوست في « قاموس الكتاب المقدس » ما هذا حرفه (2 : 285-286) : « قد تستعمل هذه الكلمة - يريد كلمة لاوي - بمعنى جميع المتسلسلين من لاوي . وقد تخص بنسل لاويٍ ما عدا عائلة هرون ، أي الكهنة . وقد تستعمل نعتاً للكهنة لتأكيد تسلسلهم من سبط لاوي . وأما المعنى الثاني ، أي جميع نسل لاوي ، ما عدا الكهنة ، فهو الأكثر وقوعاً في الكتاب المقدس . ولا يشار في سفر التكوين إلى تقديس اللاويين ، وإنما صرح بذلك بعد أن أغاروا للرب مع موسى على صانعي العجل ، فأفرزوا من جميع الأسباط لخدمة المقدس » .

(2) قال يوست في « القاموس » المذكور (1 : 534-535) : « لم يتفق العلماء في مسئلة أصل أهل السامرة بعد الجلاء ، هل كانوا كلهم أجانب ، أو أجانب صاهروا الاسرائيليين الباقين في البلاد » إلى أن يقول : « ولما عاد اليهود من سبيهم في بابل كانوا أكثر تحفظاً على ديانتهم من قبل ، فازداد الاختلاف بينهم وبين السامرين » إلى أن يقول : « اشتدت العداوة بين الأمتين جداً في أيام العهد الجديد ، حتى أن الجليليين امتنعوا بقدر الإمكان عن المرور بالسامرة في رحلاتهم إلى أورشليم ، وإذا مروا عرضوا أنفسهم للإهانة والضرب ، وأحياناً للقتل . ونهى المسيح السبعين عن التبشير بين السامريين » .

مثل الغلام القاسي[1]

ملكوت الله يشبه ملكاً أراد محاسبة غلمانه . فجيءَ إليه بواحد منهم ، عليه عشرة آلاف وَزْنة[2] ، وليس له ما يوفي به دينه . فأمر الملك أن يُباع للإيفاء الغلام وزوجه وأولاده ، وكلُّ شيء له . فخرَّ له الغلام ساجداً خاضعاً ، يستمهله حتَّى يوفيه الدَّين . فرقَّ السِّيد لغلامه ، وأسقط له الدَّين جميعاً . فلمَّا خرج ذلك الغلام من حضرته ، صادف في الطَّريق غلاماً من رفقته ، كان مديناً له بمائة دينار ، فأخذه من عنقه ، يطالبه بالدَّين ، فانحنى له رفيقه تخشُّعاً ، وذلَّةً ، وسأله مهلةً حتَّى يوفيه دينه كلَّه . فلم يسمعْ له ، بل راح يزجُّ به في السِّجن بدينه ، إلى أن يتأدَّى إليه . وكان رفقته ينظرون إلى ذلك ، فأشفقوا ، وجزعوا كثيراً ، وانقلبوا إلى سيِّدهم ، يحدِّثونه بالخبر . فدعا إليه صاحبهم ، وقال له : « ديني كلُّه ، أيُّها الشِّرِّير ، قد أسقطتُه لك ، لضراعة منك . أفلم يكن بالاجدر أن ترفق أنت ، أيضاً ، بصاحبك ، كما رفقت أنا بك ؟! » . ثم استشاط السَّيِّد غضباً ، فدفعه إلى أصحاب التَّعذيب ، يوقعون به العذاب ، إلى أن يوفيه كلَّ ما كان له من الدَّين عليه .

مثل الحمل الضائع[3]

أيُّكم يكون عنده مائة حَمَل ، ويُضع واحداً منها ، فلا يترك التِّسعة

---

(1) من إنجيل متى (الفصل الثامن عشر) .

(2) كانت الوزنة ثلاثة الاف شاقل . وكان الشاقل أصل الأوزان ، يقسمونه نصفاً وثلثاً وربعاً .

(3) من إنجيل لوقا (الفصل الخامس عشر) .

والتّسعين في البراريّ ، ليجدَّ في طلب الحَمَل الضّائع ! وإذا اتّفق له أن يجده ، فانّه ، من فرط الفرح ، يرفعه فوق منكبيه ، ويأتي به إلى بيته ، وينادي أصحابه ، وجيرانه ، يقول لهم : « افرحوا لما بي من الفرح ! فانّي قد وجدتُ حَمَلي الّذي ضلَّ عنّي » .

مثل الدرهم المفقود[1]

أيُّ امرأة تُضيع درهماً واحداً ، من عشرة دراهم لها ، ولا توقد سراجها ، وتكنس بيتها ، تفحص عن ذلك الدّرهم فحصاً بليغاً . حتّى إذا وجدته ، نادت بصواحبها ، وجاراتها ، تقول لهنَّ : « تعالين افرحن لفرحي . فانّي قد وجدتُ الدّرهم الذي ضاع من يدي » .

مثل الابن الشاطر[*]

كان لرجل ولدان ، فقال له أصغرهما : « تعطيني ما يصيبني أنا من مالك ! » . فقسم الرّجل لولديه . وما يكون إلاّ القليل ، حتى يجمع هذا الولد الأصغر حصّته كلّها ، ويقصد إلى بلد بعيد ، يقطع فيه الأيّام لاهياً ، مسرفاً في النّفقة . فلمّا فرغت يده من المال ، وكان البلد قد أخذته مجاعة شديدة ، أحسَّ هول الفاقة ، فلاذ بأحدهم يرعى له الخنازير . ويا طالما اشتهى ، يومئذ ، أن يملأ جوفه بالخُرنوب الذي تأكله خنازيره ، ولا يظفر حتّى بذلك من يد أحد ! فقال يراجع نفسه :

---

(1) من إنجيل لوقا (الفصل الخامس عشر) .

(*) من إنجيل لوقا (الفصل الخامس عشر) .

« كم من أجير عند أبي يفضُلُ الخبز عنه ، بينا أنا أكاد أهلك ههنا من الجوع ! فما لي لا أهرع إلى أبي ، أقول له : [إنّني أخطأتُ في حقّ السَّماء ، وفي حقّك . وأراني غير جدير أن أُدعى ابناً لك . فاجعلني بعد اليوم في أجرائك ، كأنّي واحد منهم] » . ثمّ هرع من ساعته نحو أبيه . فلما رآه أبوه مقبلاً من بعيد ، رقّ له ، وهرول نحوه ، ووقع على عنقه يقبِّله . فقال له الإبن قولته : « إنّني أخطأتُ في حقّ السَّماء ، وفي حقّك . وأراني غير جدير أن أُدعى ابناً لك » إلى آخر ما قال هناك . فقال الرَّجل لغلمانه : « أخرجوا له ، من فوركم ، الحلّة الفاخرة ، واجعلوا خاتماً في يده ، ونعلاً في قدميه . وأتوا بالعجل المسمَّن ، نذبحه ، ونأكل ، ونفرح . فانَّ ابني هذا كان ميتاً فرُدَّ إلى الحياة ، وكان ضائعاً فاهتُدي إليه » . فطفق غلمانه يقيمون الأفراح ، كما أمرهم . وكان ابنه الأكبر في أثناء ذلك لا يزال يعمل في الحقل . فلما رجع ، وأصبح على مقربة من البيت ، سمع ضجة الغناء والرَّقص ، فدعا اليه واحداً من الغلمان ، يسأله عن ذلك . فقال له الغلام : « أخوك قد قدم من سفره . وعلى قدومه في السَّلامة ، ذبح أبوك العجل المسمَّن » . فغضب غضباً شديداً ، وآلى أن لا يدخل البيت . فخرج أبوه يلحُّ عليه في الدخول . فقال له : « لي في خدمتك جملة سنين . فما تجاوزتُ أنا لك كلمة ، ولا وهبتَ أنت لي جدياً ، أتنعَّم وأصحابي عليه ! حتّى إذا أقبل هذا ، ابنك ، وقد آكلته الزَّواني الفواجر مالك وخيرك ، ذبحتَ له المسمَّن ! » . قال أبوه : « أنت ، يا بُنيَّ ، مقيم إلى جانبي أبداً . وكلُّ ما عندي هو لك ، بين يديك . فأمّا هذا ، أخوك ، فانّه كان ميتاً فرُدَّ إلى الحياة ، وكان ضائعاً فاهتُدي إليه . فكان لا بدَّ لنا من إقامة المناعم والمسرَّات ! » .

3

« خيرات الحياة الدنيا »

مثل الغنيّ الغبيّ (*)

أغلَّت ضيعة واحد من الأغنياء ، في بعض المواسم ، شيئاً كثيراً ، فاخذته عند هجوم النِّعمة دهشة ، وحيرة . وراح يراجع رأيه كيف يفعل في خزن الغلّة المتكاثرة ، وليس عنده مكان يتّسع لخزنها ، إلى أن قال في نفسه : « أهدمُ أهرائي ، وأبتني لي أهراءً أعظم منها ، أخزن فيها هذه الغلاّت ، والخيرات » . ثمّ قال ، يخاطب نفسه : « ويا نفس : اطمئني ، وكلي واشربي ، وتناولي طيْب العيش باليدين ! فَانَّ لكِ على مدى الأيّام خيراً كثيراً » . فهتف الله به : ألا أيُّها الغبيُّ : إنَّ في ليلتك ، هذه ، تُطلب نفسك من يدك . فلمن يكون بعدها هذا الّذي تعدُّه لنفسك ! » .

مثل لعازر والغنيّ (*)

كان رجل من الأغنياء المترفين يلبس في يومه الأرجوان والبزَّ ، ويأكل الفاخر . وكان عند بابه فقير ، مسكين ، اسمه « لِعازَر » ، قد علت جلده القروح ، حتّى لتمرُّ به الكلاب ، فتأتي تلعقها ، وهو الذي يشتهي أن يُشبع جوفه من فتائت ما يسقط من مائدة ذلك الغنيّ .

(*) من إنجيل لوقا (الفصل الثاني عشر) .

(*) من إنجيل لوقا (الفصل السادس عشر) .

فلمَّا قضى أجله ، رفعته الملائـك إلـى حضـن ابـراهيم . ثمَّ قضـى الغنيُّ ، أيضاً ، أجله ، فدُلِّي في قبره . فرفع عينيه وهو في الهـاوية ، في العذاب ، ورأى على بعدٍ ابراهيم ، لِعازَر قائماً بين يديه . فصاح بقوله : « رحماك ، يا أبـتِ، يا ابراهيم ، وابعثْ لِعازَر يبلَّ في الماء طرف إصبعه ، ويبرِّد به لسَاني . فانَّني في هذا اللَّهيب علـى عذاب شديد » . فقال له ابـراهيم : « اذكرْ ، يا بُنـيَّ ، انَّـك استـوفيت في حياتك نصيبك من النُّعمى ، كما قد استوفى لِعازَر في حياته نصيبه من البلوى ! فاليوم يلقى هو العزاء ، وتلقى أنت العـذاب . ثمَّ إنَّ بيننـا وبينكم ، فوق هذا كلِّه ، هوَّةً بعيدة القرار ، ثابتة ، لا يستطيع معها الذين يريدون منَّا العبور إليكم أن يفعلوا ، ولا يستطيعه الذين يريدون منكم العبور إلينا » . فقال الغنيُّ : « أنا ، إذنْ ، أسألك ، يا أبتاه ، أن تبعث لِعازَر إلى بيت أبي ، ولي إخوة خمسـة ، فيخبرهـم بجليَّة الأمر خبراً قاطعاً ، حتَّى لا ينقلبوا ، هم أيضاً ، إلى مكان العذاب ، ههنـا » . قال ابـراهيم : « إنَّ عندهـم موسـى ، وعندهـم الأنبياء ، فليصغـوا إليهـم » . قال : « أرى ، يا أبتِ ، إنَّهـم يرجعـون عن المعصية يوم يجيئهم شاهد من الموتى » . فقال ابـراهيم : « لئن هم كانوا لا يصدِّقون موسى ، ولا الأنبياء ، فانَّهم لا يصدِّقون أحـداً في شيء ، ولو جاءَهم من عند الموتى ! » .

مثل القيم الماكر(*)

كان لبعض الأغنياء قيِّم وُشي به عنده انَّه يبدِّد ماله ، ويُسرف فيه .

(*) من إنجيل لوقا (الفصل السادس عشر) .

فدعا به ، وقال له : « ويحك ! أيُّ شيء هذا الذي سمعته من أخبارك في التّبديد والإسراف ! فجئني الآن بالحساب ، فإنّه لن يكون لك ، بعد اليوم ، أن تظلَّ قيِّماً على مالي » . فقال القيِّم في نفسه ، يشاورها : « تُرى كيف أصنع ؟ وهذا مولاي ينزع عنّي وكالته ، وأنا لا أستطيع العمل في الفلاحة ، ثمَّ إنّي أخجل من اجتداء الأكفّ ! » . فلمّا جمع رأيه ، قال يحدِّث نفسه : « الآن عرفتُ كيف أصنع . حتّى إذا عُزلت عن الوكالة ، وجدتُ بين يديَّ من يحلُّني بيته ! » . ثمَّ إنّه استدعى إليه غرماء مولاه ، وجاءُوه واحداً بعد واحد . فقال لأوّلهم : « كم عليك من الدَّين للمولى ؟ » ، قال الرَّجل : « مائة بَثٍّ[1] من الزَّيت » . فقال له : « هذا صكُّ الدَّين الذي عليك . خذْه ، واكتب فيه خمسين ، بدلاً من مائة » . ثمَّ قال لآخر : « وأنت كم عليك ؟ » ، قال : « مائة كُرٍّ[2] من القمح » . فقال له : « خذ الصَّكَّ ، واكتبْ ثمانين » . وهكذا إلى آخر الجماعة .

فكان أن امتدح الغنيُّ قيِّمه هذا ، الذي خانه في الحساب ، لما خدعه من دهائه . وإنَّ أبناء هذا الزَّمن أعلى دهاءً فيه من أبناء النُّور .

---

(1) مكيال كان للسوائل .

(2) مكيال كان للجوامد .

مقدّمة الاستاذ نخله(*)

لوليّ الدين ، من المؤلّفات : « فكاهة ذوي الهمم » ، و « المعلوم والمجهول » ، و « خواطر نيازي » ، و « الصّحائف السّود » ، و « التّجاريب » ، و « دكران ورائف » ، و « ديوان وليّ الدين يكن » ، و « عفو الخاطر » . أخرجت الخمسة الأولى ، منها ، وهو في الحياة ، وأخرج « الدّيوان » ، وجانب من « دكران ورائف » ، بعد وفاته ـ رحمه الله .

أمّا « عفو الخاطر » ، فهو الذي فيه قال ، في الصفحة 130 من « التّجاريب » ، الأستاذ فؤاد مغبغب (وقد عُني بنشر « التّجاريب » يومئذ ، أي سنة 1913) ، من كلام له :

« عرف قرّاء مؤلّفات وليّ الدين بك يكن السابقة كالمعلوم والمجهول والصحائف السود وهذا الكتاب المؤلّف سياسيًّا واجتماعيًّا . وسيصدر قريباً كتاب عفو الخاطر فيعرفونه ادبيًّا . إذ قد خلا الكتاب المذكور من كلّ شيء سوى الأدبيّات من شعر ونثر » الى آخر قوله .

الأّ ان « عفو الخاطر » لم يُمثّل بالطبع ، بعد ذلك ، وبقي أصله في يد ناشر « التّجاريب » ، وقضى وليُّ الدين أجله ، دون أن يتسنّى له طبع الكتاب .

وفي أواخر سنة 1921 (وهي السنة التي فيها توفّي وليُّ الدين) ، أطلعني الأستاذ مغبغب على مخطوطة الكتاب ، وكان وليُّ الدين بيده قد جمع فصولها ، وبوّبها ، وعنونها ، وحرّرها ، فنسخت « عفو الخاطر » نسخ من يعلم انّ ذلك الحبر أغلى من التّبر ! وحفظت الكتاب ، عندي ، الى اليوم .

(*) وضعت هذه المقدمة لكتاب عفو الخاطر لولي الدين يكن ـ الطبعة الأولى 1955 .

أمّا الأصل ، فانّه قد ضاع . استعاره من الأستاذ مفبغب المرحوم الأستاذ أنطون الجميّل ، قبل وفاته بقليل ، لينسخه ، وتوفيّ دون أن يردّه ، فلم يُعثر عليه ، بعد ذلك .

ومّا تجب ملاحظته ، هنا : انّ ما جاء في « عفو الخاطر » من شعر وليّ الدين ، وهو ، على الجملة ، لا ينزل من طبقة شعره ، لم يُذكر في ديوانه (اللّهمّ إلاّ الأبيات التي بها صدّر فصل « جوجو » . وقد أوردها لعلاقتها الشديدة بالفصل المذكور ، وهي في الصفحة 119 من الدّيوان) ، فكأنّه أراد أن يجعل هذه الطائفة ، من شعره ، خاصّة بهذا الكتاب ، وانّ الحواشي ، المعلّقة عليه ، هي في الأصل ، وقد تُركت ، في المطبوع ، على حالها .

* * *

وبعد : فهذا « عفو الخاطر » . أذنت بنشره ، لخصلتين - إحداهما : انّه هو ، بين آثار وليّ الدين ، الكتاب الذي به أدرك صاحبه أبعد الغايات من ذلك الطابع اليكنيّ الفريد . فمن الخدمة لأدب العرب ، من جهة ، ولاسم وليّ الدين ، من جهة أخرى ، نشر هذا الكتاب في الأقطار العربيّة !

الثانية : انّ وليّ الدين كان صديقاً لوالدي ، رحمهما الله ، على ما سيرى القرّاء ، في الفصل الذي عنوانه : « الى رشيد نخله » . جمعتهما على المودّة ، وخلوص العهد ، وحدّة المنزع في حبّ البيان الحرّ ، والإيثار للطّبع ، ومجاراة الخاطر . فأحببتُ أن أحيّي روح وليّ الدين ، بهذه الذكرى ، عسى أن يكون لها ، من معاني الرّعاية الجميلة ، ما يجري حسابه إلى روح صديقه ، الجالس الى جانبه في مقعد الصّدق ...

امين نخله

فهرست

أوراق مسافر

«في الهواء الطلق»

الفصل الأول : التَّذكارات

الفصل الثاني : النَّجاوى

الحركة اللغوية في لبنان

كتاب المئة

كتاب الدفائق

أمثال الانجيل